لجنة التأليف والترجمة والنشر

خلاصة علم النفس

تأليف

احمد فؤاد الاهوانى

طبقاً للمنهج الموضوع فى علم النفس لطلبة السنة التوجيهية

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٨

لجنة التأليف والترجمة والنشر

خلاصة علم النفس

تأليف

احمد فؤاد الأهوانى

طبقاً للمنهج الموضوع فى علم النفس لطلبة السنة التوجيهية

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٨

كلمة المؤلف

لقد جرى الناس — من قديم — أن يخضعوا للحياة، تسيرهم كيف شاء لها الهوى، وتطغى عليهم بسيلها الجارف من ظروف قاسية، وأرزاء فادحة، حتى فطن الناس أن لهم إرادة وحرية، وفكراً ثاقباً علوياً، ومشاعر تتأثر بشتى الأحاسيس، ومختلف الانفعالات، فنهضوا يشقون طريقهم فى الحياة الوعرة الصعبة المسالك، المتشعبة النواحى، المتضاربة الأغراض، المتعارضة الغايات.

والحياة التى نقصدها: هى حياة الإنسان فى صلته بالمجتمع الذى يعيش فيه، لأنه لا يعيش منفرداً، ولا يمكن أن يعيش إلا فى مجتمع يتصل أفراده ويتباعدون، وتتضارب مصالحهم، وتختلف غاياتهم، ويخرجون من هذه المعركة الحامية بما ينشدونه فى هذا العالم: وهو حفظ الحياة أولاً، ثم السعادة ثانياً.

ولكى تصل إلى الاحتفاظ بكيانك، وتوفير السعادة فى الحياة، يجب أن تدرس الميدان الذى تنزل إليه لتحقق مطالبك، وتنجح فى أغراضك. وهذا الميدان هو: أفراد المجتمع الذين ستحتك بهم فى أعمالك، وتختلف وإياهم فى أغراضك، وتحتاج إليهم لمعونتك والعطف عليك، وتسخرهم فى تنفيذ غاياتك، ويستغلونك فى تنفيذ أغراضهم.

ولن تصل إلى هذا كله إلا بالضوء تلقيه على سلوك الناس، حتى تتعرف سبلهم، وتدرك أغراضهم، وتلائم بين نفسك وبينهم، وتوفق إلى الطموح نحو المثل الأعلى الذى تنشده فى الحياة.

والمصباح الذى ينير حجب النفوس ، ويزيل ما يغشيها من ظلام كثيف هو علم النفس الحديث .

* * *

هذا العلم الذى يتصل بدرس سلوك الإنسان ، له فائدة كبيرة فى إيضاح هذا السلوك ، وبيان القواعد التى يجرى عليها . ونستطيع بهذه المناسبة أن نضرب فى فائدته بعض الأمثال ، لا على سبيل الحصر ، بل على سبيل المثال .

وقد عرف الغربيون ما لهذا العلم من قيمة ، فانبثت الدراسات النفسية فى كل فرع من فروع الحياة ، وفى كل ناحية من نواحى العلوم ، وأصبحت الحياة العملية تستمد دعائمها التى تقوم عليها ، وأسسها التى لاتنهض إلا بها من الأبحاث النفسية . فأصبحت التجارة مثلا بجميع فروعها ، الإنتاج من ناحية ، والاستهلاك من ناحية أخرى ، والوساطة بين المنتج والمستهلك من ناحية ثالثة ، لا تقوم إلا على الأبحاث النفسية ؛ وإنك لتجد المصنع القائم فى اليابان يدرس نفسية الشعب فى مصر — على شدة ما بين البلدين من بعد — حتى ينتج له ما يلائم ميوله ، ويتفق ورغباته .

وتجد الإعلان فى أمريكا ، والأزياء فى باريس ، ومعاهد التمثيل والجمال ، ومؤسسات الأمراض العصبية ، بل فن إصدار الصحف ، وإخراج الكتب ، بل أكثر من هذا المحامى الذى يدافع عن موكله ، والخطيب الذى يخطب الجماهير ، والطبيب الذى يعالج مرضاه ، والمدرس الذى يلقن الطلاب ، والوالد الذى يربى ابنه . . . . . . كلهم لا يؤدون أعمالهم ، ولا يقومون بهذه المهام إلا على أساس من علم النفس .

* * *

إذا كان هذا العلم من الخطر كما ذكرنا ، فلماذا تأخر الناس فى دراسته ؟ الحقيقة أن العلم قديم ، وقف جنباً إلى جنب مع الفلسفة ، بل كان فرعاً منها .

وللحكماء والمفكرين شذرات متناثرة تصف أحوال النفس فى كتبهم المختلفة ، ولكن استقلال العلم لا يرجع إلا إلى زمن قريب .

ولأصحاب الفطر السليمة ، والنظر النافذ ، والبديهة الحاضرة ، والعارضة القوية ، والإلهام الطبيعى ، نظرة سديدة إلى النفس الإنسانية ، يستشفون من ورائها بالسليقة الطبائع المختلفة التى يشترك فيها الناس ، وتلك التى يتفاوتون فيها ، ويدركون منها شتى الميول والرغبات والنزوات والحالات التى تتنازع النفس الإنسانية . ونستطيع أن نقول إن كل شخص من هذه الناحية « عارف » بالنفس مع تفاوت بين الكثرة والقلة ، وبين الصحة والخطأ ، ولكن ليس كل « عارف » بالنفس « عالماً » بها ؛ فهذه المعرفة الشائعة ، معرفة عملية أولية ، يكتنفها النقص ، ويتخللها الغموض والإبهام فى كثير من الأحايين . ولا بد لنا إذا شئنا أن نساير الحضارة الحديثة ، وأن نتابع تقدم العلوم ، أن نخطو بعلم النفس من مرحلة الظن والتخمين ، إلى ميدان الدقة واليقين .

يشبه أفلاطون النفس الإنسانية بعربة يقودها سائق ويجرها جوادان ، أحدهما كريم مطيع والآخر شرير مشاكس ، أما السائق وهو « العقل » فهو فيلسوف وصديق المعرفة ، وهو الذى يدبّر ويسوس الأمور ، أما الجواد الكريم فهو « القلب » الذى تصدر عنه جميع الأحاسيس الطيبة كالشجاعة والرفعة والحلم . أما الجواد اللئيم فهو « الشهوة » التى تنشد المال والزينة والرغبات الدنيئة فى الحياة . ويوازى هذه القوى الثلاث طبقات ثلاث فى المجتمع ، فطبقة الحكام يمثلها العقل ، وطبقة الجند يمثلها القلب ، وطبقة العامة والصناع والفلاحين تمثلها الشهوة . هذا

هو رأى أفلاطون ، أجملناه لنبسط رأياً من آراء أنصار القديم ، وهو على ما فيه من جمال وخيال ، لا يعتدّ به فى علم النفس ولا يقام له وزن ، لأنه يبحث النفس من النـاحية الأخلاقية ، لا من الناحية النفسانية ، فهو يبين رفعة القلب وخسة الشهوة ، وهذه الأمور المعيارية تبحث فى باب علم الأخلاق .

* * *

ولم يستطع هذا العلم أن يتخلص من ربقة المعتقدات الميتافيزيقية التى وقرت فى أذهان الناس وسيطرت على الأفهام قرونا طويلة من الزمن .

وأول هذه المعتقدات هى القول بإثبات « النفس أو الروح » الإنسانية ، التى لا يعرف مقرها أو موضعها من الجسم ، ولا نستطيع أن نثبت وجودها أو عدم وجودها بالبحث العلمى . فلما نبذ العلماء هذه المعتقدات — ولم يتم لهم ذلك الأمر إلا حديثاً — تشعّب الباحثون فى كل منحى يزيحون الستار عن مجاهل الحالات النفسانية ويحاولون أن يقيموا العلم على قواعد صحيحة .

ولـكن العلماء فى الممالك المختلفة — وهم لمّا يزالوا فى بداية البحث — نظروا إلى علم النفس من جهات مختلفة ، فاختلفت دراساتهم تبعاً للجهات التى سلـكوها ، حتى ظن كثير من الناس أن هذا العـلم لا نصيب له من الصحة ، وتعصب كل فريق لوجهة نظره ، وانقسم البـاحثون إلى معسكرات كثيرة لكل منها أشـياع وأنصار . ونحن لا يروعنا هذا الخلاف العلمى ، فقد اختلف العلماء فى بحث كل علم جديد ، ولا نستطيع أن نعدّ هذا الخلاف دليلا على فساد العلم ، بل غاية الأمر أنها وجهات من النظر كل نظرة منها صحيحة من الجانب الذى يقف الباحث منه ، وستلتقى هذه الجهات بعـد التمحيص والاستقراء ، وحينئذ يستقيم العـلم صحيحا ويخرج كاملا دقيقا .

وقد أخذنا فى هذا الكتاب بأحدث النظريات وأدق الدراسات ، ولم نعرض لما بين العلماء من خلاف ، حتى لايتيه طالب العلم فى هذه المناحى المتشعبة ، ولكن هذه الخلاصة التى أقدمها للقراء ، والتى أستطيع أن أعدّها كاملة شاملة لجميع دقائق العلم ، أقصد منها أن تكون طريقا يفتح أبواب العلم للقارئين ، وباعثا إلى حبه ، ودافعا إلى استكمال درسه :

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

من العلوم الحديثة التى نالت شهرة بعيدة ، وقيمة كبيرة ، وأصبح لها شأن فى الحياة ، ومكان ممتاز بين العلوم : علم النفس . وهو حديث لأنه لم يتحرر من قيود الفلسفة التى كان عبئا عليها وفرعا منها ، مكتسبا صبغة علمية بحتة ، ورداء وضعيا [1] يجعلنا نسطره فى قائمة العلوم كالطبيعة والكيمياء . . . إلا قريبا . وهو علم يبحث فى الحياة النفسية للإنسان ، لهذا نجد له علاقة بكل مايعمله الإنسان . وليس أحب إلى الإنسان وأولى باهتمامه من دراسته لنفسه ، ومن هنا نشأت أهميته والحاجة الماسة إلى تعلمه . ولما كان علم النفس هو العلم الذى يبحث فى نفسك ويعلمك من أنت ، فإنك ولا شك قد تعجب كيف تجهل نفسك التى هى أشد الأشياء اتصالا بك ويزداد بك العجب ، كيف يمهد لك سبيل هذه المعرفة شخص آخر ، وأنت أدرى الناس بنفسك ! ؟

والجواب على هذا يسير ، إذ أن الإنسان لايجذب نظره إلا الشىء الغريب النائى عن مجرى حياته وعاداته . ولذا كانت الأشياء التى وجه الإنسان إليها عقله وتوفر على التفكير فيها هى : الشمس والقمر والنجوم والكواكب التى هى أبعد الأشياء عنا ؛ وقد ظل الإنسان يبحث فى العالم الخارجى ، فى الرياضيات ومظاهر النبات ، وفى عجائب الحيوان ، صادفا عن النظر إلى داخل نفسه حتى فطن

---

(1) Positive

سقراط إلى ضرورة دراسة النفس الإنسانية أولا ، لأنها أجدر وأولى من دراسة العالم الخارجي ، ولذا قيل : إن سقراط هو أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، أى أول من حوّل اتجاه أفكار الناس من العالم الخارجي إلى العالم الداخلى .

لمحة من تاريخ العلم :

قلنا إن علم النفس كان فرعا من الفلسفة ، والواقع أن العلم والفلسفة ظلاَّ زمانا طويلا — وفى علوم كثيرة غير علم النفس أيضا — مختلطين لا يمكن التمييز بينهما ، لأن الذى يميز العلم إنما هو تمحيص المظاهر أولا ، والروح التجريبية ثانيا ، وخضوع النظريات للحقائق ثالثا ، بينما الفلسفة تقنع بالنظر العقلى الذى يستمد تماسكه من التسلسل المنطقى ، فتقتصر على المسائل التى لا يمكن إخضاعها للتجربة والتحقيق .

وقد بحث اليونانيون فى علم النفس كما بحثوا فى غيره من العلوم ، ولكنهم واجهوا العالم فى أبحاثهم بنظرة عملية تارة ، وبنظرة فلسفية تارة أخرى ، دون أن يفصلوا بين النظرتين ، حتى جاء « أرسطو » الذى وجّه عنايته نحو عالَم الطبيعة يلاحظ ظواهرها ، ويجمع حقائقها ، فكانت الخطوة الأولى الجريئة نحو فصل العلم عن الفلسفة إلى حد ما . هذا وقد جمع أرسطو كثيرا من الحقائق فى علم النفس اتخذها علم النفس الحديث أساسا له فى بحثه ، ولا يزال يعتمد على بعضها فى كثير من الأحوال . ثم هبت على العالَم أجمع بعد ذلك ريح من الركود العلمى لا يهمنا الآن بحث أسبابه ، إلى أن كان عصر النهضة ، نهضة الفكر ، فبزغ نجم ديكارت فى سماء ذلك العصر ، وسجل كثيرا من الملاحظات العلمية الخاصة بالعمليات العقلية . واستمرت هذه الحركة عند المدرسة الإنجليزية (هوبس ،

ولوك ، وهيوم ، وهاملتون ، واستيوارت ميل . . ألخ) فى صورة أخرى ، فى صورة تجريبية ؛ ولـكنهم رجعوا إلى البحث الفلسفى مرة أخرى فيما يختص بعلم النفس ، فلم تصبح لآرائهم القيمة العلمية .

هذا وقد ظل الكثيرون يحاربون إخراج علم النفس من الفلسفة وعلى رأسهم « أوجست كونت [١] » الذى أنكر وجود علم النفس علما قائما بذاته ، مهاجما بهذا الإنكار طريقة التأمل الباطنى — وهى المنهج الأول الذى يعتمد عليه علم النفس — مهاجمة عنيفة ، ولـكن — رغم كل ذلك — أثبت العلم وجوده ، إذ ثمة موضوع خاص له ومنهج مستقل لدراسته ، كما سيأتى بعد .

---

(١) Auguste Comte.

الفصل الأول

موضوع علم النفس [1]

لم يصبح علم النفس علما وضعيا إلا من عهد قريب ، ذلك أنه كان فرعا للفلسفة ، فقد كان الباحثون فى علم النفس يضعون نصب أعينهم البحث عن ماهية النفس أو الروح . ولما كانت هذه الدراسة داخلة فى مباحث ما وراء الطبيعة ، لم يصل الباحثون إلى معرفة وضعية جديرة بالاعتماد عليها . ولما كانت مهمة القدماء هى البحث عن النفس أو الروح ، فقد سمى العلم الذى يعرض لهذا البحث بعلم النفس Psychologie ، وهذه كلمة تمتد أصولها إلى كلمتين إغريقيتين Psyché ومعناها النفس ، و Logos ومعناها درس . ثم انصرف العلماء إلى ناحية أخرى من البحث أكثر إنتاجا ، وأدعى إلى الوصول إلى نتائج صحيحة ، تلك هى البحث عن مظاهر النفس ، لأن النفس أو الروح عند المثبتين لها شىء لا ندركه ولا نمسه ولا نحسه ، قال الله سبحانه وتعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى »

فإذا كنا قد احتفظنا بهذه التسمية القديمة فهو احتفاظ غير دقيق ، ولكننا تعودنا ذلك فلا سبيل إلى الرجوع عنه ، وذلك مثل إطلاقنا اسم جزر الهند الغربية خطأ على الجزر الواقعة فى شرقى أمريكا .

وقد ظل علم النفس متصلا اتصالا وثيقاً بالفلسفة بل فرعاً منها . ولم تبدأ دراسة هذا العلم دراسة منفصلة مميزة عن غيرها من العلوم إلا فى القرن الثامن عشر

---

(١) L'objet de la Psychologie

حيث قام بعض العلماء على التتابع يحاولون بحث المسائل النفسية بطريقة علمية .

وظل تاريخ علم النفس حتى القرن التاسع عشر خاضعاً لحركتين مختلفتين وتيارين متباعدين ، يقتربان تارة ، و يتباعدان فى تعارض تارة أخرى ، وهما :

(١) محاولة العلم أن يتخلص من الفلسفة ، وهـذه المحاولة قد تذهب إلى حد إخضاع علم النفس إلى علم وظائف الأعضاء .

(٢) محاولة البحث عن ميـدان علم النفس وعن طرق البحث فيه ليصبح علما مستقلا .

وقد أنشئت فى انجلترا وفرنسا وألمانيا و إيطاليا وأمريكا المجلات العلمية الخاصة بعلم النفس ، وذلك فى أواخر القرن التاسع عشر ، وفى هـذا دليل على استقلال العلم ، وعلى الاعتراف بكيانه الخاص .

ولـكن أصوات المعارضة ارتفعت من جديد ، لا لتنكر على العـلم وجوده ، ولـكن لتحتج على وضع علم النفس ، وهو علم العقل ، فى مكان واحد من العلوم الطبيعية . وعاد علم النفس على أعقابه فى حركتين :

(١) الحركة الأولى تنادى بأهمية الاتصال المبـاشر [١] بالحالات النفسية وعلى رأس هذه الحركة « برجسون » وقد تأثر « وليم جيمس » بآراء برجسون وأصبح يقول بمبادئه ؛ وهى حركة فى مجموعها ميتافيزيقية .

(٢) الحركة الثانية اجتماعية ، وهى تنادى بإخضاع الدراسة النفسية للمجتمع وعلى رأسها « دوركهيم » .

وظلت سفينة العلم فيما بين الحركتين ، تجرى حاملة راية النصر ، وسنرى فى النهاية لمن يعقد الظفر .

Intuition (١)

ولا يجب أن نخشى هـذه الاتجاهات المختلفة ، وأن يهدم تعارضها أساس العلم ، فإنْ هي في الواقع إلا وجهات نظر لموضوع واحد ، تنير مسالكه المختلفة وتلقى الضوء على فروعه المتشعبة .

ميدان علم النفس[١] :

إذا شئنا أن نضع تعريفاً لعلم النفس فإننا نجد ذلك من الصعوبة بمكان ، وأقرب التعاريف إلى أنفسنا هو أن نقول : إن علم النفس هو العلم الذى يبحث فى الظواهر النفسية [٢] .

وهو تعريف صريح فى ظاهره ، ولكنه يؤدى إلى كثير من اللبس ، ذلك أن كل شيء له ناحية نفسية ، فالصفات التى يلاحظها عالم الطبيعة ، والوثائق التى ينقدها المؤرخ ، ترجع فى النهاية إلى معان وذكريات ومدركات ، أو قل إن شئت إلى موضوعات عقلية . ومن ناحية أخرى نجد أن الصور والأفراح والآلام والميول والرغبات تتجسم فى صور مكانيـة . وهى تمثل دائماً فى وضوح أو غموض ، حالات الجسم وحركاته .

فإذا قلنا إنها ظواهر أو أحداث باطنة ، فإننا نقصد أولا وقبل كل شيء ، أنها لايدركها الناس جميعاً بل يدركها صاحبها فقط ، كما أن البيوت من الداخل لايراها المارة فى الطريق ، ولكن هـذا لايدل على أن المقيمين فى داخلها يختلف إدراكهم عن إدراك غيرهم ، بل يدل على أن معرفة باطن المنزل محدود بأصحابه . كذلك إدراك الإنسان لظواهر نفسه وقف عليه .

---

(١) راجع مقال الأستاذ « لالاند » عن ميدان علم النفس فى الجزء الأول من كتاب « دوماس » فى علم النفس .

(٢) Phénomènes psychologiques .

فإذا كنا لانستطيع أن نضرب صفحاً عن هـذه الناحية الشخصية فى علم النفس ، فإنه لا بد لنا أن نتجه به إلى ناحية موضوعية أيضاً ، هـذه الناحية الموضوعية هى سلوك الناس وتصرفاتهم ؛ وقد نشأ عن ذلك نوع من الدراسة فى علم النفس هو ما يسمى بعلم النفس السلوكى ، ذلك أنه لضروب الحيوان الراقية وعلى الأخص الإنسان لأنه أشرفها ، طريقة خاصة للسلوك فى الظروف المختلفة من الحياة ، ونهجاً خاصاً يطرقه فى ميادين الحياة المتباينة ، وردوداً على المؤثرات التى يلقاها ، أو قل إن شئت نوعاً من السلوك لايتفق مع الوظائف المنتظمة العامة التى تدرس عادة فى علم الفسيولوجيا .

فالاتجاه الحديث فى علم النفس هو أن يكون هذا السلوك موضوع البحث . وقد لجأ العلماء إلى هذه الناحية ليتجنبوا كثيراً من المسائل المعقدة التى لم يصلوا إلى حلها فيما يختص بالحياة العقلية وفيما يختص بنفسية الحيوان .

ولا شك أن هذا الاتجاه فى علم النفس قد أدى له خدمات جليلة ، من حيث الوصول بالأبحاث إلى الدقة والوضوح ، والتقريب بين علم النفس و بين غيره من العلوم الطبيعية ؛ ولكن هذه الطريقة لاتستطيع أن تستغرق جميع فصول العلم ، و إذا كانت صالحة فى بعض الأبواب ، فإنها تقف عاجزة فى أبواب أخرى ، إذ أنه كيف نصل إلى دراسة الألم والفرح والرغبة دون أن يرجع أصحابها إلى أنفسهم . ولنضرب مثلا أكثر إيضاحاً لما نريد أن نقول ؛ حينما أجرى العلماء التجارب على التعب ، وجدوا أن التأمل الباطنى ضرورى ، لتمييز الآثار الناشئة عن المجهود المستمر من تلك الناجمة عن الضيق أو المترتبة على تهيج سطح الجلد .

كذلك لا نستطيع أن نضرب صفحاً عن الناحية الوجدانيـة من الحياة

النفسية ، كالعواطف المختلفة التي تحدد مواقفنا من غيرنا ، وتحدد مواقف الناس منا ، وتحدد موقفنا نحو أنفسنا .

يكفي أن نتصور إنساناً آلياً ، يتحرك ويسكن ويأكل ويشرب ويبتسم ويتكلم ويقوم بالعناية بأمرك ، ويجيبك إذا حدثته ، ويحييك إذا انصرف عنك ... أتظن أنك تنزل هذه الآلة منزلة الإنسان ؟

ويجب ألا ننسى علماً له أهمية هو علم الأخلاق ، يستمد دعائمه من علم النفس ، من حيث هو دراسة الضمائر الخفية ، والمشاعر الباطنة ؛ فإذا كان علم الأخلاق ينشد الواجب فإن علم النفس يصف الواقع . ونحن نعلم أن قيمة الأعمال الخلقية لاتنحصر في انطباقها على القوانين ، بل في النوايا الطيبة أو الخبيثة التي تدفع صاحبها إلى العمل . فإذا اقتصر علم النفس على الوصف الظاهري للأعمال ، كأن نقول إن الألم هو مجموع أعراض نشخصها كما يأتي : تقلصات عضلية ، اضطراب وضعف في التنفس ، عرق ، اتساع حدقة العين ... ألخ ، فلن نستطيع أن نستفيد من علم النفس في علم الأخلاق أو التربية .

والخلاصة من كل هذا أن علم النفس أصبح هو العلم الذي يبحث في سلوك الناس وتصرفاتهم وأعمالهم من حيث هي مظهر للظواهر النفسية .

وعلى أساس هذا التعريف يتجه البحث إلى ناحيتين : الأولى مسالك الناس ، والثانية الظواهر النفسية ، مثال ذلك إذا رأيت رجلا يعالج باباً مقفلا ، فهنا أمران : الأمر الأول العمل أو السلوك الذي صدر عن هذا الرجل ، وهو وقوفه إلى الباب يحاول أن يفتحه ، الأمر الثاني ما يجري في ذهنه من التفكير في كيفية معالجة الباب ، ومن الأحاسيس الوجدانية ، كالغضب لعدم تمكنه من الفتح ، وصعوبة الحال أمامه ؛ فالتفكير والغضب ظواهر نفسية ، ووقوف

الرجل بجانب الباب وتحريك يده هو السلوك الواضح لنا . فأساس علم النفس البحث فى الظواهر النفسية التى تؤدى إلى العمل ، أو العمل من حيث هو مظهر لهذه الظواهر أو الأحداث .

مناهج البحث فى علم النفس :

لكل علم من العلوم طريقة خاصة للبحث فيه ، فنهج الرياضة يختلف عن منهج العلوم الطبيعية أو العلوم التاريخية . ويرجع التقدم العلمى والوصول به إلى الدقة والكمال ، إلى كشف المنهج العقلى الصحيح الذى نهتدى به إلى الوقوف على خبايا العلم . وقد ظلت العلوم الطبيعية حتى عصر النهضة فى أوربا متأخرة ، حتى فكر الفلاسفة فى النهج الذى يسيرون عليه ، ليفتح أمامهم أبواب العلوم . ونستطيع أن نوجز منهج العلوم الطبيعية فيما يأتى :

(١) ملاحظة ظواهر الطبيعة وجمع المتشابه منها تحت الكليات العامة .

(٢) محاولة تعليل هذه الكليات العامة بافتراض الفروض .

(٣) تمحيص هذه الفروض ونبذ الفاسد منها واستبقاء الصحيح الذى يسمى حينئذ قانوناً .

فطريقة البحث فى العلوم الطبيعية تبدأ بملاحظة الظواهر ، وتنتهى بالقوانين العامة .

فهل لنا أن نسلك نفس هذه الطريقة فى علم النفس ؟ أما أصحاب المدرسة السلوكية [١] وهم الذين يحاولون أن يدرسوا الإنسان باعتبار أنه موجود مادّى يعمل ويتصرف فى عالم الحس دون أن يعترفوا بما للظواهر النفسية من الوجود ، فإنهم يتبعون طريق الملاحظة الخارجية أو الظاهرة .

---

(١) Behavioristes

ولـكننا لم نأخذ بهذا الجانب فقط فى تعريفنا للعلم ، بل أضفنا إليه وجهة نظر أصحاب المدرسة الأخرى ، وهم الذين يعترفون بوجود الظواهر النفسية . فهل تصلح طريقة الملاحظة الظاهرة فى البحث عن الأحداث النفسية ؟

الظواهر النفسية التى تدور بخلد صاحبها لا يستطيع أن يعلمها على وجه التحقيق إلا صاحبها فقط ، فهو الذى يشعر بفرحه وألمه وخوفه وغضبه ، وهو الذى يشعر بتفكيره ، وهذه الحالات محبوسة فى نفس صاحبها كسكان المنزل لا يرام المارة من الطريق ، ولـكنهم هم الذين يرون أنفسهم . و إذن فلا مندوحة لنـا ، إذا أردنا أن نسجل هذه الحالات التى تدور فى أنفسنا ، إلا أن يسجلها صاحبها ، ومن هنا نشأت طريقة التأمل الباطنى .

التأمل الباطنى [١] :

هو ملاحظة الإنسـان لنفسه ، أو انعطاف الشخص على نفسه ، ليراقب ما يجرى فيها من الحالات والظواهر .

وهذه طريقة ينفرد بهـا علم النفس عن غيره ، و يتميز بها عن سائر العلوم . ذلك أننـا حين نلاحظ الظواهر الطبيعية يكون الشخص الملاحظ مستقلا عن الحقائق التى يلاحظها . ولـكننا ها هنا نجد أن الشخص يلاحظ نفسه ، فالملاحِظ والملاحَظ شىء واحد .

وقد اعترض العلماء على طريقة التأمل الباطنى بما يأتى :

(١) لا يستطيع الشخص أن يلاحظ نفسه فى عين الوقت الذى تحدث فيه الظاهرة ، فلو فرضنا أنه يقرأ فى كتاب و يريد أن يلاحظ كيف يقرأ ، فهذا أمر

---

(١) Introspection.

مستحيل ، لأن النفس لا تستطيع أن تقوم بعملين مختلفين فى آن واحـد . إذ كيف يلاحِظ فى نفس اللحظة التى يقرأ فيها ؟ وعلى ذلك يكون ما تقع عليه هذه الملاحظة إذا تمت ليس هو الشيء فى حال وقوعه .

(٢) استحالة ملاحظة الظواهر عنـد ما يكون النشاط العقلى شديداً ، كما فى حالة الشهوات والانفعالات العنيفة ، والمجهود الشديد ، والانتباه العظيم ، والتفكير العميق ، فإن مثل هذه الحالات تأخذ على الإنسان مشاعره ، وتستغرق كل نشاطه ، فلا يستطيع أن يوجه إليها أى ملاحظة .

(٣) ومن طبيعة الشعور[١] أن يترك حول بؤرته هامشا يكون أقل وضوحا من بؤرة الشعور ، وكثيراً ما تكون أطراف هذا الهامش بعيدة عن متناولنا .

مثال ذلك : المستمع إلى قطعة من الموسيقى يكون انتباهه مركزاً فى سماع هذه القطعة ، ولـكن أشياء أخرى كرؤية أثاث الغرفة الموجود حوله ، إلى غير ذلك ، تكون موجودة فى شـعوره ، ولـكن ليست بدرجة من الوضوح تسمح له أن يتبينها تماما ، ولو أنه يشعر بها .

(٤) يضاف إلى ذلك أن الإنسان خاضع لمعتقدات كثيرة يتعودها و يؤمن بها ، فيلاحظ الحالات النفسية خلال هذه المعتقدات ، بينما هذه الحالات تختلف عما يلاحظه .

هذه الاعتراضات نظرية أكثر منها عملية ، إن دلت على شيء فإنها تنبهنا إلى اتخاذ الحيطة والحذر ، ولـكنها لا تهدم التأمل الباطنى ؛ ذلك أن الحقيقة التى لا شك فيها هى أننا نلاحظ أنفسنا ، ولا نستطيع إلا أن نلاحظ أنفسنا .

---

(١) Conscience.

أما الاحتياطات التى يجب اتخاذها للوصول بالتأمل الباطنى إلى الدقة والوضوح فهى :

(١) يجب تدوين الظواهر التى نلاحظها بأسرع ما يمكن حتى لا يصيبها التغير ، كما أثبتت التجارب التى أجريت على التذكر والأحلام .

(٢) عند ما نحصل على ملاحظات غيرنا ، يجب أن نخضعها للطرق العملية فى البحث ، فنرى هل هى دقيقة صادقة ... أى نتبع طريقة النقد العلمى .

(٣) يحسن بالباحث فى علم النفس أن يلاحظ الظواهر ويجربها فى نفسه أولا ، ثم يسأل عن تجارب الغير .

(٤) يجب أن يتجنب الباحث الإيحاء الذاتى ، والإيحاء إلى الأشخاص الذين يلاحظهم . ولتجنب الإيحاء طرق عدة ليس هنا محل لذكرها .

(٥) يتبع العلماء طريقتين للحصول على ملاحظات الناس لأنفسهم ، هما طريقة السؤال وطريقة الاختبار الشخصى [١] . وطريقة الأسئلة هى توجيه سؤال أو عدة أسئلة مطبوعة ، تنشر فى مجلة ، أو تبعث عن طريق البريد ، فيجيب عنها عدد كبير من الناس ، وبذلك نحصل على عدد كبير من أجوبة مختلفة . أما الاختبار الشخصى فهو أن يحضر العالم الشخص ، ويسأله أسئلة خاصة محدودة يجيب عنها . والطريقة الثانية أفضل من الأولى .

طريقة الاتصال المباشر :

إن طريقة التأمل الباطنى ، تنصب على تقييد الظواهر كما هى ، ولكن « برجسون » انتقدها من ناحية الاتجاهات الذهنية المختبئة وراء الملاحظة النفسية

---

(١) الأسئلة .Le questionnaire
الاختبار الشخصى L'enquête Personnelle

المادية ، فأدخل تعديلا كبيرا على هذه الطريقة ؛ ذلك أننا نفكر خلال اللغة التي نتكلمها ، وهذه اللغة تصلح على الأخص للتعبير عن الروابط الاجتماعية ، ولنقل العواطف والسلوك فى الحياة العملية . وقد نتج عن ذلك أن اللغة تدور على الأغلب حول المعانى المادية ، أو إن شئت فقل المكانية . ومن الواضح لنا أن جميع المصطلحات التي تخص الحياة العقلية تدل فى بدايتها على مدلولات مادية ، مثال ذلك النفس أو الروح فإنها تدل على (نَفَس souffle) .

ولما كانت الحياة الروحية أو العقلية تحمل من العلاقات ما يختلف عن الحياة الحسية ، فإنه وجب أن نبذل جهداً كبيراً لنغير من العادات العقلية فى التفكير واللغة حتى نصل إلى فهم مظاهر الشعور على حقيقتها ، ذلك أن كل ما يخص الزمان ، يتغير تغييراً كبيراً حين يترجم فى لغة المكان . وإذا كان فى استطاعتنا أن نلغى الزمان إلى حد كبير فى دراسة الأمور الطبيعية ، فإننا نجد أن الزمان عامل يأتى فى المحل الأول فى دراسة الحياة الشخصية .

للوصول إذن إلى حسن الاتصال بمظاهر الشعور يجب أن تتبع هذه الطرق :

(١) تحصيل معلومات واسعة عما نريد أن نلاحظه ، فمثلا فيما يختص بالذاكرة يجب معرفة جميع الأبحاث الفسيولوجية التي أجريت حتى الآن بواسطة الأخصائيين فى هذا الأمر .

(٢) أن يتصل الشخص اتصالا مباشرا بالمظاهر دون أن يعمد إلى تحليلها عقلياً ، بل تكون الصلة بالظواهر أشبه شيء بالكاتب أو الفنان ، الذى يبصر أثره الفنى كلاً لايتجزأ

(٣) بعد ذلك نعمد إلى الطريقة العلمية المعروفة ، أى جمع هذه المشاهدات الشخصية وترتيبها و بيان المتشابه منها .

طريقة الملاحظة الظاهرة [1] :

إذا كان التأمل الباطنى والاتصال المباشر بالظواهر يؤديان بنا إلى معرفة الميدان الأول من ميادين علم النفس ، فإن هاتين الطريقتين لا تصلحان فى ارتياد الميدان الآخر ، وهو سلوك الناس وتصرفاتهم . ولا سبيل لنا حين نريد أن نسجل مسالك الناس إلا أن نتبع طريق الملاحظة الظاهرة كما نفعل فى العلوم الطبيعية ، فنسجل سلوك الناس فى المواقف المختلفة والمؤثرات التى تحدوهم إلى العمل ، دون النظر إلى داخل نفوسهم وما يجرى بباطنهم ، مثال ذلك : دخل شخص منزله فى الليل فإذا بلص يطلع عليه فى يده سكين حاد ، فاصفر وجه صاحبنا ، ونضح عرق بارد على وجهه ، وجمد فى مكانه ، واضطربت أنفاسه ، ولم يستطع أن يلفظ بشىء ، فنحن هنا نصف الموقف الخارجى ، الذى نراه . فمن ناحية نجد مؤثرا وهو هذا اللص ، ومن ناحية أخرى نجد تصرف هذا الشخص ومظهره الخارجى . ولم نعمد هنا إلى معرفة ما يجرى بداخل نفسه .

طرق المقارنة [2] :

١ — بحث الأمراض النفسية والتحليل النفسانى :

تخضع الأمراض النفسية وغيرها لقوانين طبيعية ، كما تخضع الأمور العادية تماماً ، وينشأ المرض عن مخالفة الحالة الاعتيادية بسبب اختلال المزاج بين بعض العناصر أو العمليات . وقد أدت دراسة الأمراض البشرية إلى تقدم العلوم الطبية ، لأن هذه الحالات الشاذة توضح لنا وتنير أمامنا سبيل الحياة

---

(١) Observation Extérieure.

(٢) Les méthodes Comparatives.

الاعتيادية . كذلك أدت دراسة الأمراض النفسية خدمات جليلة لعلم النفس ، إذ توصلنا من بحث هذه الأمراض إلى التمييز بين الشعور واللاشعور ، وإلى معرفة أشياء كثيرة تختص بالإرادة والذاكرة واللغة وغيرها .

وقد كان العلماء منذ بضعة عشر عاماً ، يلجأون إلى استعمال طريقة التنويم المغناطيسى ، والإيحاء ، حتى يدلى الأشخاص المنومون أو الموحى إليهم بما يجرى فى نفوسهم من ظواهر . وقد عدل العلماء الآن عن هاتين الطريقتين تماماً ، لأنهما يؤديان بالشخص الواقع تحت مثل هذا التأثير ، إلى الإفضاء بالحالات النفسية التى تعتريه وهو فى هذا الوضع ، ولكنه لايخرج لنا ما يجرى فى نفسه من المظاهر العادية .

أما التحليل النفسانى وهو المشهور باسم منظمه العالم « فرويد » فخلاصته أن أشخاصاً تصدمهم انفعالات لايقوون على احتمالها ، أو يريدون رغبات لايستطيعون تنفيذها ، فتتراجع هذه الانفعالات أو الرغبات وتعيش مكبوتة فى اللاشعور ، هذه العقد النفسية الخفية تحاول الظهور فتخرج فى صور رمزية فى الأحلام والحركات العصبية ، والأقوال غير المقصودة ، إلى غير ذلك .

وطريقة التحليل النفسانى هى ما يأتى :

(١) توجيه الأسئلة إلى المرضى .

(٢) تحليل رغبات وحركات وإشارات المرضى خصوصاً غير المقصودة .

(٣) تحليل الأحلام التى تدل على رغبات مكبوتة تظهر فى صور رمزية عن طريق اللاشعور .

٢ — الطريقة التطورية والاجتماعية :

نستطيع أن نقول إن نظرية التطور أصبحت تقوم على أساس من الصحة بعد أن نادى بها « دارون » وأتباعه . ذلك أن الكائنات الحية يتصل بعضها

ببعض فى سلم التطور ، وقد طبق العلماء هذه النظرية على الحياة العقلية ، وزعيم هؤلاء العلماء هو « سبنسر » ؛ والغرض من هذه الطريقة هو تفسير العمليات العقلية فى تطورها بدل أن نكتفى فقط بوصفها كما نفعل الآن . فعلينا إذن أن نبحث نفسية الإنسان الأول ونفسية الجماعات البدائية ، لنقارنها بعقلية الإنسان فى الوقت الحاضر .

كذلك تدرس نفسية الأطفال فى تطورها من عهد الطفولة الأولى إلى مرحلة الشباب .

ولكن هناك اعتراضات كثيرة تقوم فى وجه ما ذكر من جهة تفسير القوانين العقلية ، ذلك أن القول بحياة أولية وحشية لا يعدو مجرد الافتراض الذى يفتقر إلى الدليل العلمى ، إذ ليس من الضرورى أن القبائل المتوحشة الموجودة الآن تماثل حالة الشعوب المتوحشة التى تطورت إلى الجماعات المتحضرة الموجودة الآن . كالشيخ المسن الذى يكون فى عقلية الأطفال ، فإنه لايعود طفلا من جميع الوجوه ، بل هذا مجرد تشبيه ، فكذلك القبائل المتوحشة إن هى إلا شعوب هرمة فى عقلية الطفولة ، ولكنها ليست فى مرحلة الطفولة .

كذلك للأطفال حياة عقلية مستقلة تمام الاستقلال عن حياتنا العقلية . وقد كان الخطأ السائد عند العلماء هو أن الطفل رجل صغير ، حتى جاء « روسو » وغيّر هذه العقيدة ، مبينا أن نفسية الطفل تختلف فى نوعها عن نفسية الرجل . وقد أصبح لدراسة المجتمع أثر كبير فى بيان كثير من أبواب علم النفس ؛ فهناك ظواهر نفسية اجتماعية تسود جميع أفراد المجتمع كالغريزة ، أو تخص شعبا من الشعوب كالعادات والتقاليد والمعتقدات واللغة . وإذا نظرنا إلى أغلب الظواهر النفسية نجد أنها تخضع للغة إلى حد كبير ، واللغة مع كونها طريقا للتفاهم بين

الأفراد ، فهى خاضعة لضرورات اجتماعية تكسبها الصبغة التى تكون موجودة عليها .

٣ — نفسية الحيوان :

لقد فطن العلماء من قديم الزمان إلى أن الإنسان يشبه سائر الحيوان فى كثير من الأمور ، حتى لقد عرّفوا الإنسان بأنه « حيوان ناطق » ، والموازنة بين نفسية الإنسان والحيوان تفيدنا إلى حد كبير ، وهناك طرق كثيرة يتبعها العلماء فى هذه الدراسة نجملها فيما يأتى :

(١) الملاحظة الظاهرة ، أى ملاحظة سلوك الحيوان فى الظروف المختلفة ، كما فعل الأستاذ « فابر Fabre » فى كتابه « الغريزة عند الحشرات » وهذه الطريقة تحتاج إلى كثير من الصبر والجهد والدقة .

(٢) إجراء التجارب ، أى إخضاع الحيوان لمؤثر صناعى حتى نرى ما يحدث له ، مثال ذلك : أنهم جاءوا بقطة فى أحد معامل علم النفس ، ثم أدخلوا عليها فجأة كلباً كبيراً ، فذعرت القطة ، وهنا شاهدوا بواسطة أشعة « أ كس » أن معدتها شلت عن العمل مقدار عشرين دقيقة ، وهذا بطبيعة الحال أثر من آثار الخوف .

(٣) تدريب الحيوان ، وقد أجريت كثير من التجارب على القردة والفيران لمعرفة مقدار ذكائها ، وطريقة ذلك أن يوضع الحيوان فى مأزق يحاول الخروج منه ، ثم نشاهد نتيجة هذه المحاولات .

المقاييس فى علم النفس :

يقوم تقدم العلوم على التعبير عن الظواهر الطبيعية بكميات رياضية ومعادلات

جبرية ، وقد شغلت هذه الفكرة العلماء المتصلين بعلم النفس ، فحاولوا ردّ الكيفيات النفسية إلى كميات رياضية ؛ والغرض من ذلك قياس هذه الصفات بصورة دقيقة ، لأن الصفات لايمكن قياسها القياس الرياضى .

ومن أقدم العلماء الذين قاموا بمثل هـذه المحاولات عالمان ، لايزال لبعض آرائهما قيمة حتى الآن ، هما « فيبر » و « فشنر »

وخلاصة ما وصـلا إليه هو أن الإحساسات المختلفة يمكن قياسها ، وذلك بواسطة البدء من مؤثر الإحساس ، ثم التدرج فى زيادة هذا المؤثر . كذلك يمكن قياس الزمن الذى تستغرقه بعض الحالات النفسية ، وذلك باستعمال أجهزة دقيقة مختلفة مثل « مسجل الزمن[١] » الذى يقيس مدة رد الفعل[٢] وقد اتبع العلماء كثيرا من الطرق لقياس التعب والانتباه ... الخ .

وقد انتشرت فكرة الاختبارات فى علم النفس مثل اختبار الذكاء ، وبعد الحصول على نتيجة هذه الاختبارات[٣] يجرى الباحثون عليها كثيرا من العمليات الرياضية ، كاستخراج المتوسطات ، وتقدير الأخطاء المحتملة ... الخ مما يحتاج إلى كثير من الرياضيات العالية .

ولا تزال هذه الطرق فى مبدئها ، وتُوجه إليها كثير من الاعتراضات ، ويُشك كثيرا فى النتائج التى نحصل عليها بوساطتها ؛ ويرجع ذلك فى الواقع إلى صعوبة تطبيق الرياضة على العمليات العقلية ، التى تتشعب مؤثراتها وتكثر توجيهاتها .

---

(١) Chronographe.

(٢) Temps de reaction.

(٣) Test.

الفصل الثانى

الشـــعور

إن الحالات النفسية التى تجرى فى أنفسنا نشعر بوجودها ، وهـذه الحالات لا مكان لها ، وهى موجودة فى الشعور . ولبيان فكرة الشعور يكفى أن تنظر إلى شخص نائم ، فهو فى هذه الحالة لا يشعر بشىء ، حتى إذا ما أخذ يصحو ، ابتدأ عنده الشعور بالأشياء المحيطة به ، وبالرغبات التى يطلبها ، فهو يرى النور والحائط والنافذة والمنضدة والكرسى ، وينظر إلى الساعة ويدرك مقدارها ، ويسمع الأصوات التى تصدر من الشارع ، ويحس بدفء الفراش ، وبرودة الهواء ، ويشعر بالحاجة إلى النهوض ، ليرتب نفسه قبل الذهاب إلى عمله فى الساعة الثامنة ، ثم ينظر إلى الساعة فيخشى التأخر عن ميعـاد العمل ، ويسرع فى ارتداء ملابسه ، ويخرج من منزله مسرعا .

هـذه الحالات المختلفة التى يحتويهـا الشعور تسمى « الظواهر النفسية » وليست الظواهر النفسية بدرجة واحدة من الشعور ، فهناك ظواهر يشعر الإنسان بها شـعوراً تاما واضحا ، وأخرى تكون أقل وضوحا من الأولى . فإذا ذهبت لتتناول كتابا من فوق المنضدة ، فإن رؤية الكتاب وتمييز اسمه ومكانه بالنسبة إلى المنضدة ، يكون كل ذلك جليا فى الشعور ، ولـكنك فى نفس الوقت الذى ترى فيه الـكتاب ، يقع بصرك على أشياء أخرى كثيرة تحيط به ، وترى يدك وهى ممدودة لأخذه ، ويصل إلى سمعك أصوات مختلفة ، هذه الظواهر كلها موجودة

فى ذهنك ولـكنها غامضة ، ليست فى درجة الوضوح التى شعرت بهـا حين تناولت الـكتاب . فهى موجودة فيما نسميه « هامش الشعور [١] » ، فالشعور يأتى فى الدرجة الأولى ، ويتلوه هامش الشعور . وليس هناك فاصل دقيق وحاجز كبير يقف بين الشعور وهامشه ، بل هذه الطبقات المختلفة من الشعور ، تتراوح من الوضوح إلى الغموض ، فى اتصال مستمر ، مَثلها مَثل الشمس عند المغيب ، لاينقطع نورها عن الأرض فجأة ثم يحل الظلام ، بل يطغى الليل على النهار بالتدريج

والظاهرة النفسية ، التى هى لحظة من حياة الشعور ، تختلف عن الظواهر الطبيعية من ثلاث نواح :

(١) إن الظاهرة الطبيعية مثل غليان الماء ، وتمدد الحديد بواسطة الحرارة هى حقائق موضوعية ، بمعنى أن الإنسان ، يراها من الخارج ، ويستطيع جميع الناس أن يروها بنفس الحالة ؛ أما الظاهرة النفسية فلا يدركها إلا صاحبها ، لأنه هو الذى يشعر بها ، وأكبر دليل على هـذا الأعمى الذى يولد كذلك فإنه لايصل مطلقاً إلى تمييز الألوان . ومن أعجب مالوحظ فى هذا الصدد أن سـيدة أمريكية تدعى « لورابردجمان » ولدت صماء بكماء ، سـنة ١٨٢٩ ، ثم فقدت بصرها وهى صـغيرة ، وأخذ العلماء يعلمونها عن طريق اللمس ، قالت : فى أحد الأيام : « إنى أود لو أن لى عينين ورديتين وشعراً أزرق » [٢] ويقول الصبى الأعمى لأمه :

يا أم ما شكل السماء   وما الضياء وما القمر .

(٢) لاتجرى الظواهر النفسـية فى المكان ، فهى كالفرح والألم لا موضع

Subconscience. (١)

Manuel de Philosophie. Cuvillier. page 31. (٢)

لها . وإذا كنا نضطر إلى استعمال ألفاظ تدل على المكان كأن نقول إن الفرح موجود فى النفس ، فلفظة « فى » التى تدل على المكان ، إن هى إلا ضرورة لغوية .

(٣) كذلك لايمكن قياس الظواهر النفسية على نهج الظواهر الطبيعية . وقد رأينا أن محاولات العالمين (فيبر) و (فشنر) فشلت فى قياس الإحساس وهو أبسط الظواهر النفسية وأقربها إلى الظواهر الطبيعية .

مجرى الشعور :

إن المظاهر النفسية تجرى فى الشعور دون انقطاع وتتغير تغيراً مستمراً وتتصل بصاحبها الذى يشعر بها . ونستطيع أن نشبه الظواهر النفسية التى تجرى فى الشعور بماء النهر الذى يتدفق فى مجراه ، ولا تنقطع حياة الشعور إلا فى حالات النوم أو الإغماء أو التخدير ، أما فى حالة الصحو فإن الظواهر لا تنفك عن الوجود فى الذهن . وإذا شئنا أن نتناول ظاهرة واحدة لنحللها ، ونضعها تحت منظار عقولنا لندرسها ، فإنه يجب علينا أن نقتطعها اقتطاعاً من الحياة النفسية ، وأن نفصلها على حدة من مجرى الشعور لتتبين لنا فى جلاء ووضوح ، ولكن الحقيقة أن الظواهر يتصل بعضها ببعض دون انقطاع .

فالظاهرة النفسية هى لحظة من حياة الشعور ، نركز فيها انتباهنا ، ونفصلها عن مجرى الشعور لأنها تهمنا أهمية خاصة .

تحليل الظواهر النفسية :

إذا أردنا أن ندرس ظاهرة نفسية ، مثل تحية صديق ، يجب أن نلقى فى بالنا أن هذه الظاهرة لم تحدث بمفردها ، بل فى نفس اللحظة التى سلمت فيها على صديقك قد رأيت أشياء أخرى عدة مثل العربات التى تجرى فى الشارع ،

والأشخاص الذين يمرون بجانبك ، ووصل إلى ذهنك أصوات أخرى مختلفة كأبواق السيارات ، وضجيج المارّة ، وأشياء أخرى كثيرة كلها حصلت فى نفس اللحظة . فأنت إذ تدرس هذه الظاهرة وهى تحية صديقك فإنك قد انتزعتها من بين ما سبقها وما تلاها وما حدث معها لتسهيل البحث . فإذا اقتطعنا ظاهرة من هذه الظواهر على حدة لدراستها مثل ما يأتى :

قطفت وردة ، طلبت كتاباً من صديقك ، خرجت من منزلك ، تناولت الطعام ، ذهبت إلى دار الخيالة ، فإننا نجد عند البحث أن كل ظاهرة نفسية لها ثلاثة وجوه ، إدراك ، ووجدان ، ونزوع .

يمر الإنسان بشحاذ مسكين فيعطيه قرشاً . فأول شىء حدث هو إدراك أن الشخص الموجود مسكين يستحق المعونة ، و يصل إلينا هذا الإدراك أو هذه المعرفة عن طريق البصر ، فنعرفه بشكله ولونه وملابسه ومميزاته . يعقب ذلك أن يشعر الإنسان بألم من هذا المنظر ، وهذا يسمى الوجدان ، فيؤدى كل ذلك أخيراً إلى أن ينزع الإنسان إلى أن يضع يده فى جيبه ليعطى الشحاذ قرشاً ، وهذا ما يسمى بالنزوع .

فكل ظاهرة نفسية يحصل فيها هذه المظاهر الثلاثة ، ومن الخطأ القول أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، لأن الحدث واحد وأجزاؤه متصلة لا انقسام فيها ، وكل ما فى الأمر أننا ننظر إليه من ثلاثة أوجه .

الإدراك : إننا حين نتكلم عن الإدراك فيما يختص بالتقسيم الثلاثى السابق نعنى بذلك أى نوع من المعرفة ، فهناك معرفة كلما كان هناك إدراك لأى شىء من الأشياء الخارجية ، مادية حسية كانت أم معنوية مجردة ، كالصديق أو الشجرة أو العربة أو الكرسى ، أو إدراك الجمال فى صورة ، والنكتة فى حديث وأشباه هذه

الأشياء المعنوية . وهناك معرفة إذا كان هناك « تذكر » لأى حادثة مرت عليك فى الماضى ، مثل ذكرك لاسم صديق لك . وهناك معرفة إذا تصورت « صورة » أو « خيالا » ، سواء أمرّت عليك صورة الشيء الذى تتصوره ، مثل صورة المدرسة التى كنت فيها ، أم ابتدعت هذا الخيال ، مثل تخيلك القصر الذى تحلم أن تبنيه لنفسك فى المستقبل . فى جميع هذه الحالات كل ما ندركه — سواء أكان شيئاً خارجياً مادياً أو معنوياً ، أم كان شيئاً باطنياً — كل هذا هو موضوع الإدراك . بينما الشخص الذى وقعت له هذه الأشياء هو الذى يدرك هذا الموضوع .

الوجدان : الواقع أن تعريف الوجدان وشرح ماهيته أمر عسير ، فإذا ذهبت إلى حديقة منسقة ، وأحسست لمنظرها السرور ، هل تستطيع أن تقول ما هو « السرور » ؟ هو حال نفسية نعرفها لأننا جربناها ليس إلا . ثم إنه من ناحية أخرى ، تعترضنا صعوبة أخرى عند الكلام على الوجدان ، وهى الفقر فى المصطلحات من هذه الناحية ، سواء أكان ذلك فى اللغة العربية أو الأجنبية ؛ فنحن نقول « أحسست بفرح » وهذا يدخل فى روعنا معنى الإحساس ، وهو شيء آخر غير الوجدان ، أو نقول « شعرت بغضب » وكلمة الشعور أطلقناها على شيء آخر فى علم النفس ، وهو كل ما يمر بنا من الحالات النفسية ونشعر بها ، ونحن نذكر هذه الفوارق لننتبه إليها فيما بعد .

ويطلق الوجدان إما على تأثر الإنسان بارتياح أو عدم ارتياح ، أو ما يسمونه تجاوزا لذّة وألما ، وإما على انفعال الشخص بانفعال خاص ، كالغضب أو الخوف أو الدهشة أو القلق .

فاللذة والألم ، حالتان نفسيتان عامتان ، أما الانفعال فخاص .

فإذا شربت فى الصيف كوباً من الماء المثلوج شعرت بعده بلذة أو ارتياح ، وتختلف اللذة والألم من حيث الحدة والفتور ، وعلى العموم فإنها حالات عامة غير محدودة .

و إذا قابلت عرضاً صديقاً تود مقابلته ، فوجدانك نحوه هو انفعال الدهش ، وهو انفعال محدود تستطيع وصفه ، وهذا بجانب شعورك بالارتياح من هذه المقابلة .

وسيأتى تفصيل الفرق بين أنواع الحالات الوجدانية فى فصل خاص .

النزوع : هو الدافع النفسانى الذى يدفعك إلى القيام بعمل من الأعمال ، فإذا رأيت وردة جميلة فى حديقة فإنه يحصل عندك إدراك أن هذه وردة ، ثم تشعر بوجدان خاص هو الارتياح والسرور أو اللذة لرؤيتها ، فتنزع ، أى يحصل عندك دافع لقطفها ، فتقطفها .

وليس من الضرورى أن يكون الدافع النزوعى متحققا فى النهاية فى صورة عمل إيجابى كرؤيتك الوردة وقطفها ، أو رؤيتك قميصا جميلا عند بائع القمصان وشرائه ، ولكن قد يكون الدافع متحققا فى صورة سلبية ، مثال ذلك : إذا رأيت قطعة طباشير ، ووجدت أن يدك ستتسخ منها ، فلا تحاول الإمساك بها ، أو إذا كنت فى الطريق ورأيت ناحية من الشارع مبللة قذرة ، فتتجنبها ولا تقدم على المشى فيها ، فالنزوع قد يكون لتحقيق عمل والقيام به ، أو الصدوف عنه .

ثم إنه ليس من الضرورى أن يتحقق النزوع فى صورة عمل أو حركة ، ولكننا — كما قلنا — نقصد بالنزوع الدافع النفسانى الذى يدفعك إلى عمل من الأعمال ، ولا يهمنا إذا كان هذا العمل يتم فى صورة حركة أم لا .

فمثلا إذا وقفت خارج سور حديقة ، ورأيت خلاله وردة ، فحصل عندك إدراك ، ثم وجدان ، فلا شك أنك تنزع لقطفها أو الاستيلاء عليها ، ولكن

السور الحديدى يمنعك من ذلك ، أو أن الرغبة غير شديدة ، ولـكن هذا لايدل على عدم وجود النزوع فى مثل هـذه الظاهرة . كذلك الراقد فى سريره تعبا ، يريد القيام ويهم به ، ولـكنه لتعبه وتثاقله لا ينفذ ذلك ، فهذا لايدل على أنه خالٍ من النزوع ، بل هو عنده دافع إلى القيام ، ثم لو قام بالفعل لعددنا هـذا بالفعل منه حركة ، ولكنه لم يقم ، إذن لم تتم الحركة . والواقع أن الحركة إذا كانت لم تتم ماديا فى الخارج فهى قد تمت فى ثنايا النفس ، وهذا ما يهمنا بحثه .

والخلاصة مما تقـدم ، هو أن كل ظاهرة نفسية نحللها إلى ثلاثة أقسام : إدراك أو معرفة ، ثم وجدان ، ثم نزوع ؛ ويجب أن تعلم أن هذا التقسيم المذكور هو تقسيم صناعى ، فليس هناك إدراك ووجدان ونزوع مفصلة ، ولـكن كل ذلك يحصل فى لحظة واحدة ، يختلط فيها الكل ، وينساب الإدراك والوجدان والنزوع بعضها فى بعض ؛ فنحن ننظر إلى الظاهرة النفسية الواحدة من هذه الوجوه الثلاثة التى ذكرناها ، لفائدة البحث ، ولتسهيل درس الحياة النفسية .

الفصل الثالث

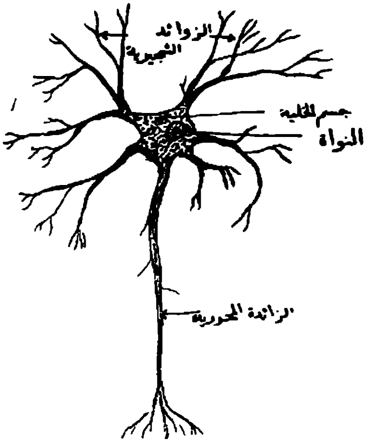
الجهاز العصبي(١)

إن حياة الحيوان فى أشكالها المختلفة ، تقوم على أسلوب يستطيع به الكائن أن يلائم بين نفسه والبيئة ، وأن يحتفظ بكيانه ، وأن يرتقى سلم التطور إن استطاع إلى ذلك سبيلا . فإذا نظرنا إلى أحط الكائنات الحية ، مثل الحيوان ذى الخلية الواحدة ، فإننا نجد أن حياته تقوم على تفاعل كيمائى . فإذا ارتقينا إلى حيوان أكثر تعقدا فى تركيبه ، فإننا نجد بداية الجهاز العصبى ، وهو عبارة عن بعض ألياف عصبية ، تصل بين أعضاء الحس الضئيلة الموجودة عند ذلك الحيوان ، وبين بعض الألياف العضلية . فإذا تأثر عضو الحس بأى منبه خارجى ، يتكون تيار عصبى ، ينتقل إلى الأنسجة العضلية التى تنقبض متأثرة بهذا المنبه . هذه العملية توضح لنا الفعل المنعكس البسيط ، الذى هو أساس عمل الجهاز العصبى .

الخلية العصبية :

يتكون الجهاز العصبى من وحدات خلوية ، كل منها تمثل من الناحية التشريحية والفسيولوجية خلية عصبية . وتتكون الخلية العصبية من ثلاثة أجزاء : جسم الخلية أولا ، وزوائد شجيرية كثيرة قصيرة متفرعة ثانيا ، ثم زائدة طويلة تسمى بالزائدة المحورية . هذه الخلايا العصبية لا يتصل بعضها ببعض ، وإنما تتداخل فروع الزائدة المحورية من خلية ، مع الزوائد الشجيرية القصيرة من خلية

(١) Le système Nerveux.



(شكل ١) الخلية العصبية



(شكل ٢) الوصلة

أخرى ، فيتكون عندئذ مكان لعبور التيار العصبي . وتسمى مواضع الاتصال هذه بالوصلة[١] ، (انظر شكل ٢) .

هذا الانفصال بين الخلايا العصبية ، له أهمية كبيرة فى علم وظائف الأعضاء والأمراض العصبية . وطريق العبور بين الخلايا العصبية ، يكون دائما بواسطة انتقال التيار العصبي ، من الزائدة المحورية فى إحدى الخلايا ، متجها فى الزوائد الشجيرية الموجودة فى الخلية التى تليها . ويتجه التيار من الزوائد المحورية إلى الشجيرية ، ولا يكون العكس أبداً .

ثم إن انتقالات التيارات العصبية عابرة هذه الوصل ، يقلل من مقاومة هذه الوصل للتيارات المماثلة ، وعلى ذلك يسهل تكوين العادة . كذلك تؤثر المخدرات والتعب أو المجهود فى مقاومة هذه الوصل ، ويبدو لنا أن الشعور بالحالات النفسية يقوم على وظيفتها الأساسية ، أى نقل التيارات العصبية ، ويعلل بعض العلماء انعدام الشعور فى أثناء النوم بتباعد الخلايا العصبية ، وانقطاع التيار العصبي .

وظيفة الخلية العصبية :

هناك رأى يقول بأن جسم الخلية هو مبعث النشاط ، وذلك نتيجة تغيير كيمائى يحدث فيها .

وهناك رأى آخر أكثر دقة من الأول ، وأقرب إلى الصواب ، يقول بأن الخلية العصبية تنقل الطاقة ، وتزيدها قوة كلما مر بها تيار عصبي . ونستطيع أن نشبه الخلايا العصبية بالبطاريات فى دائرة كهربائية ، فكما أن البطاريات يقل

---

(١) Synapse.

جهدها ، كذلك يحدث فى الخلايا العصبية ؛ و بينما لا تتأثر الأسلاك الكهربائية ، كذلك فإن الألياف العصبية قلما يتناولها التعب .

وتتوقف حياة الزوائد المحورية على جسم الخلية ، فإذا تأثرت هذه اضمحلت الزوائد .

وهناك نوع من التخصص فى وظيفة الخلايا العصبية من حيث نقل التيارات العصبية ، فبعضها حساسة[1] ، و بعضها متحركة[2] . فالحساسة تستقبل المؤثر من أعضاء الحس الخاصة بالحواس المختلفة كالسمع والبصر والشم والذوق واللمس ... الخ ، وتنقلها إلى المراكز العصبية المختلفة ، التى ترسل تيارات عصبية فى أعصاب الحركة إلى العضلات أو الأعضاء أو الغدد ، كذلك تصل الرسالات العصبية إلى المراكز العصبية من جميع أنحاء الجسم .

هذه التيارات العصبية هى التى تنقل إلينا المعرفة بالعالم الخارجى عن طريق الحواس المختلفة ، كذلك المعرفة بأوضاع الجسم وصحته وأحواله .

الجهاز العصبي :

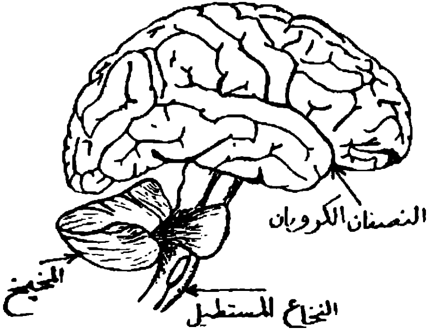
يتكون الجهاز العصبى من قسمين :

(١) **الجهاز السمبثاوى** : وأعصاب هذا الجهاز منتشرة فى جميع أنحاء الجسم ، وتتصل الأجهزة المختلفة منه كالقلب والمعدة والرئتين والغدد المختلفة ، وتكوّن هذه الأعصاب شبكة كبيرة تصل إلى جميع أنحاء الجسم . ويقع الجزء الأكبر من هذا الجهاز فى حبلين طويلين من الأعصاب على جانبى العمود الفقرى ، وله

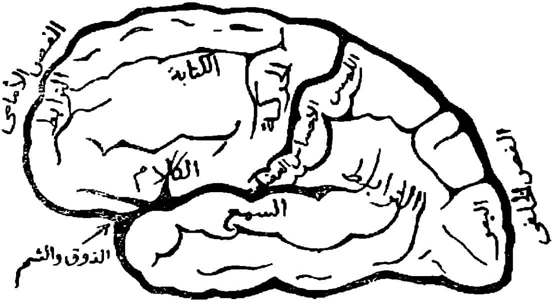
---

(١) Sensoriel.

(٢) Motrice.



(شكل ٣) المخ وأجزاؤه



(شكل ٤) مراكز الحياة العقلية

أثر كبير فى جميع الغدد ، وفى الانفعالات المختلفة عنـد الإنسان . هذا الجهاز هو الذى يتحكم فى أجزاء الجسم التى ليس للارادة سلطان عليها .

(٢) **الجهاز العصبي** : وهو يشـتمل على المخ والمخيخ والنخاع المستطيل والحبل الشوكى . وتخرج منهـا أعصاب تتفرع فى العضلات الإرادية ، وسطح الجلد ، وأعضاء الحس كالعين والأذن والأنف واللسان ؛ ومن مجموع هـذه الأعصاب يتكون الجهاز العصبى الطرفى .

ويتركب المخ من النصفين الـكرويين ، النصف الأيمن والنصف الأيسر وسطحهما العلوى كثير التجاعيد والثنايا التى تعرف بالتلافيف ، وهناك نظرية تقول بأن ذكاء الإنسان يقدر بكثرة التلافيف ؛ والنصفان الـكرويان هما مركز الإحساس والتفكير والتذكر ومصدر الحركات الإرادية .

ويقع المخيخ خلف المخ وهو جزء صـغير الحجم ، وفائدته تنظيم الحركات العضلية وربطها وحفظ توازن الجسم ؛ والمخيخ هو المنظم للحركات الإرادية ، لأنه هو الذى يوجد الارتباط بين أعضاء الحركة .

الأفعال المنعكسة[١] :

الفعل المنعكس هو رد آلى غير إرادى نتيجة تأثر أعصاب الحس .

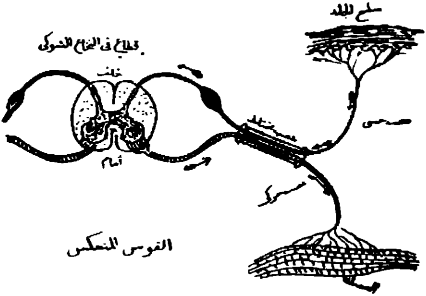
ويتكون الفعل المنعكس فى أبسط صُوَره من أن خلية عصبية تتأثر بواسطة منبه ، فتعكس الخليةُ التيار العصبى ، الذى يؤدى إلى الحركة ، وتسـمى هذه العملية بالقوس المنعكس[٢] (انظر شكل ٥) .

وليس الأمر بهذه البساطة فى الأفعال المنعكسة عند الإنسان التى هى أكثر

---

(١) Réflexes.

(٢) Arc réflexe.



(شكل ٥) الفعل المنعكس

تعقداً ، فهى تأثر أعصاب الحس بواسطة منبـه خارجى ، فينتقل هذا التيار عابراً الوصل حتى يصل إلى الحبل الشوكى ، وهناك يصدر تيار عصبى يسرى فى أعصاب الحركة حتى يرد على المؤثر . مثال ذلك إذا وضع شخص رجلا فوق أخرى ، ثم ضربته أسـفل الركبة فى موضع مخصوص ضربة خفيفة ، فإن رجله تتحرك إلى أعلى دون إرادة ، وهذه التجربة هى التى يجريها الأطباء للاستيثاق من سلامة الأعصاب أو النخاع الشوكى عند الشخص .

ولا دخل للارادة فى بعث هذه الأفعال المنعكسة ، فهى حركات غير إرادية . وقد أثبتت التجارب التى أجريت على الحيوانات التى انتزع مخها — والمخ هو مركز الإرادة كما ذكرنا — أنها تتحرك إذا تأثرت بمنبه خارجى .

وتوجد عند الإنسان طائفة كبيرة من الأفعـال المنعكسة ، مثل إفراز كثير من الغدد ، كإفراز اللعاب عندما يشم الإنسان رائحة الطعام ، وإفراز العصارة المعدية عند دخول الطعام إلى المعدة ، والعطس ، والسـعال ، وتقلص الجفن إذا وقع على العين جسم غريب كالغبار مثلا ... الخ .

وليست جميع الأفعال المنعكسة لا شعورية ، مثـل إفراز العصارة المعدية ، بل منها ما يصحبه الشعور مثل ضيق حدقة العين إذا وقع عليهـا ضوء شديد . ولـكن الشعور بالمؤثر أو الحركة ليس له على المؤثر أى تأثير .

وإذا كان المؤثر ضعيفاً اقتصرت الحركة على الجزء الذى يقع عليه المؤثر . أما إذا كان شـديداً فإن الحركة تتعدى هذا الجزء إلى الأجزاء المجاورة ، وقد تصل إلى حد أن تعم الجسم كله .

الفعل المنعكس الشرطى[١] :

أجرى أحد العلماء الروس ويسمى « بافلوف[٢] » تجارب على الحيوانات . إذا تناول كلب قطعة من اللحم ، فإنه يفرز اللعاب ، وهذا الإفراز هو فعل منعكس عادى ؛ فإذا فرضنا أننا فى نفس الوقت الذى نقدم فيه قطعة اللحم ، ندق ناقوساً معيناً ، ونظل نردد هـذه التجربة عدة أيام متواليات ، فإنه يأتى وقت يكفى أن ندق الناقوس فقط ، فيفرز الكلب اللعاب عند سماعه هذا الصوت ، دون وجود اللحم .

هذا ما يسمى بالفعل المنعكس المتعلق بشرط . وخلاصته أننا نربط المؤثر الأصلى بمؤثر صناعى ، فيحل المؤثر الصناعى محل المؤثر الأصلى .

وأهمية هذه الحقيقة ترجع إلى توضيح كيفية صدور الأعمال المعقدة ، ذلك أن « مصاحبات » المؤثرات أخذت تحتل مكان المؤثرات نفسها ، فلعبت دوراً مهما فى الحياة العقلية ، واستطعنا بذلك أن نفسر كثيراً من العمليات الإرادية والعادات والميول المكتسبة .

---

(١) Réflexe Conditionné.

(٢) Pavlov.

الفصل الرابع

السلوك الفطرى والمكتسب

الإنسان كائن متحرك ، مضطر إلى سلوك طرق كثيرة تحت تأثير الظروف المختلفة المحيطة به ، وقد اتضح لنا عند الكلام على الفعل المنعكس ، كيف يسلك الإنسان حين يرد على المؤثرات التى يصادفها . فإذا وخزت شخصاً بدبوس وخزاً خفيفاً فى يده على غرة ، فإن يده تتراجع ، هذا النوع من السلوك يخلو من إرادة الشخص ، وقد يخلو من الشعور ، ونستطيع أن نقول : إن هذه الحركة هى حركة فسيولوجية بحتة .

ولكن هناك طوائف أخرى من السلوك ، تصدر عن العقل ، وعن الشعور بدرجاته المختلفة . هذا السلوك الصادر عن العقل ، المصحوب بأى نوع من أنواع الشعور ، هو الذى تهمنا دراسته فى علم النفس .

ولما كان لابد لكل حركة من دافع ، فلابد من وجود دوافع تبعث الإنسان إلى السلوك أيضاً ، هذه الدوافع نسميها الميول[1] .

وقد حاول العلماء من قديم الزمان أن يصنفوا هذه الميول ، وجميع هذه التصانيف التى اقترحها الفلاسفة ترجع فى النهاية إلى نوعين :

(١) تصنيف الميول حسب موضوعها أو ما تتعلق به ، مثال ذلك تقسيم « أفلاطون » للميول إلى ثلاثة أنواع : ميل إلى الاستمتاع ، وميل إلى السيطرة والقوة ، وميل إلى العلم .

---

(١) Tendances.

(٢) تصنيف الميول حسب طبيعتها ، وقد قسم « أرسطو » الميول تبعاً لذلك إلى نوعين : فطرية ومكتسبة .

ويخيل إلينا أن تصنيف أرسطو أدنى إلى الصواب ، وهذا هو الرأى الذى أخذ به علماء النفس فى الوقت الحاضر ، وهو السبيل الذى سنسلكه فى هذا الكتاب .

يخرج الطفل الصغير إلى العالم وعنده استعداد للرضاعة ، وميل إليها ، فهو يمص ثدى أمه بالفطرة ، هذا الميل عند الطفل لا شك أنه فطرى ؛ ويميل كثير من الناس إلى التدخين ، وهذا الميل هو ما نسميه بالعادة ، ولا شك أن عادة التدخين مكتسبة ؛ فميل الطفل إلى الرضاعة يتحقق فى صورة من السلوك لا يتعلمها الإنسان ، بينما ميل الشخص إلى التدخين يتكون من حركات وأعمال كثيرة يكتسبها الشخص .

يولد الطفل ساذجا ، إلا من دوافع تبعثه إلى الحركة ، وتؤدى إلى الاحتفاظ بكيانه . هذه الدوافع الأولى ، التى تجهز الطفل بالمؤونة التى يستعين بها على السفر فى رحلة الحياة ، هى دوافع فطرية .

والإنسان فى ذلك كالحيوان ، لأنه لايعدو أن يكون نوعاً من جنس الحيوان ولكنه نوع راقٍ منه . فإذا نظرنا إلى ضروب الحيوان المختلفة ، نجد أن طائفة كبيرة من أعمالها وسلوكها فى الحياة تجرى بالفطرة ، وإليك مثلاً يقع تحت أبصارنا كل يوم ، ويوضح بجلاء ماتذهب إليه ، فالقط الصغير الذى تربيه فى المنزل بعيداً عن أمه ، وحيداً عن أقرانه ، لايلبث أن يرى فأراً حتى ينقض عليه فهذا السلوك الذى يسلكه القط سلوك فطرى ، لأنه لم يكتسبه ، ولم يتعلمه عن طريق القدوة أو التدريب . كذلك الطيور التى تهاجر فى فصل من فصول السنة ، لاتتعلم هذه الهجرة ، ولكنها تميل إليها بالفطرة .

هناك ميول كثيرة ، هى التى توجه كل شخص إلى الجهة التى يسلكها فى حياته ، فهذا « روسو » مثلا تعلم حرفة النقش ، وكان يزاول نقش الحيطان ، ولكنه زهد ذلك واتجه إلى دراسة الفلسفة والأدب ، رغماً عن أنه لم يكن تلميذاً وهو صغير . فكل شخص عنده ميل خاص نحو شيء من الأشياء كالموسيقى أو الأدب ، أو العلوم الرياضية ، أو الأعمال اليدوية ، بحيث يكون سلوك الإنسان قائما على أساس هذا الميل الفطرى .

فإذا كان أساس السلوك عند الإنسان فطريا ، فإن صور السلوك التى يتبعها بعد ذلك ، يكتسب أغلبها بالتعود .

وهنا نسأل أنفسنا ، كيف تصل إلينا هذه الميول الفطرية ؟

لا شك أن الاستعدادات الفطرية لا تهبط إلينا دون سبب ، ولكنها تصل إلينا عن طريق الوراثة ، وقد ثبت فى علم النبات أن الصفات الموجودة فى جيل ، تنتقل بنفسها إلى الجيل الذى يليه ، وذلك طبقا لقوانين معروفة ليس هنا محل ذكرها . ويتبع الحيوان نفس هذه القوانين ، ولكن بأساوب أكثر تعقداً ، ومن الثابت أن الإنسان يرث الصفات الجسمية عن آبائه وأجداده ، كالطول والقصر ، والقوة والضعف ، ولون العين والشعر والبشرة ، والاستعداد للتأثر ببعض الأمراض . . . . . الخ . ومايهمنا هو تسجيل أن الإنسان يرث الصفات الخُلقية والنفسية ، كما يرث الصفات الجسمية ، ونقصد بذلك أنه يرث الاستعداد لبعض الصفات الخاصة ، حتى إذا صادفته الظروف التى تستطيع هذه الصفات أن تظهر فيها ، أسرعت إلى الظهور ، وقد أجرى العلماء كثيراً من المشاهدات على بعض الأسر ، للتحقق بالطرق العلمية والإحصاء ، إلى أى حد يتأثر الأبناء بالصفات الخُلقية عن الآباء ؛ وإليك مثلا غريباً ذكره الدكتور « جودارد » عن أسرة

كاليكاك « Kallikak » وقصة هـذه الأسرة ، أن عميدها الذى يسمى مارتن كاليكاك ، التحق فى سن الواحدة والعشرين بجيش الثورة بالولايات المتحدة عام ١٧٧٥ ، فقابل فتاة ضعيفة العقل فى أحد الفنادق واتصل بها ، وأنجب غلاماً خرج ضعيف العقل أيضا . وقد تتبعوا ذرية هـذا الغلام وعرفوا منها أربعمائة وثمانين خلفاً ، فتبين أن منهم مائة وثلاثة وأربعين شخصاً ضعاف العقول ، وستة وأربعين شخصاً ذوو عقل سليم ، ولم يكن فى الاستطاعة الفحص عن عقلية الباقين جميعاً ، ولـكنهم عرفوا أن ستة وثلاثين شخصاً كانوا أبناء غير شرعيين ، وأن ثلاثة وثلاثين إباحيون ، وأربعة وعشرين سكيرون ، وثلاثة أشخاص عرضة للصرع ، وثلاثة اتهموا بالإجرام ، وثمانية يديرون منازل للدعارة ، بينما توفى اثنان وثمانون فى عهد الطفولة .

ومن الموازنات اللطيفة فى هذه الأسرة ، دراسة الخلف الذى أنجبه مارتن كاليكاك من زوجته الشرعية ، ذلك أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، تزوج من فتاة عادية تمت إلى أسرة طيبـة ، وقد بلغت الذرية الجديدة أربعمائة وستة وتسعين شخصاً ، لم يكن بينهم رجل أو امرأة فى عقله ضعف أو خروج عن المألوف ، بل كان من بين هذا الفرع من الأسرة حكام ، وأساتذة فى الجامعة ، وآخرون ارتقوا مناصب عالية فى المجتمع .

فالميل إلى الإجرام والضـعف العقلى والاستهتار وفساد الأخلاق فى الفرع الأول من هذا الجد ، والميل إلى الاستقامة والجد والاتزان والعقل السليم فى الفرع الثانى ، لا يفسر إلا بتأثير الوراثة .

الفصل الخامس

الغرائز[1]

يقع تصرف الإنسان أو سلوكه حسب حاجة الموقف الموجود أمامه ، حتى يلائم بين نفسه و بين طبيعة الأشياء ، أى البيئة المحيطة به ، مثال ذلك إذا أحسست بتيار من الهواء ، ووجدت أنك ستصاب بالبرد فإنك تقفل الباب .

فالأعمال الإنسانية استجابة لمطالب الحياة .

وتصرف الإنسان بإزاء هذه المواقف يتطلب أمرين : الأول الشكل الذى تدرك به الموقف وطبيعة المؤثر الخارجى ، والثانى القوى الداخلية ، أو « الميول » التى توجهك مختلف الوجهات ، حتى تستجيب على وجه ملائم لطبيعة الموقف الخارجى ، فالإحساس بتيار الهواء هو المؤثر الخارجى ، والقوة التى دفعتك إلى إغلاق الباب هى الدفاع عن النفس والهرب من الأخطار . ولما كان الإنسان يولد ضعيفاً خالياً من المعرفة ، لم يعلم كيف يسلك فى الحياة ولم يعلمه أحد ، فلا بد أن يخرج إلى الوجود مجهزاً بكثير من القوى التى تدفعه إلى السلوك بما يحفظ حياته ؛ هذه القوى الكامنة ، والميول الموروثة ، والاستعدادات الفطرية هى التى تسمى « بالغرائز » .

كلما تقدمت السن بالطفل متدرجا نحو الشباب فالرجولة ، أخذ « يتعلم » كيف يتصرف فى هذه الحياة ، كيف يأكل و يشرب و يمشى و يلبس و يضطجع

(1) Instincts.

وينام ويكتب ويقرأ . . . . وأشباه هذه الأشياء التي يكتسبها الإنسان فى مجرى حياته ، ثم يأخذ فى ترديدها دون تفكير ، حتى ليصبح الإنسان فى أغلب أعماله كالآلة . ولكن إذا كانت أغلب أعمال الإنسان التي يؤديها مكتسبة بواسطة التعلّم كما رأينا ، فإن القوى الفطرية التي تولد مع الإنسان تظل كامنة مختبئة تؤدى وظيفتها ولكننا لا نراها .

وهناك لحظات تظهر فيها الغريزة بشكل واضح ، يجعلنا نميزها بجلاء . لو ذهب أحد الرحالين إلى أواسط أفريقيا للاستكشاف ، وخرج يوماً خالياً من السلاح ، فتقابل وجهاً لوجه مع وحش ضار ، فإنه يجرى ، أو يرمى بنفسه فى النهر أو يتسلق شجرة أمامه ، إنه سيندفع إلى عمل كل هذا من تلقاء نفسه ، فهى غريزة الهرب التي تدفعه إلى ذلك . ولو أنك ركبت قطار السكة الحديدية وأنت ذاهب إلى مسافة طويلة ، ومعك كتب ومجلات لتسليتك فى الطريق ، فإنك مع كل هـذا تنزع إلى الكلام مع غيرك من الركاب ومسامرتهم ، فهى غريزة الاجتماع التي تدفعك إلى ذلك ؛ ولو أنك رأيت زحاماً فى الطريق حول شىء من الأشياء لاندفعت وتوجهت للذهاب إلى المجتمعين ، لاكتناه حقيقة هذا الزحام حول الشىء الذى تجهله ، إنها غريزة الاستطلاع التي تدفعك إلى معرفة ما تجهل .

هذا عرض أولىّ يبين لنا أن الغرائز هى القوى الفطرية الدافعـة فى حياة الإنسان ، وهى أساس السلوك عنده . ولكن هناك نوعاً من السلوك أطلقنا عليه اسم الفعل المنعكس ، فما هو الفرق بينهما ؟

الغريزة والفعل المنعكس :

الغريزة والفعل المنعكس كلاهما نوع من السلوك له مميزات يختص بها ، وقد قابل العلماء من قديم بينهما ، ولكن الأبحاث الحديثة فى علم النفس أثبتت أن الفرق بينهما ليس كبيراً . هذه المقابلات نجملها ونرد عليها فيما يلى : —

(١) الفعل المنعكس بسيط محدود ببعض عضلات الجسم ، بينما الغريزة معقّدة وتشمل الجسم كله . فاذا رأيت شيئاً ضاراً سيقع على العين ، فإنك تطبق الجفن ، هذا الفعل المنعكس لم يتعد العضلات المتصلة بالعين ، بينما إذا رأى الإنسان حشرة سامة أو شخصاً يريد أن يعتدى عليه فإنه يبتعد بكليته ويهرب ، فهنا نجد أن الجسم كله قد اشترك فى حركة الدفاع ، بينما تقتصر الحركة فى الفعل المنعكس على عضلات العين فقط . ولكن المؤثر فى الفعل المنعكس إذا كان شديداً فإنه يؤدى إلى حركات قد تشمل الجسم كله . فإذا وخزت شخصاً فى يده وخزاً خفيفاً تقلصت يده فقط ، أما إذا وخزته وخزاً حاداً ، فقد يؤدى ذلك إلى اتساع حدقة العين ، وصعود الدم إلى الوجه ، وإفراز « الأدرينالين » ، وإلى حركات دفاعية تعم الجسم كله . كذلك القط المنزوع مخه يموء ويخدش بمخالبه ويأتى بحركات غير متزنة ، نظراً لانعدام الجزء المسيطر على الحركات وهو المخ .

(٢) الفعل المنعكس يصدر عن الكائن رداً مباشراً على مؤثر خارجى ، بمعنى أنه يتوقف على وجود المؤثر الخارجى وطبيعته ونوعه . مثال ذلك إذا وضعت يدك فى ماء ساخن أكثر مما تحتمله يدك فإنك تستردها ، أو الأصح أن نقول إن يدك تتراجع ؛ أما الغريزة فإن أصولها تمتد إلى داخل الكائن ، مثال ذلك أن العصفور يرى طول العام أوراق الأشجار وفروعها ، ولكن رؤيتها لا تستثير

فيه الميل إلى جمعها حتى يبنى عشه ، وإنه لايبدأ فى ذلك إلا فى زمن مخصوص ، فهذا السلوك أى بناء العش صـدر عن ميل داخلى ؛ على أننا قد نجد أن الفعل المنعكس يكون صادراً عن الـكائن أحيانا لا رداً على مؤثر ، وأن الغريزة قد تتوقف على المؤثر الخارجى أحيانا أخرى ، ويتضح أثر الناحية الأولى فى الأفعال المنعكسة المتعلقة بشرط ، مثل إفراز اللعاب ومواء القط حينما يرى الأطباق تصف فوق مائدة الطعام عند الظهر . ويتضح أثر الناحية الثانية ، وهى توقف الغريزة على مؤثر خارجى فى كثير من المناسبات ، فظهور الغضب يستدعى وجود حائل يعترض رغبة الإنسان .

(٣) ومن أهم المعارضات التى تذكر فى باب الموازنة بين الغريزة والفعل المنعكس ، هى أن للغريزة غرضا تسعى إليه ، بينما الفعل المنعكس لا يحقق أى غرض ، وإنما هو فعل آلى بحت . أما أغراض الغريزة فيما يختص بالفرد ، فهى التغذية ، والهجوم ، والدفاع ، والبحث عن المسكن . وأغراضها فيما يختص بالنوع هى غريزة التناسل ، وتربية الصغار ، وأغراضها فيما يختص بالمجتمع هى الغرائز الاجتماعية ، فالغريزة وهى تسعى نحو هذا الغرض لا تخطىء أبداً ، حتى لقد وضعوا هذه الصفة تحت عنوان « عجائب الغريزة » . ومن الأمثلة المشهورة التى تضرب عادة فى هذا الباب ما يذكر عن الحشرات التى تشل حركة فريستها دون أن تقتلها ، وذلك لـكى يتيسر لصغار الحشرة أن تتغذى بلحم طازج لا بلحم ميت ، وهذا هو السر فى أن الحشرة لا تطعن الفريسة إلا فى المراكز العصبية ، كأنها جراح ماهر يعرف مواضع تشريح الجسم .

ومع ذلك فكثيراً ما يكون للفعل المنعكس غاية مفيدة ، مثل معرفة بعض الحيوانات الثديية للنباتات السامة بواسطة الذوق . وفى التجربة أن القطة المنزوع

نحوها ، إذا سمعت صوتا مفاجئا ، فإنها تتجه بعينيها نحو مصدر الصوت ، وهذا دون شك فعل منعكس .

أما فيما يختص بكمال الغريزة واتباعها غاية وسبيلا لا تخطئهما أبدا فهى خرافة تكذبها المشاهدة ، فقد أثبتت ملاحظة بعض العلماء فساد القول بأن الحشرة التى تشل فريستها لا تخطئ ، إذ أنها كثيراً ما تنحرف فى تسديد الطعنة ، وكثيراً ما تصيب الفريسة فى مقتل ، ومع ذلك فإنها تقودها ميتة ، ويتغذى الصغار منها وهى على هذا النحو .

والخلاصة من كل هذا هو أن الفرق بين الغريزة والفعل المنعكس ليس كبيراً ، بحيث يترك فجوة عميقة بينهما ، بل هو فرق غير محسوس تميزه درجة تعقد السلوك فى الغريزة ، وبساطته فى الفعل المنعكس .

مميزات الغريزة :

تمتاز الغريزة بالميزات الآتية :

(١) الغريزة نوعية (Spécificité) :

ومعنى ذلك أنها واحدة بالنسبة لجميع أفراد النوع من جنس واحد ، فلكل نوع غرائزه التى تميزه عن غيره ، مثال ذلك البيوت التى تنسجها العناكب ، فكل صنف منها ينسج بيتا بشكل مخصوص ، مثل تلك التى تنسج البيوت فى زوايا الحيطان .

هذه الوحدة فى النوع ليست مطلقة ، إذ أن هناك فوارق شخصية ، لأن الأفراد لا يتشابهون إلى حد التطابق . ولكن هناك صفات أساسية ثابتة هى التى تسمح لعالم الحيوان أن يميز الأنواع المختلفة منه .

كذلك ليست الغريزة ثابتة على الزمن ، فالغرائز تصل إلينا عن طريق الوراثة ، وهى اتصال الأجيال بعضها ببعض ، ويحدث تغيير مع الزمان خلال هذا التطور ، ولكنه بطيء غير محسوس .

وقد تغير بعض أنواع الحيوان من مسلكها فيما يتصل ببعض المظاهر الخارجية للغريزة ، ومن الأمثلة على ذلك ما شوهد من أن بعض العصافير استبدلت بالمواد التى تبنى بها عشها مخلفات من الصناعات الإنسانية ، مثل عيدان الثقاب القديمة ، ومخلفات الساعات بالقرب من مصنع لها .

(٢) الغريزة فطرية (Innéité) .

وهذه من أهم الصفات التى تميزها ، وإذا نفينا هذه الصفة عنها فاننا ننفى بذلك وجود الغريزة نفسها . وبعض الفلاسفة قالوا إن الغريزة ليست فطرية فإن « بسكال » يقول : « إن الطبيعة عادة أولى » ولكن الواقع ينكر ذلك ، إذ يكفى أن تنظر إلى الإنسان أو ضروب الحيوان لتحكم بما يخالف ذلك القول . فالطفل الحديث الولادة ليس فى حاجة إلى « التفكير » ليصيح أو يرضع ، فهو يصيح كلما أحس بألم ، وهو يمص كل جسم غريب يلامس شفتيه .

هذا السلوك وأشباهه يتحقق من بداية الأمر ، فالغريزة تخلق كاملة ، لايحتاج الكائن إلى التعلم والكسب والتدريب لتأدية العمل . وإذا رجعنا إلى الحيوانات الثديية المنحطة ، العاجزة عن تكوين هذه الأعمال بالعادة أو الكسب ، نجد أنها تؤديها كذلك ؛ فليس القط فى حاجة إلى من يعلمه اصطياد الفيران ، وليس الطير فى حاجة إلى من يعلمه بناء العش .

ولا يجب أن نفهم من فطرية الغريزة أنها تظهر مع ظهور الكائن إلى الوجود ، فكل غريزة تظهر فى الوقت الملائم لها ، مثل الطيور المهاجرة التى لايظهر عندها

هذا الميل إلا فى وقت معين من السنة . ومن التجارب اللطيفة ذات الدلالة فى هذه الناحيــة تجربة القط الذى ربى منذ صغره مع الفأر ، فإنه لايظهر نحوه أى اهتمام إلا بعد مضى أربعة أسابيع ، وحينئذ يظهر عند القط هذا السلوك المعروف فجأة ، وهو المطاردة واللعب مع الفريسة ، والزمجرة ، ثم قتل الفأر .

وليس يلزم فى فطرية الغريزة أن تـكون ثابتة غير قابلة للتغيير ، إذ أن العادة كثيراً ماتطغى على الغريزة وتغيّرها .

و إذا شئنا أن نتبيّن الغريزة الخالصة ، فلابد لنا من الرجوع إلى الحيوان المنحط.

والأصــل فى الغريزة أن تتحقق بالفطرة دون حاجة إلى تعلم ، وتجربة « سبالدنج Spalding » واضحة فى هذا الصدد ، كان ذلك فى عام ١٨٧٣ حين فـكر « سبالدنج » هــل يطير الطير عن فطرة أو عن تعود . ذلك أن آباء الطير تدفع صغارها إلى الطيران ، وتدربها ، و يكتسب الصغار منها حركة الطيران بالمحاكاة ، لذلك أحضر « سبالدنج » بعض صغار الطيور الحديثة الفقس ثم حبس كل واحد منها فى قفص على حدة ، ولم تـكن الأقفاص من السعة بحيث تسمح لها بتحريك أجنحتها ، ولمـا نبت ريشها وحان موعد طيرانها أطلقها ، فإذا بها تطير وتحرك أجنحتها لأول وهلة كغيرها من الطير تماما . فهذه تجربة عظيمة الدلالة فيما يختص بفطرية الغريزة وثباتها .

ولـكن من النادر أن نعثر على الغريزة ثابتة بهذا الإطلاق ، فالطيور المغردة لاتغرد إلا إذا سمعت أترابها تغنى ، و إذا حبست عن غيرها من نوعها لم تغرد .

وتلعب الذاكرة دوراً كبيراً فى أداء الحركات الغريزية ، فالفرخ حين ينقف من البيض ، ينقر فى الأرض كل مايصادفه من الحب والديدان والحشرات ، كما ينقر الحصى ، وأعين الأفرخ الأخرى ، وكلما تقدمت السن بالفرخ لايلتقط كل

شىء ، ولذلك فإنه يصدف عن بعض الديدان الضارة .

مما سبق يتضح لنا أن الغريزة تظهر فى صورتين :

١ — الغريزة الخالصة المصحوبة بحركات تظهر كاملة دون حاجة إلى كسب وهذه الصورة نجدها على الأخص عند الحيوانات الدنيئة .

٢ — الدوافع الغريزية التى هى أساس السلوك ، يبنى عليها الأفراد مسالك مختلفة ولكن الأساس واحد .

(٣) الغريزة عمياء :

تميز الأعمال الإرادية عند الإنسان بأن هناك غرضاً يستدعى الشعور به اتباع طريق يوصل إليه ، فالغرض هو الذى يملى على الإنسان اختياره الطريق . يشعر المريض بالمرض ، فيمتنع عن تناول الطعام حتى لا يزداد به المرض ، وإذا أراد شخص أن يقضى الليل فى التسلية فإن هذا الغرض هو الذى يملى عليه الذهاب إلى دار الخيالة .

كذلك اصطياد الفريسة وشل حركتها ، ووضعها فى الجحر بجانب البيض هو طريق لهذا الغرض ، وهو أن تكون مؤونة للصغار حين تنقف البيض وتخرج منه .

ولكن الحيوان لا يدرك أو لا يشعر بالغرض الذى يحققه العمل الغريزى . والدليل على ذلك أن تعديل الظروف الخارجية لا يدفعه إلى تعديل العمل الغريزى ، بحيث يلائم هذه الظروف ؛ هذا ما نعنيه بقولنا إن الغريزة عمياء .

مثال ذلك أن النحلة التى تملأ الخلية بالعسل ، تظل تملؤها على الرغم من وجود ثقب صغير فى قرار الخلية يسيل منه العسل فلا تمتلئ أبدا .

يذكر « فابر » مشاهدته عن حشرة تشل حركة فريستها ثم تجرها إلى

جحرها ، وتتركها بالباب ، ثم تدخل الجحر ، وتدور فيه كأنها تتحقق من عدم وجود غريب فى داخله ، ثم تخرج ثانياً لتُدخِل الفريسة . فتربص « فابر » لها وكلما دخلت الجحر أبعد الفريسة عنها ، فتذهب الحشرة ، وتجر الفريسة وتتركها بالباب ، ثم تدخل الجحر وحيدة وتتأمل فيه ، ثم تخرج ، فإذا بالفريسة بعيدة عن الجحر ، فتبدأ هذه العملية من جديد ، وظل « فابر » يردّد هذا العمل عدداً كبيراً من المرات ، والحشرة لا تزال تكرر هذا السلوك . ولكن « فابر » يذكر فى مكان آخر « إن حشرة أخرى لم تكن فى بلاهة الأولى ، فقد تناولت فريستها بعد التجربة الثالثة ، ودخلت بها إلى الجحر » .

ومن هذا يتضح لنا أن التجربة الشخصية تعدل من العمل الغريزى . وعلى ذلك فإن الغريزة ليست عمياء على الإطلاق .

التقسيم الثلاثى للغريزة :

الغريزة من الظواهر النفسية وقد ذكرنا فى تحليل الظاهرة أن لها ثلاثة أوجه : إدراك ووجدان ونزوع . وهذا الكلام ينطبق على الغريزة .

فإذا داس أحد على قدمك ، يحدث إدراك ووجدان ونزوع . فتدرك أن هناك من داس على قدمك ، وتدرك اتساخ الحذاء ، وهذه هى الناحية الإدراكية ثم تشعر بالألم وتنفعل بالغضب ، وهذه هى الناحية الوجدانية ؛ ثم تنزع إلى ضرب من داس على قدمك ، أو إهانته بالكلام بصوت عال ، وقد لا تفعل شيئاً ، إذ يظل النزوع كامنا دون أن يتحقق .

وفى كل غريزة نجد هذا المظهر الثلاثى ، ولكن أوضح الثلاثة هو النزوع . وهناك من يقول بأنه الانفعال ، لأنه فى بعض الأحيان يكون هو الأوضح ، ولكن

الغالب هو الجانب النزوعى ، ولذا يميل الكثيرون إلى تسمية الغريزة بالمظهر النزوعى منها ، فيقولون غريزة المقاتلة دون الغضب ، والهرب دون الخوف .

والجانب الوجدانى له أهمية كبيرة فى سلوك الكائن ، فالقطة تنزل إلى الحقل وتقف بين الأعشاب ، فترى بعضها يتحرك ، فتقف القطة وتقترب بحذر ، وتبحث ، فإذا رأت طائراً هجمت ، وإذا رأت كلباً فرّت ، فسلوك القطة هنا يبدأ بالاهتمام المصحوب بالانتباه والاستطلاع ، ولكن إقدامها أو تراجعها هو نتيجة السرور أو الخوف .

ولا يلزم أن يكون الجانب الإدراكى من الغريزة شيئاً محسوساً ، فقد يكون تذكراً لشىء سالف حصل لك فيما مضى ، ويسبب لك الدافع الغريزى والانفعال . فإذا تذكرت المشادة التى حصلت بينك وبين صديقك وتذكرت الألفاظ الجارحة التى وجهها إليك ، فإنك تنفعل انفعال الغضب ، وتنزع إلى المقاتلة ، فتظهر عليك آثار هذه الغريزة واضحة جلية ، حتى أن جليسك يلحظ منك هذا ويعجب . وهذا كثير الوقوع ، لأنك تجد شخصاً يجلس هادئاً فيتذكر منظراً مخيفاً فيخرج عن هدوئه ، ويتكلم فى صوت عال « أعوذ بالله ... » وهذا هو المظهر النزوعى للخوف والدهشة .

وقد لا يكون الجانب الإدراكى شيئاً محسوساً ، ولا شيئاً تتذكره ، ولكن قد يكون صورة خيالية تبتدعها فى ذهنك ؛ فإذا تخيلت فى الظلام عفريتاً ، فإنك تضطرب وتخاف وتطلق ساقيك للريح .

فلا بد للغريزة أن يكون هناك مؤثر خارجى يستثيرها ، قد يكون شيئاً محسوساً خارجياً ، وقد يكون ما تتذكره أو تتخيله . ولا بد من وجود الإدراك حتى تتم الغريزة ، فإذا رأى الطفل الصغير ثعباناً ولم يدرك أنه سيلحق به أذى ، فإنه لن

يخاف منه ولن يهرب . فالمهم هو حصول الإدراك سواء أكان حقيقياً أم وهمياً . فإذا هجم عليك لص فى يده سكين هربت ، و إذا توهمت فى الظلام وجود لص هربت أيضاً .

فالغريزة تتوقف إلى حد كبير على الجانب الإدراكى ، و إذا اعترض بعض الغرائز وقت ظهورها ما يمنع تنفيذها فإنها تموت إلى غير عودة . فالفرخ الصغير عنده مَيْلان ، ميل إلى الاستئناس وميل للخوف . فإذا فصلته منذ الصغر وحيدا فإنه يميل إلى الاستيحاش و ينفر من النـاس ، بينما إذا عودته منـذ الصغر أن يتصل بغيره ، فإنه يميل إلى الاستئناس حين يكبر .

إعلاء الغريزة :

للجانب النزوعى من الغريزة شطران ، الأول القوة الدافعة ، والثانى طريقة تنفيذ ما تدعو إليه هذه القوة . وقد وجدنا أن الغريزة عند الحيوان ، على الأخص ضروب الحيوان الدنيئة ، تتحقق فى الغالب كاملة عند أفراد النوع بصورة واحدة كالنمل يبنى خليته السداسية بشكل واحد لا يتغير . فهو يحقق الميل الغريزى لبناء الخلية ، وطريقة بنائها ، بشكل واحد . والفرق بين الإنسان والحيوان فى هذه الناحية ، هو أن الإنسان له حرية اختيار الطريقة التى ينفذ بها الميل الغريزى ، فلدينا جميعاً ميـل إلى الهرب وتجنب الأخطار ، ولـكن شخصاً يهرب جرياً ، وثانياً مختفياً ، وثالثاً متسلقاً شجرة ، ورابعاً رامياً بنفسه فى الماء ؛ بينما النعامة حين يطاردها الصيادون تضع رأسها فى الرمل ، زاعمة أنهـا ما دامت لا ترى الصياد فإن الصياد لا يراها . و يحقق الإنسان الأول[١] دوافعه الغريزية بصورة متسقة

(١) L'homme primitif.

تقريباً ، وقد هبطت إلينا هذه الصورة عن طريق الوراثة ، فالأصل فى غريزة المقاتلة أن تظهر فى صورة الصراع ، والضرب باليدين أو القدمين ، والعضّ والصراخ ، ثم أصبح الناس فى المدنية الحديثة ، و إذا بهذه الأعمال الغريزية لاتتفق و إياها ، فماذا هم فاعلون ؟ هذه مشكلة صعبة الحل وهى : وجود الدوافع الغريزية التى تريد أن تجد لها مخرجا من جهة ، والإنسان فى الوقت الحاضر لايريد تنفيذها لأنها تضره ، ولا تتفق مع المدنية الحديثة من جهة أخرى . فصورة المقاتلة التى ذكرناها كريهة حقاً ، ولكن القوة الدافعة إلى الكفاح فطرة ثابتة فى النفس ، لا يمكن محوها أو استئصالها . هـذه القوة وغيرها من الميول الفطرية مَثَلها مَثل ماء النهر المتدفق الدائم الجريان ، إذا وضعت سداً يحول دون الماء فإنه لا يقفه ، بل يحدث إما أن يطغى الماء الدافق على السد فيحطمه ، و إما أن يكون السد منيعاً فيتسرب الماء فى مسارب خفية ينصرف فيها ، وكلا الأمرين مضر . فإذا وقفت أمام الطفل الصغير تمنعه من الحركة والكفاح ، فإنك بهـذا تضع سداً من التقاليد الاجتماعية يحول دون انطلاق القوة الكامنة عند الطفل فى مجراها الطبيعى ، وحينئذ إما أن يثور الطفل فيخرج شريراً مشاكساً ، و إما أن يهـدأ فى الظاهر ولكن قوة الكفاح تنصرف إلى مسارب معوجة وطرق غير مسـتقيمة ، فيضرب إخوته الأصغر سناً دون ذنب أو يتلف الأشياء التى تقع بين يديه .

يجب إذن أن نوفق بين كل هذا ، أما القوة الدافعة ، وهى الشطر الأول من الغريزة ، فلا بدأن نتركها كما هى لأنها فطرية ولايمكن محوها أو تغييرها ، أما تحقيق الغريزة فلنا معه شأن آخر ، ذلك أننا نستطيع أن نعدل مجرى الغريزة ونتسامى بها ونوجهها وجهة أخرى ، ونتعالى بها عن مجراها الطبيعى إلى ما هو خير للإنسان ، وما فيه نفعه ، وما يتفق والمدنية الحديثة ، وهذا مايسمى فى علم النفس بالإعلاء .

على هذا نستطيع أن نوجه غريزة الكفاح وجهة رياضية كالمصارعة ولعب كرة القدم ، أو مكافحة مشاكل الحياة التي تعترضنا والانتصار عليها ، إلى غير ذلك مما سيأتي ذكره بالتفصيل فيما بعد .

الغرائز الإنسانية :

من العسير تمييز الغريزة عند الإنسان ، لأن فصل الميول المكتسبة عن الفطرية كثير الصعوبة بالنظر إلى ما طرأ على الانسان من آثار الحضارة ، وما اكتسبه عن طريق المحاكاة والتقاليد والعادات والعقائد . فلا بد لنا في البحث عن الغريزة الخالصة من هذه الآثار المكتسبة ، أن نرجع إلى الطفل الصغير ، أو الإنسان الأول . والطفل أوضح في الدلالة لأنه لايزال بعيداً عن تأثير الكسب والعادة (وإذا استطعنا أن نعزله ، كما فعل « سبالدنج » مع صغار الحيوان ، كان ذلك أفضل) . ولكن هذه الطريقة لا تفيدنا إلا في العهد الأول من عهود الطفولة ، إذ يندرج الطفل بعد ذلك في المجتمع والبيئة . فإذا فعلنا ذلك فإننا نجد بعض الأعمال كالرضاعة ، والخوف من الظلام ، والخوف من الضوضاء والأصوات الشديدة ، كل ذلك فطري عند الطفل .

وغرائز الإنسان كثيرة ، وقد اختلف العلماء خلافاً كبيراً في تصنيفها ، ولكننا إذا قسمناها تبعاً لموضوعها فإننا نحصل على الثبت الآتي .

ذلك أن الحيوان يحتاج لحفظ حياته أن يتغذى ، وأن يدافع عن نفسه ، وأن يعرف ويميز الوسط المحيط به ، وأن يَنْسِل . وإذا كان الحيوان اجتماعياً فلا بد أن يتصل بأفراد نوعه . هذه الغرائز المختلفة توجد كذلك عند الإنسان لأنه نوع من الحيوان .

غرائز البحث عن الطعام :

ليس شك فى أن الطفل يؤدى كثيراً من الوظائف العضوية بالفطرة ، وذلك نظراً لحاجة الجسم الماسة إليها ، وبدونها تتعطل الحياة ؛ من هذه المطالب ما يؤديه الجسم دون تدخل الإرادة ، كالتنفس والهضم وإفراز الفضلات . والطعام من الضرورات الأولى التى لا يمكن أن يستغنى عنها الإنسان أو الحيوان ، ويكفى أن تتصور الإنسان فى حالة مجاعة لترى كيف يفقد كل معانى الإنسانية التى اصطلحنا عليها ، حتى لقد يصل به التوحش أن يأكل لحم أخيه الانسان .

والرضاعة عند الطفل فطرية ، وهو فى مبدإ الأمر يضع كل ماتقع عليه يده فى فمه ، حتى لقد يمص أصبعه . وكثيراً مايصطحب الإنسان هذه الغريزة الأولى معه طول حياته ، وهذا هو السبب فى أن كثيراً من الأشخاص يقرضون أطراف أصابعهم ، أو يضعون أقلام الرصاص فى أفواههم . . . . الخ . ويرى « فرويد » أن السرور من التدخين يرجع إليها .

ويتصل بالبحث عن الطعام غريزة الصيد . والحيوان على وجه العموم يحصل على غذائه عن طريق الصيد ، وكذلك كان الانسان الأول ، ولكننا لانلجأ إلى ذلك فى الوقت الحاضر ؛ ومع ذلك فالميل إلى الصيد والمطاردة كثيراً ما يظهر عند الإنسان المتحضر . فالطفل يلذ له أن يقتنص الحشرات فى الحدائق ، وأن ينصب الفخاخ للعصافير ، وأن يصطاد السمك . ومن اللهو الذى يفتن كثيراً من أفراد الطبقات الرفيعة صيد الحيوانات البرية .

غرائز الدفاع :

نستطيع أن نقسم الدفاع إلى مجموعتين ، الأولى الدفاع عن الجسم فسيولوجيا ، ويتصل بهذا النبذ أو النفور والتقزز ، والثانية الدفاع لحفظ الحياة ، وذلك يكون بالهرب أو الكفاح .

١ — النفور والتقزز[1] :

الأصل فى التقزز أن يكون دفاعاً عن الجهاز الهضمى . فالطفل يضع فى فمه كل شىء يصادفه ، ولكنه يبعد عنه كل ما لا يستسيغ طعمه أو يكره رائحته ، ثم ينتهى الأمر بالانسان أن يتعود التقزز من ألوان معينة من الطعام . لذلك تجد كثيراً من الأشياء تؤكل فى جهة ، ويُتقزز منها فى جهة أخرى . مثال ذلك أن الصينيين يأكلون لحم الكلاب ويستطيبونه ، بينما نحن نتقزز منه .

ويتصل بالتقزز بعض المظاهر الجسمية كالبصق .

أما النفور فهو الابتعاد عن الأشياء التى تضر سطح الجلد ، مثل وقوع بعض الحشرات الطفيلية كالذباب وغيره على الوجه . ويقال إن الأصل فى النظافة يرجع إلى هذه الغريزة ، ولكن هذا الرأى مشكوك فيه ، لأن الإنسان إذا تُرك وشأنه فانه لا يبدى أى ميل للنظافة .

فالتقزز والنفور مَيلان الغرض منهما الدفاع العضوى ، ويتصل بهما الاحتقار ، وحينئذ تتشكل ملامح الوجه بهذه الصورة المعروفة ، وكثيراً ما يبصق الإنسان لإظهار الاحتقار .

٢ — الخوف والهرب :

الهرب قوة الغرض منها الدفاع عن الكائن بأكمله ، لا عن جزء من الكائن .

---

(١) Répulsion, dégoût.

فتقلص اليد عند وخزها بدبوس لايعد دفاعاً عن الجسم بأجمعه ، بل فعلا منعكساً

ووسائل الدفاع عند الخوف ثلاث : الصياح ، والهرب ، وتوقف الحركة . فالطفل الصغير يصيح ، وحينما يكبر يهرب أو يقف فى مكانه ، وكلما تقدمت به السن تعلم أن يحبس الصياح .

ومن بواعث الخوف عند الطفل الصغير الضوضاء ، والأصوات العالية المفاجئة ، والاشفاق من الوقوع ، والظلام والوحدة ، ورؤية بعض الحيوانات كالثعبان والعنكبوت . والانسان الأول والحيوان يخافان من الظواهر الطبيعية ، مثل الرعد القاصف ، والبرق اللامع ، والعواصف الثائرة .

وأغلب مؤثرات الخوف عند الانسان اكتسبها بالتعود ، ونستطيع أن نرجعها إلى كل مايلحق الأذى بالإنسان . وقد يكون الخطر حقيقيا كما يكون وهمياً ، والخطر الحقيقى قد يكون مادياً مثل وجود الشخص فى منزل يحترق ، وقد يكون معنوياً كخوف الموظف من الرفت ، والطالب من الرسوب فى الامتحان . أما الخوف من المؤثرات الوهمية فأساسه الخرافات التى تشيع فى أذهان العامة ، مثل الخوف من الأشباح والعفاريت .

هذا وقد تغيرت المؤثرات التى تدفع إلى الخوف فى العصر الحاضر . فالإنسان الآن ، يخاف من الأمراض المعدية ، ويخشى سقوط مركزه الاجتماعى ، ويهرب من المجتمع إذا اضطر إلى مخالفة تقاليده .

٣ — الكفاح والغضب :

ليس الهرب الوسيلة الوحيدة للدفاع عن الكائن ، بل هناك وسيلة أخرى هى الكفاح ، وهو قوة تدفع الإنسان إلى أن يقاتل ويقاوم إذا رأى هناك خطراً عليه ، أو مسه أحد بسوء ، وذلك إما باغتصاب ما يملكه الشخص ، وإما بحرمانه

الوصول إلى رغبة ، و إما محاولة التغلب على شىء من الأشياء .

ومظهر غريزة المقاتلة حين تتحقق كاملة يكون فى صورة الصراع ، والضرب باليدين أو القدمين ، والعض ، والصراخ .

وهى أوضح عند الإنسان غير المتمدين والطفل والحيوان . فإذا اقتلع أحد زراعة فلاح ضربه بالفأس دون أى تفكير . و إذا أخذت لعبة الطفل ، أو حرمته تنفيذ رغبة يريدها ، همّ بضربك أو أجهش بالبكاء . و إذا اعتديت على قطة فى بيتك ، بأى نوع من أنواع الاعتداء ، زمجرت غضباً ، وأخذت تموء مواء الشر والمقاتلة ، وحاولت أن تهجم عليك .

وقد أسدلت التقاليد العصرية رداء كثيفاً يحجب هذه الصورة الوحشية من المقاتلة ، فأصبح الإنسان يدفع العدوان بحجة اللسان ، وانصرف الأمر من الاعتداء البدنى إلى الانتصار المعنوى ، فيستعمل المقاتل طرق الدس والإيقاع فى الخفاء ، والتشهير بين الناس بالشتائم والهجاء ، وتربص فرصة ضعف الخصم لإلحاق الأذى بأملاكه أو عرضه أو ماله أو مركزه ، إلى آخر هذه الألوان من الرياء والمداهنة . وقد تقع المقاتلة فى الاصطلاح كالمبارزة ، ولكن أغلب الدول منعتها فى الوقت الحاضر . وكثيراً ما يمزق الانسان هذا الغشاء الرقيق من العادات فيرجع إلى حالة الوحشية الأولى منفذاً المقاتلة بالعدوان ، وذلك إذا كان باعث الغضب قوياً . كذلك انتقل تحقيق صور المقاتلة من يد الفرد إلى سلطان الجماعة ، التى تحكم على المعتدى بقوة القانون . ومع ذلك فحكم القضاء حتى ولو كان قاسياً ، فإنه لا يشبع رغبة الشخص فى المقاتلة .

والمغالبة هى الصورة المعنوية لغريزة الكفاح ؛ فمغالبة صروف الحياة ، وحلّ المشاكل العلمية ، ومعارضة شهوات النفس إلى غير ذلك ، هى ألوان من الكفاح ،

وكأنها ضروب من المقاتلة ، لأن الإنسان يقف أمام أعداء يحاول الانتصار عليهم . فصروف الحياة ، ومشاكل العلم ، وشهوات النفس ، هي أعداء تَحُول دون رغباته .

ومؤثرات هـذه الغريزة هي محاولة الإضرار بالإنسان بأي شكل من الأشكال . وتبتعث عند الحيوان إذا هوجم أو حُرِم من طعام ، أو اعتدى على صغاره . ويقاتل الإنسان كل من يتدخل في أموره وأعماله ، ويكافح كل عقبة تقف في سبيله .

وقد يكون مثار الكفاح جماداً ، فقد تكتب رسالة لا يعجبك إنشاؤها فتمزق أوصال الورق في حدّة وعنف . والنجار الذي يعسر عليه دق مسمار ، تجده يضرب بالقدوم الأرض ، ويرمى الآلات التي يعمل بها بعيداً .

وقد يقاتل الإنسان دون سبب ظاهر ، كالطفل الذي يضرب أخاه الأصغر أو الحيوانات المستأنسة الموجودة في المنزل ، أو كصاحب العمل الذي ينفجر غضباً معتدياً على عمّاله ؛ والباعث هنا ، طبقاً لرأي علماء التحليل النفساني وعلى رأسهم « فرويد » يرجع إلى عقدة نفسية مستورة في اللاشعور ، تحاول الظهور بين حين وآخر في هذه الصور التي ذكرناها . فالطفل الذي يضرب أخاه الأصغر ، يكون والده قد ضربه بقسوة قبل ذلك ، ولم يستطع أن يقف أمام والده موقف الندّ ويرد عدوانه ، فتتسرب هذه القوة نحو أخيه .

وإذا كان الكفاح فطرياً لا نستطيع أن نمحوه من النفس ، أو نقف في سبيله لأنه ينقلب عند ذلك شراً ، فكيف نتسامى بهـذه الغريزة إلى خير الانسان ونفعه وما يتفق والمدنية الحديثة ، دون أن نتركها تجرى في مجراها الطبيعي ، في صورة المقاتلة وسفك الدماء ؟ وكيف نسمو بها عند الأمم التي تسلك مسلك الأفراد فتقتص لنفسها بالحرب ؟

لتكن هذه المقاتلة فى صورة رياضية ، بدل أن يقاتل الانسان أخاه ، فتشبع الغريزة من جهة ، ونكتسب صحة ورياضة من جهة أخرى ، وهذا هو السر فى انتشار الألعاب الرياضية السامية الغرض . فالملاكمة والمصارعة ولعب كرة القدم والسباحة . . . ألخ كلها تعتبر منافذ تنساب منها مياه الدافع الغريزى للمقاتلة . ونستطيع أن نستغرق قوة الكفاح فى مغالبة المشاكل العلمية ، فننتصر على الجهل ونكتشف مجاهل العلم فى جميع نواحيه . والدفاع عن المبادئ الفكرية والدينية والسياسية والخلقية والوطنية يحتاج إلى كثير من الجهاد والكفاح والمغالبة .

والغرض من الكفاح والمقاتلة هو الدفاع عن النفس الذى يؤدى إلى حفظ الحياة . ومع تعارض الكفاح والهرب ، فكلاهما دفاع عن النفس ، ومن اجتماعهما يحدث اتزان تخرج منه الحياة المثلى للإنسان ، أى يهرب وقت الهرب ، ويكافح وقت الكفاح . وتتجه شخصية الانسان تبعاً لتغلب إحدى الغريزتين ، فمن يسود عنده الكفاح يسمى شجاعا أو متهوراً ، ومن يتغلب عنده الهرب يسمى جباناً .

الاستطلاع :

حب الاطلاع قوة تدفع الإنسان إلى أن يتعرف المجهول . وهذه الغريزة فى الأصل ضرورية لمعرفة البيئة المحيطة بالإنسان ، إذ أن سلوكه يتشكل حسب هذا الإدراك . ويصحب الاستطلاع الانتباه ، الذى يعتبر تمهيداً للإدراك ، فيحدق الإنسان عينيه ويرهف أذنيه ، ويفتح حواسه جميعاً لاستقبال المعرفة الجديدة . فالطفل الحديث الولادة يتبع برأسه وعينيه الأشياء التى تتحرك أمامه . ولا يكتفى الإنسان بمجرد المشاهدة ، بل يلجأ إلى التنقيب للوصول إلى اكتناه الحقائق . فيكسر الطفل لعبته ويفككها ويمزقها ، وقد تراه يعذب حيواناً صغيراً ، فيشده

ويجذبه ، والحقيقة هنا أنه يلبي دافع الاستطلاع . والطفل نزّاع إلى تفسير الظواهر التي تقع تحت خبرته ، وهو شديد الظمأ إلى المعرفة ، ولذا كان كثير السؤال عن أسباب الأشياء ، فيصوغ أسئلته في ثوب التعليل الذي يبدأ بكلمة « لماذا » . وكثير من أسئلته محرجة ، لأن العلم لم يصل إلى تفسيرها . كأن يقول « لماذا تذوب قطعة السكر في الماء بينما الملعقة لا تذوب ؟ » وفي كثير من الأحيان يسأل الطفل لمجرد السؤال ، لا يطلب جواباً بل هي طبيعة الاستطلاع التي تدفعه إلى ذلك ، والدليل على هذا أنه يسألك فإذا شرعت في الإجابة انصرف إلى لعبته دون أن يهتم بك .

هذه الغريزة هي أساس العلم والمعرفة ، فالعلوم المختلفة والمكتشفات المتعددة والمخترعات المتباينة هي نتيجة هذه الفطرة . لذلك يجب أن نفسح المجال لظهورها ، بأن نسهل التعليم ، وننظم المحاضرات والمناظرات ، ونكثر من دور الكتب ، ونعنى بإصدار الكتب والصحف ، وإقامة المتاحف والمعارض والمؤتمرات ، وتشييد المعامل التي أصبحت لا غنى للعلم عنها .

الاجتماع :

الإنسان حيوان اجتماعي ، لا يستطيع إلا أن يعيش مع غيره من بني الإنسان . الاجتماع غريزة فطرية . تأمل في صميم نفسك تجد أنك تحب الحياة في رفقة غيرك وتكره العزلة . وإنك لتسعى إلى الوجود بين الناس ولو أنك لن تستفيد منهم شيئاً . انظر إلى المتفرج في ملعب كرة القدم ، إذا كان وحيداً منفرداً لا يوجد متفرج غيره بجانبه ، لا يدخل إلى نفسه السرور بخلاف ما إذا كان الملعب حافلاً بالمتفرجين . والعزلة قاسية ، إذا طالت فإنها قد تؤدي إلى الجنون ، ولهذا كان أشد أنواع الحبس قسوة هو السجن الانفرادي . وقد يعترض بعض الناس بأن هناك

من يميل إلى العزلة كالنساك ، وهؤلاء قلة نادرة لا نأبه لها ، لأن أحكامنا نصدرها على أغلبية الناس . والحقيقة أن أسبابا قوية هى التى تدفع المعتزل إلى الهرب من الناس ، وفى عقول هؤلاء مرض فى الغالب ، فهم شواذ .

ومَثَل الإنسان ، مَثَل كثير من الحيوانات الاجتماعية ، لايختلف عنها فى شيء من هذه الناحية ، أى حب الاجتماع .

السيطرة والانقياد :

هما فطرتان متصلتان بالغريزة السابقة . ذلك أن أفراد المجتمع لا يتشابهون تشابها مطلقا ، بحيث يكونون على نمط واحد ، بل يتدرجون فى سلم القوة والضعف ، والسيطرة والانقياد ، والرياسة والخضوع ؛ وهذا هو الحال أيضا فى المملكة الحيوانية ، فللنحل ملكة وجنود وعمال .

هـذا النظام المتدرج فى المجتمع هو سر صلاحه ، فلو أن الجميع كانوا بقوة واحدة لتعارضت هذه القوى ، ولكن البعض يميل إلى السيطرة ، والبعض الآخر إلى الخضوع . هبك تركت عدداً من الأطفال فى مكان واحد ، فإنك تجد أحدهم يتزعم الباقين ويقودهم ، ويصدر إليهم أوامره ، ويملى عليهم إرادته . وللسيطرة مظاهر كثيرة ، فقد تكون بالقوة الجسمية ، أو بالقوة المعنوية والفكرية . وقد يكون الإنسان رئيساً فى وقت ، وخاضعاً فى وقت آخر ، كالطالب يتزعم أقرانه بينما ينقاد لأمر المدرس .

والانقياد قد يكون عن حب أو خوف ، فالوالد كثيراً مايذعن لرغبة ابنه الصغير ، وذلك عن حب . ويقول « هوبس » إن الدولة تقوم على الخوف ، وهذا صحيح إلى حد كبير ، فالإرهاب وسيلة من وسائل الحكم ولكن حكومات الإرهاب

لاتقف على أقدامها إلا إذا كان الشعب راضياً عنها ، إذ أن معنى انقياد الشعب لحكم ديكتاتور هو رضاه عنه .

والانقياد فطرة طبيعية أيضا ، ويكفى أن تنظر إلى الكلب الذى يزجره صاحبه فيقعى ويجلس بجانبه ، فهو لا يجرى ولكنه ينقاد فى خضوع . وإذا نظرت إلى جماعة من الطيور الداجنة كالدجاج ، فإنك تجد أنها ليست مجموعة من الأفراد كل فرد وحدة قائمة بذاتها ، يعيش منفصلا عن غيره ، بل هى جماعة يسودها نظام وحكم . فهى تتزاحم على الرياسة حتى إذا تغلبت إحداها بحكم قوتها تصبح زعيمة الجميع ، ثم ينقاد لها الباقون بالإجماع .

النزعات العامة

وقع فى اصطلاح فئة من العلماء أن يفصلوا بعض الميول الفطرية العامة عن الغرائز ، لأنها تفقد شرطا من شروط الغريزة ، وهو أن الانفعال لا يصحبها . هذه النزعات العامة هى الإيحاء ، والمشاركة الوجدانية ، والتقليد[1] . وهى كلها نزعات اجتماعية نتيجة وجود الإنسان فى المجتمع ، إذ لا بد من تفاعل يتم بين الناس حين يتصلون فى المجتمع ، وهذا التفاعل عبارة عن تأثير وتأثر .

هـذا التأثير إما أن يكون إدراكيا ، أو وجدانيا ، أو نزوعيا ، تبعا لتحليل الظواهر النفسية الذى سبق . فالتأثير الذى تغلب عليه الناحية الإدراكية يسمى الإيحاء ؛ وذلك الذى يتميز فيه الوجدان يطلق عليه المشاركة الوجدانية أو التعاطف ؛ أما التأثير الغالب فيه النزوع فهو التقليد .

---

(١) Suggestion, Sympathie, Imitation.

الإيحاء :

من طبيعة الإنسان أن يقبل أفكار غيره ، ويصدق بها ، وليس العكس . فإذا رويت قصة لأحد أصدقائك فإنه يصدّقها ، ولا يشك فيها إلا إذا استبان مآخذ تؤخذ عليها . والإنسان قليلا ما يُعمِل فكره فى الآراء التى تقدم إليه ، أو يقابلها بعضها ببعض ، هل هى صادقة أم كاذبة ، صحيحة أم خاطئة ؟ وهو أكثر تأثراً بالآراء الشائعة ، والعرف السائد . فاستعداد المرء للتأثير والتأثر بالأفكار والمعتقدات هو ما يسمى بالإيحاء . وقد يكون الإيحاء مقصوداً ، وقد نتأثر به عفواً .

يتفاوت الناس فى قبولهم للإيحاء حسب قوة إرادتهم وتفكيرهم ، وحسب شخصية صاحب الإيحاء . فإذا فطن الإنسان إلى التأثير الواقع عليه فإنه يعارض فى ذلك ، ولكنه بالرغم من هذه المعارضة قد ينتهى به الأمر إلى قبول الفكرة .

ويكون الإيحاء قوياً إذا كان صادراً عن شخصية كبيرة بالنسبة إلى من يُوحَى إليهم كالملك والرعية ، والزعيم والشعب ، والرئيس والمرؤوس ، والمدرس والطلاب . وترجع قوة الشخصية إلى الثروة أو الجاه ، أو اللقب أو المركز أو العلم .... إلى غير ذلك من الصناعات التى تضاف إلى الناس . ويجب أن يتوفر فى المُوحِى الإيمان والثقة ، ولذا قيل إن الإيمان بالنجاح نصف النجاح . ويجب أن يصحب الإيمان بالشىء الأمر به ، مصوغاً فى صيغة الجزم . وللتكرار أثر كبير فى قبول الإيحاء ، لأن تكرار الأشياء يسهلها حتى فى الأمور العقلية ، ومن هنا كان الإعلان فى حاجة إلى التكرار المستمر . وخضوع الإنسان للمعتقدات أثر من آثار الإيحاء .

والإيحاء العكسى هو الذى ينتج عكس المقصود . فقد يريد البائع أن يوحى إلى المشترى فكرة جودة البضائع ، فيغالى فى مدحها ، فيزهد المشترى فيها .

المشاركة الوجدانية أو التعاطف :

هى انتقال الانفعالات والعواطف من شخص إلى آخر . وهى نزعة فطرية موجودة عند الطفل والحيوان الراقى . فالطفل يصيح إذا وجد غيره يصيح . والقردة تفرح وتتألم فرحا وألماً مشتركين . وينتقل الانفعال من شخص إلى آخر كالعدوى . فإذا وجدت شخصا خائفا ، فإنك تخاف أيضا دون سبب ؛ هذا التعاطف هو أساس العزاء عند الموت ، والتهنئة عند الفرح . والمشاركة الوجدانية إذا شاعت فى المجتمع أدت إلى وحدته . وارتباط الأمة هو نتيجة اشتراك أفرادها فى آمال أو آلام واحدة . والمشاركة الوجدانية أساس كثير من أفعال البر ، فقد ينكب بلد بالزلازل أو العواصف ، فيسرع الناس من جميع الجهات إلى مساعدة أهله ، كما لو أن الكارثة حلت بهم .

التقليد :

إذا اجتمع عدد من الطير فوق شجرة فيكفى أن يطير أحدها حتى يطير الجميع ، وإذا عوى كلب عوت باقى الكلاب ، وإذا جرى طفل جرت جميع الصبية دون أن يعلموا لماذا يركضون . ومن المناظر المألوفة أن تجد الطفل الصغير يتناول العصا ويمشى بها كما يفعل أبوه . فهناك نزعة عند الإنسان تدفعه إلى تقليد حركات الغير وإشاراته ولفتاته وأصواته وأعماله . ومن غرائب المحاكاة التى لم يعرف تعليلها على وجه التحقيق حتى الآن التثاؤب .

ووظيفة التقليد عظيمة الأهمية ، إذ بها تكتسب بداية الأعمال الجديدة . وإذا كان الإنسان سلسلة من العادات ، فمبدأ العادة غالباً يكون منشؤه محاكاة الغير . فالطفل حينما يتعلم الكلام أو الكتابة يكتسبهما عن طريق المحاكاة .

ويعلل بعض العلماء ميل الإنسان إلى التقليد بأنه يسعى إلى الحصول على مدح الغير . ومن ذلك أن الطفل يقلد المحيطين به ليحصل على تقدير الناس له . وليس هذا التفسير صحيحاً على الإطلاق ، بل يرجع التقليد إلى طبيعة الانقياد ، إذ أن الإنسان يحاول دائماً تقليد من هو أعظم منه شخصية . وهناك تعليل آخر يقوم على قانون الاقتصاد فى الجهد ، ومن مظهر هذا الاقتصاد عدم التفكير ، فيكتفى الإنسان بأن غيره قد سبقه إلى التفكير فى الرأى ليأخذ هو خلاصته ، فإذا كان صاحب الرأى أو العمل ذا قيمة ، كان هـذا أدعى لقبولها ، وإذا اعتنقت الجماعة فكرة أو عملاً كان هذا سبباً لاعتناقهما .

الفصل السادس

العـادة

كل شخص عندما يصحو من النوم ، يستيقظ فى الغالب فى ساعة محدودة خاصة ، حتى إن الطالب الذى تعوّد الذهاب إلى المدرسة فى الصباح مبكراً ، يجد نفسه يستيقظ يوم الجمعة — وهو يوم عطلة — فى نفس اللحظة التى يستيقظ فيها كل يوم . ثم ينهض من الفراش و يغتسل ، و يتناول طعام الإفطار ، ثم يرتدى ملابسه . كل هذه الأعمال يؤديها الشخص كل يوم بالترتيب السابق . بل أكثر من هذا ، هل لاحظت نفسك وأنت تلبس « الجاكتة » أى كُمّ تضع فيه ذراعك أولاً ، الأيمن أم الأيسر ؟ إذا لاحظت نفسك تجد أنك ، إذا كنت تلبس بذراعك اليمنى ، فأنت تلبس كذلك دائماً ، لا تغير هـذه الطريقة ، حتى إنك إذا شئت يوماً أن تخالف هذا الترتيب والنظام ، فإنك تجد من الصعوبة والعناء الشىء الكثير . ويذهب الموظف إلى محل عمله كل يوم ، و يسلك لذلك شوارع معينة ، حتى إذا وصل إلى مفترق الطرق ، انعطف إلى اليمين مثلاً . فإذا خرج يوماً متجهاً إلى غير محل عمله ، ووصل إلى مفترق الطرق ، انعطف إلى اليمين ، بينما يريد أن يتجه إلى الشمال . هذا السلوك هو نتيجة العادة .

فالأعمال التى تجرى بنظام خاص ، وتتبع فى أدائها طريقاً لا تتغير ، تسمى الأعمال العادية .

ما هى العادة ؟

العادة ميل مكتسب إلى أداء عمل من الأعمال بشكل آلى ، مثل الكتابة ، وركوب الدراجة ، والتدخين .... ألخ .

وهى نتيجة التعلم والكسب .

وتمتاز بأن استمرار الإنسان على أدائها ، يصل بالعمل إلى الكمال والدقة .

وتمتاز أيضاً بقلة الانتباه ، ومعنى ذلك هو انتقال العمل من بؤرة الشعور إلى هامش الشعور . فسائق السيارة ، الذى يتعلم قيادتها ، تكون حركاته غير سديدة ، ويفكر منتبهاً إلى كل حركة يريد أن يؤديها . فإذا تعلم القيادة ، فإنه يحرك يديه وقدميه دون أن يشعر ، ودون انتباه ، كأنه آلة تتحرك . وتجد لاعب « البيانو » ، الذى تعود العزف على هذه الآلة ، يمر ببنانه على أصابع المعزف فيخرج النغم الذى يريد ، دون أن ينتبه إلى أصابعه أو إلى أصابع المعزف .

ويقصر بعض العلماء العادة على تعلم الحركة ، فيخرجونها بذلك من ميدان الإدراك والوجدان . وبذلك تصبح العادة ظاهرة عضلية ، وتفسر العادة على هذا الأساس بأن تكرار الحركة يجعل العضلات المتصلة بهذه الحركات أكثر قبولا لتأديتها . وتمتاز العادة عن الذاكرة باعتبار أن الذاكرة ظاهرة تتصل بالمخ . ونستطيع أن نقول إن العادة ذاكرة حركية Mémoire motrice (١) .

وتتدرج هذه العادات الحركية من البساطة إلى التعقيد . فأبسط هذه العادات ما يكون فى الأصل أفعالا منعكسة ، مثل بعض حركات اليد ولفتات الوجه ؛ ومنها ماهو أكثر تعقيداً كالأعمال التى نؤديها كل يوم ، مثل طريقة اللبس والأكل وصعود الدرج ... ألخ . وأكثر من هذه الأعمال تعقيداً ما يحتاج

---

(١) Nouv. Traité de Psych. Vol. IV P. 70, par Piéron.

إلى تدريب خاص ، كقيادة السيارات والعزف على الآلات الموسيقية .

ولكن أغلب العلماء قد اصطلحوا على إطلاق العادة أيضاً على الأعمال العقلية والوجدانية . وحينئذ تشمل العادة الظواهر النفسية بجميع وجوهها من إدراك ووجدان ونزوع .

والعادات العقلية هى الميل النفسانى إلى سلوك نظام ثابت فى بعض الإنتاج العقلى ، مثل استعمال قواعد النحو والصرف ، أو طريقة جدول الضرب ، أو اتباع أسلوب خاص فى التفكير . وهذا هو الذى يجعلنا نميز الكتاب المختلفين من قراءة أساليبهم .

والعادات الوجدانية هى تلك التى تتصل بالانفعالات والعواطف ، مثل حب الحقيقة والفضيلة والجمال .

تكوين العادة :

لابد من أساس ترتكز عليه الأعمال العادية التى نكتسبها بالتدريب . والأساس الأكبر هو الغرائز ، أى هذه الميول الفطرية ، فالمشى ميل فطرى ، ولكن طريقة المشى عادة . فالعادات امتداد للغرائز . وللإيحاء والمحاكاة أثر كبير فى توجيه العادات ، ثم يرتكز الإنسان على العمل الذى يؤديه أول مرة ، ويكرره مرة فأخرى حتى تتكون العادة . فالتكرار هو العامل الأساسى البارز فى بناء العادة ، ولكنه ليس العامل الوحيد ، لأن العادة ليست عملا آليا فحسب ، بل هى مع ذلك « ميل » إلى أداء هذا العمل الآلى .

فكيف نصل إلى إيجاد هذا الميل من جهة ، وهذه الآلية من جهة أخرى ؟ يصحب تكرار العمل حذف الحركات الطائشة ، التى لا لزوم لها ، والتى

بالتخلص منها يصبح العمل أكثر دقة وكمالاً وسهولة . هذه السهولة تنشأ من أن التيار العصبى يتجه فى الخلايا العصبية الحركية ، عابراً « الوصل » التى تضعف مقاومتها للتيارات التى تتوالى من نوع واحد ، فيسهل بذلك تكرار العمل [1] . وتصدر الأعمال من مناطق الحركة فى المخ ، ثم تمر فى أعصاب الحركة إلى النخاع المستطيل ، ومنه إلى الشق الجانبى الأمامى من الحبل الشوكى الذى تخرج منه الأعصاب الأمامية المحركة . و إذا أصيبت إحدى هـذه المراكز أدت إلى توقف بعض الحركات .

ومن العادات ما تجد فى نفسك ميلاً إلى عملها ، و إذا ما جاء وقتها ولم تتم ، تشعر بنوع من الألم ، مثل عادة التدخين ، أو عادة الشخص الذى ألف أن يذهب إلى المقهى يمضى فيه طول الليل . ومن الأعمال ما لا تجد فى نفسك ميلاً إلى أدائها إلا إذا دُفعت إلى ذلك ، و إذا ماحان وقت عملها لا تتألم ، فما هو السبب فى هذا ؟ إذا كانت نتيجة العمل ارتياحاً ولذة ، أصبح العمل من النوع الأول ، والعكس يكون فى العمل الثانى . فالشخص الذى يجد فى اختلافه إلى المقهى يمضى فيه وقته لذة وارتياحاً ، إذا ما جاء وقت الذهاب إليها ، شعر فى نفسه بميل يدفعه إلى الذهاب ، و إذا لم يذهب تألم . بينما المريض الذى يتنـاول الدواء المر كل يوم ، إذا ما شفى لا يتعوده لأنه لا يرتاح إليه .

فائدة العادة :

١ — توفير الوقت والمجهود

لانزاع أن العمل العادى يكون أسرع من غيره ، و بذلك يوفر الإنسان وقتاً

---

(١) راجع صفحة ٣٥ .

لا يستهان به . فالطالب ينهض من النوم ويذهب إلى المدرسة فى نصف ساعة لا أكثر ، والشخص الذى تعود أن يكتب على الآلة الكاتبة لا يستغرق وقتاً طويلاً ، أما المبتدىء فإنه شديد البطء . ولو أنك فكرت فى كل جزء من أجزاء أعمالك ، كيف تلبس وكيف تتناول طعامك ، وكيف تختار الطريق إلى محل عملك ، لصرفت فى كل ذلك ما يزيد أضعافاً فى الوقت .

والأعمال العادية نرددها دون تعب ، والعمل الجديد هو الذى يتعبنا . فالحصان المتعود جرّ المحراث فى الحقل يتعب إذا جر العجلات فى الطرق ، بينما المتعود جر العجلات فى الطرق يتعب من الحرث . والكاتب يجلس إلى مكتبه يخط ساعات متواليات دون نصب ، بينما الفلاح الذى يضرب بفأسه الأرض من الصباح إلى المساء ، يتولاه الجهد والإعياء إذا ما تناول القلم وزاول الكتابة نصف ساعة فقط . وأهل الراحة والكسل والبطالة لا يتعبون من الجلوس الليل بأكمله ، بينما الطفل أو الرجل النشيط الذى تعود الحركة والحرية يسأم من الجلوس ساعة واحدة .

والعادة توفر الجهد العقلى أيضاً ، فهى التى تمنع من التردد فى تصريف الأعمال. فأنت فى حيرة هل تحضر الدرس ، أو تذهب إلى دار الخيالة ، أو تختلف إلى المقهى ؟ هل تتبع هذه الطريق أم تلك ؟ هل تساعد الضعفاء وتعطف عليهم أم لا ؟ ... الخ ، ولكنك بالعادة تختط لنفسك الطريق التى تتبعها دون تردد .

٢ — اكتساب المهارة والإتقان .

ذلك أن العمل العادى يصبح آلياً ، ومعنى ذلك أن المراكز العصبية تبعث على السلوك دون انتباه أو تفكير أو تردد . فجميع الأعمال العادية تصبح أسهل فى أدائها ، وأتقن فى تنفيذها .

وينشأ الإتقان من أن كل عمل مكون من عدة عناصر ، فالسباحة مثلاً ليست عملية واحدة ، ولكنها مركبة من عدة عمليات من مجموعها تتكون العادة ، وهذه العناصر هي : استعمال يدك اليمنى واليسرى ، وموضع جسمك من الماء ، وكيفية التنفس .. .. ألخ ، فالعادة إن هي إلا إتقان هذه العناصر المتعددة الواحد بعد الآخر ، مع حذف الأخطاء والحركات الطائشة ، وبذا يصبح مجموع العمل آلياً أي أسهل وأتقن . ولولا العادة ما استطعنا في الكتابة مثلاً أن نكتب في هذه السهولة وهذا الإتقان ، بل كنا أشبه بالأطفال في تحسسهم وتعثرهم ، وليس هذا مقصوراً على العادات الحركية فحسب ، بل على العادات العقلية أيضاً . فالتفكير ، وأسلوب الكلام ، وتعلم الحساب ، لا يتقن كل ذلك إلا بالعادة . فأنت في الحديث والكتابة تحفظ جملاً بأكملها وترددها دائماً . وفي الحساب تقول ٥ × ٦ = ٣٠ نتيجة العادة .

٣ — العادة وتكوين الشخصية :

شخصية المرء الواضحة المتميزة القوية ، إنما تكون كذلك ، لأن الشخص يضع نصب عينيه غرضاً — سامياً كان أم وضيعا — ثم يتوجه إلى هذا الغرض الواحد المحدود بكلّية نفسه ، فينتهج كل السبل التي توصل إليه . والوصول إلى ذلك الغرض يتطلب الإلحاح والمثابرة ، والتوافر على العمل المتواصل حتى يتم ، فإذا تردد في أدائه متخذاً إلى ذلك سبلا متعددة متضاربة ، لم يصل إلى غرضه ، بل يصبح قلقاً مذبذباً . وإذا لم يصبح العمل الذى تقوم به وتردده عادة ، فإنك لن تعمل شيئاً واحداً مرتين بشكل واحد ، وعلى ذلك تصبح لك شخصية جديدة في كل لحظة . وفي هذه الحال لن تعرف نفسك ، ولن يعرفك الناس . فالأعمال التي تكسونا رداء الشخصية هي الأعمال العادية . هذه الأعمال التي

تصدر عنا دون عناية أو انتباه ، هى خير دليل على أخلاقنا وشخصيتنا ، فتستطيع أن تعرف شخصاً من مشيته ، من أسلوبه الكتابى ، من نبرات صوته . . ألخ .

وقد عرف رجال الشرطة هذه الحقيقة ، أى انطباع شخصية المرء بطابع الأعمال العادية ، فأصبح من السهل لديهم الآن أن يبحثوا وراء المجرمين ، ويصلوا إلى القبض عليهم . فهناك لص متعود سرقة الحلى ، وآخر يسرق الماشية ، وثالث ينشل الجيوب ... ألخ ، وكل منهم متعود هذا النوع من السرقة لا يعدوه ، ولا يفكر فى غيره ، بل يرتب سرقته بشكل واحد مخصوص ، يكون عنواناً عليه ، ودليلا على ارتكابه هذا الجرم .

ومن ناحية أخرى أدرك المجرمون الفطنون هذه الحقيقة أيضاً ، فأصبحوا يغيّرون الطرق التى يتبعونها فى ارتكاب جرائمهم ، ويتخلصون من عاداتهم المتسقة المقيدة ، حتى لا يكتشف رجال الشرطة أمرهم فيقتفوا آثارهم .

ضرر العادة :

تمر العادة فى دورين : دور التكوين ودور الثبات (١) . ودور التكوين سلسلة من التغييرات تصيب أجزاء العمل فى أثناء مرات التكرار ، حيث يتخلص صاحب العادة فى هذا الدور من الحركات الطائشة والزائدة ليصل بالعمل إلى الإتقان والكمال .

أما فى دور الثبات ، فإن العادة تصل إلى درجة تقف عندها ، ولا يتقدم بها الإنسان . والسر فى ذلك أن هناك « لحظة اتزان » (٢) بين حاجة الشخص ورغبته ، وبين الوسط الذى يعيش فيه . مثال ذلك : إنك تريد أن تتعلم الكتابة ،

(١) Phase de formation et phase d'état.

(٢) État d'équilibre.

لأن البيئة تتطلب أن تكون متعلماً إياها ، ولكن ينبغى أن يضاف إلى ذلك أن تكتب بطريقة « مقروءة » مما يتطلب أن يكون رسم الحروف على شيء من الجمال ، لذلك تظل « تتعلم » حتى تصل إلى هذه الدرجة من جمال الخط ، وسرعة الكتابة ، وفى هذه الحالة يتم « الاتزان » بين رغبتك الداخلية والبيئة الخارجية ، فتقف عند ذلك الحد ، وتكتفى بذلك دون محاولة التقدم ، أو تغيير هذه العادة التى تكونت .

ولكن هل حالة الثبات فى العادات تظل جامدة لا يتناولها أى تغيير ؟

الواقع أن التكرار المتواصل يضيف تغييراً ولو طفيفاً على شكل العادة ، خصوصاً إذا صحب التكرار قليل من الانتباه والشعور والشوق(١) .

وإلى جانب ذلك نجد بعض العادات تصل فى حالة الثبات إلى درجة من الجمود ، حتى لتنزل منزلة الطبع ، ولذا قيل « العادة طبيعة ثانية » وكثيراً ما يحاول صاحب العادة أن يعدّلها ، ولكنه لا يستطيع ، لأن العادة تمكنت من نفسه وطبعت جهازه العصبى بطابع عميق . كصاحب الخط الردئ الذى يجهد فلا يستطيع تحسينه .

أما الأسباب التى تدفع الإنسان إلى تغيير عاداته ، فمرجعها إلى ملاءمة نفسه بالبيئة . فالوسط الذى نعيش فيه دائم التطور والتغيير ، وهناك ظروف تضطر المرء أن يتلاءم وإياها . وإليك ظاهرة شاهدها المصريون أخيراً تدل دلالة واضحة على مقدار ثبات العادة وصعوبة تعديلها والتخلص منها ، وضرر العادات المتأصلة تبعاً لذلك :

ارتفع ثمن القطن المصرى بعد الحرب العظمى مباشرة ، وأثرى أهل الريف

---

(١) Psych. par Guillaume P. 187.

ثراء كبيراً ، وقدم كثير من أعيان القرى إلى المدن كالقاهرة ، و بنوا فيها الدور ، واقتنوا السيارات ، وأحاطوا أنفسهم بالخدم ، وعاشوا معيشة الرفاهيــة زمناً ، ثم انخفضت أسعار القطن انخفاضاً كبيراً ، وأصبحت ثروة الفلاح لا تسمح له بالمعيشة فى المدن على ذلك النحو من الترف . فحالة « الاتزان » تقضى أن يخفض هؤلاء القوم من نفقاتهم بحيث تلائم المعيشة الجديدة الثروة التى يحصلون عليها . فهل فعلوا ؟ أو هل استطاعوا أن يفعلوا ؟ .

كثير منهم ظل يجرى على عاداته السابقة ، مستعيناً على قضاء حاجاته بالاقتراض ، حتى ركب أغلبهم الدين . وفى هذا الدليلُ على صعوبة التخلص من العادة ، وعلى ضرر العادة السيئة إذا لم نتخلص منها .

تكوين العادات الجديدة :

لا بد للإنسان من اصطناع العادات لأنه لا يمكن أن يعيش بغير ذلك . فالإنسان سلسلة من العادات تمشى على قدمين . وكثيراً ما تعترض الإنسان فى حياته أمور يود أن يتعلمها و يتعودها ، كتعلم اللغات الأجنبية ، أو الصناعات المختلفة ، أو الآلات الموسيقية ، أو الألعاب الرياضية . وهناك بعض القواعد تؤدى إلى سهولة بناء العادة نجملها فيما يلى : —

١ — فكر قبل أن تبدأ :

كل عمل إنسانى فى بداية أمره يقوم على فكرة ، ولا نستطيع أن نتصور كيف يفعل الإنسان أمراً دون أن يفكر فيه أولاً ، إلا إذا كان مسوقاً أو مأموراً سواء بطبيعة غرائزه الفطرية ، أم بسلطان الإيحاء الخارجى . فإذا كنت جالساً وتعبت من الجلوس ، فإنك تفكر فى القيام أولاً ثم تقوم بالفعل . وهذا هو النظام

الطبيعى للأشياء ، إذ ليس من المعقول أن تكتب رسالة لصديق ثم تفكر فى كتابتها بعد كتابتها . وكلما اقتنع الإنسان بفكرة وبحثها من جميع نواحيها ، وأدرك فائدتها وصوابها ، ونزلت من نفسه منزلة العقيدة ، كانت باعثاً قوياً يدفع الإنسان إلى القيام بتنفيذها .

٢ — ابدأ بقوة شديدة وعزيمة قوية .

وسبب هذا أنك تريد بناء طبيعة جديدة تحتاج فى مبدأ الأمر إلى كثير من العناء فى تكوينها . وكثيراً ما يتعثر ويتألم كل من يتعلم عملا جديداً ، فيكون الألم باعثاً على الصدوف عن العمل ، لذلك ينبغى أن تكون العزيمة التى تبدأ بها شديدة قوية حتى تحملك على جناحها زمناً طويلاً ، تتكون فى خلاله العادة .

٣ — لا تتمهل ولا تسوف .

متى اقتنعت بصحة الفكرة وعزمت عليها فتوكل ، ولا تؤجل عمل اليوم إلى غد ، إذ أن هذا الإمهال والتسويف يضعفان من حدة العزيمة الأولى التى ستبدأ بها فلا تجد بعد ذلك دافعاً قوياً يحملك على تكوين العادة .

٤ — احذر الشذوذ ولو مرة واحدة .

إذا وصلت إلى تكوين العادة الجديدة ، فإنه ينبغى أن تسير عليها دون أن تشذ عن النظام الذى تتبعه ولو مرة واحدة ، لأن هذه المرة الواحدة التى تستثنيها من نظام العادة تهدم جزءاً كبيراً مما تعبت فى بنائه . فإذا كنت تتعلم الموسيقى فتقول فى نفسك « لأهملن هذا اليوم » فيكون هـذا الإهمال هو السبب فى هدم العادة وزلزلتها ، إذ تكون العادة فى طفولتها وضعفها .

٥ — اعمل يومياً عملاً حسناً .

وفائدة هذا هو تمرين الإرادة حتى تصبح قوية ، فتستطيع بإرادتك أن تبنى

ما تشاء من عادات ، فعليك أن تقوم بأداء بعض التمرينات الرياضية ربع ساعة كل صباح ، أو أن تقرأ فى كتاب مفيد كل يوم ساعة معينة . يحكى أن «كانت» الفيلسوف الألمانى كان يخرج من منزله كل يوم بعد الأصيل فى ساعة معينة للتريض ، حتى إن كل من عرفه كان يضبط ساعته وقت خروجه ، وذلك لدقته الشديدة .

الإقلاع عن العادات السيئة :

هذه القواعد التى ذكرناها فيما يختص بتكوين العادات الحسنة ، تستطيع أن تستفيد منها حينما تريد أن تتخلص من العادات السيئة .

وليس مجالنا بيان العادات الحسنة والقبيحة ، فمرجع هذا هو علم الأخلاق . وهناك بعض العادات اتفق الناس جميعاً على ضررها كشرب الخمر ولعب الميسر والتدخين . وسنذكر بعض القواعد التى تستطيع أن تستعين بها على الإقلاع عن العادات التى تعتقد أنها ضارة .

١ — استبدال عادة بأخرى .

لما كان الإنسان عبارة عن سلسلة من العادات ، فمعنى ذلك أن أعماله جميعاً أو أغلبها نتيجة العادة . فإذا أقلعت عن عادة من العادات أصبح مكانها شاغراً ينادبك دائماً بملئه بعادة جديدة . فإذا لم تسرع بملء « خانة » العادة القديمة لم تجد بداً من الاستمرار عليها . فإذا شئت أن تقلع عن التدخين فاستبدل بها عادة أخرى من نوعها تكون مفيدة ، كأكل الحلوى كلما شئت أن تدخن ، فتشغل بذلك يدك وفمك بعمل آخر .

٢ — اجعل نتيجة العمل ألمًا .

ذلك أن نتيجة العمل إذا كانت ألمًا لا يميل الشخص إلى القيام به وترديده، ولو أن العمل يصبح أسهل وأكثر إتقانًا .

٣ — تجنب ما يذكرك بالعمل .

لكي تقطع الصلة بتاتًا بالعادة القديمة ، ينبغي أن تبعد عن جميع الظروف المحيطة بهذا العمل التي تؤدي إلى توجيه نظرك إليه وتذكيرك به ، ودفعك إلى القيام به . خذ مثل السكير الذي يشرب الخمر ويريد أن يقلع عنها ، ينبغي أن يتجنب مخالطة إخوانه الذين كان يحضر معهم مجالس الشراب ، لأن وجوده وإياهم يذكره بما تعوده .

الفصل السابع

الحيـاة الوجدانية

الألم واللذة [1]

كل ظاهرة نفسية تتحلل إلى ثلاثة وجوه : الإدراك والوجدان والنزوع . وقد درسنا من الظواهر النفسية طائفة من النزعات الإنسانية ، بعضها فطرى و بعضها مكتسب ، هذه النزعات هى أساس السلوك عند الإنسان . ويصحب الميل إلى العمل حالة وجدانية ، إما أن تكون عامة هى الألم واللذة ، و إما أن تكون خاصة هى الانفعالات المختلفة ، مثل الفرح والحزن والغضب والخوف والخجل والدهشة . هذه الانفعالات تتعقد وتتركب فتسمى عواطف . وسندرس هذه الحالات الوجدانية على الترتيب ، مبتدئين بالألم واللذة ، ثم بالانفعالات والعواطف .

والألم واللذة اصطلاحان أوليان لا يمكن تعريفهما بغيرهما ، أو تحليلهما إلى عناصر أكثر بساطة ، لأنهما حالتان شخصيتان نشعر بهما كما هما .

وهناك لذة وألم ماديان ، ولذة وألم نفسيان . فالنوع الأول يرجع إلى إحساسات جسمية ، ويكون مصدر اللذة أو الألم محدوداً معروفاً ، كالألم من جرح أو حرق ، واللذة من مذاق طعام . وقد يشيع الألم أو اللذة بحيث لا يعرف مصدرهما فتوصف الحالة الوجدانية بالارتياح أو عدم الارتياح . أما النوع الثانى فهو الألم واللذة النفسيان ، كالارتياح الذى يصيب الإنسان عقب النجاح فى

La douleur et le plaisir. (١)

مشروع أو الحصول على مرغوب ، أو كالألم الذى يقترن بفقد عزيز أو تأنيب الضمير . وهنا يقترب الألم واللذة من الانفعال بحيث يصعب التمييز بدقة بين الفريقين .

وتمتاز اللذة والألم بالتقلب المستمر ، بينما الناحية الإدراكية من الأشياء تكون ثابتة إلى حد كبير . فإدراكنا للتفاحة فى شكلها وحجمها ورائحتها ومظهرها الخارجى هو هو لا يتغير ، ولكنك قد ترتاح إلى تذوقها مرة ولا ترتاح مرة أخرى .

ويتأثر الألم واللذة تأثراً نسبياً بالحالات الجسمية والعقلية التى يتوقفان عليها . فالمتصوف الدينى يجد فى الألم لذة ، والجندى لا يشعر بجراحه فى ساحة الحرب كما يشعر بها وهو منقول إلى المستشفى . فالموازنة بين اللذة والألم تلعب دوراً هاما فى الحياة الوجدانية ، وكثير من اللذات والآلام لا توجد إلا بالنسبة لحالات سابقة عليها ، فلذة النجاح تتناسب مع صعوبة الأمل المطلوب .

وتضعف اللذة عندما تذهب جدّة الأمر الذى يبعثها ، إذ يحدث إشباع لحاجة النفس ، كما لو كان الإنسان جائعاً وأكل . فالأشياء التى تتكرر أمام الإنسان تنتهى به إلى أن يتعودها ، فيقف منها موقفاً فيه كثير من عدم الاهتمام . أما الألم فقد يزداد باستمراره .

الانفعالات(١)

الانفعال هو حالة نفسية وجدانية يصحبها اضطراب نفسانى وجسمانى . فإذا كنت جالساً تقرأ فى جريدة ، ثم وقع بصرك على نعى وفاة صديق لك ، فإنك تنفعل انفعال الحزن . وإذا دخلت منزلك كالعادة فوجدت لصًّا يهجم عليك ، مهدداً إياك بسكين حادة تلمع فى يده ، فإنك تنفعل انفعال الخوف . وإذا كنت

---

(١) Emotions.

متدثراً برداء جديد تختال به ، ثم تنزلق قدمك فيتسخ رداؤك ويتمزق ، فإنك تنفعل انفعال الغضب أو الخجل ... فما هو السبب فى هذه الانفعالات .

تجرى حياة الشخص فى سلسلة من الميول والعادات ، يتطبع بها ويوطن النفس عليها . فإذا حدث ما يخالف نظام التفكير العادى ، فانه يصطدم بشىء جديد غير منتظر مخالف للعادة ، فتحدث « صدمة نفسية »[1] هى التى تسبب اضطراب العقل والجسم .

ويأتى الانفعال فجأة دون تمهيد ، كالسيارة التى تجرى على الأرض الممهدة السهلة ، ثم تصطدم فجأة بجدار أو شجرة أو أى شىء آخر ، فتضطرب وتهتز . فتفكيرك العادى الذى يجرى مجراه الطبيعى ، هو أن صديقك حى يرزق ، ثم تقرأ الجريدة تطلع فيها على الأخبار ، فإذا بك تفاجأ بنبأ وفاته على غير انتظار ، فتحصل هذه الصدمة النفسية التى نسميها الانفعال . وكلما كانت العادات التى يعارضها الأمر الجديد متمكنة من صاحبها ، قديمة التكوين ، كان الانفعال أقوى وأشد .

ولابد من وجود مؤثر خارجى يؤدى إلى الانفعال ، الذى يتوقف على إدراك الشخص للمؤثر . فإذا أدرك أحد الناس « نكتة » فى حديث ضحك ، وإذا لم يدركها لم يضحك . فالمؤثر فى الأمثلة السابقة هو : نبأ الموت أو هو اللص الذى يهجم عليك ، أو هو الانزلاق والوقوع . ولا ينبغى أن يكون المؤثر شيئاً مادياً ، فقد يكون ماتتذكره أو ما تتخيله ؛ فالأم حين تتذكر موت ابنها تنفعل انفعال الحزن وتبكى ، وإذا تخيل شخص أنه راكب طيارة ووقعت بهفإنه يخاف .

---

(١) Choc.

أثر الانفعال فى العقل :

إذا حللنا الحالة العقلية وقت الإنفعال نجد أن الانتباه بعد أن يكون هادئاً عادياً بحيث يدرك الإنسان أغلب ما يمر به من حوادث ، يتركز فى مصدر الانفعال فقط وينصرف عن كل ما عدا ذلك . ويتوقف تركز الانتباه على حدّة الانفعال ، لذلك لايدرك الشخص الأشياء التى تحيط به ، كأنها غير موجودة . كذلك تنقطع سلسلة تداعى المعانى ، وتتجه الخواطر فى طريق جديد أساسه مصدر الانفعال . فالتاجر الذى تتسلسل الأفكار فى ذهنه ويدور محورها على هذا النسق : البضاعة ، وأنواعها ، وثمنها ، والعملاء ، والديون التى له والتى عليه ... ألخ ، إذا سرق لص حافظة نقوده انقطعت سلسلة تفكيره الأولى وبدأ يفكر فى اللص ، وكيف يمسك به وكيف يعاقبه ، وكيف وقعت السرقة ، وماذا يعمل إذا لم يعثر على الحافظة ... ألخ

وقد يزداد النشاط العقلى وقت الانفعال ، فتزداد حدة الخيال ، ويهبط على الإنسان نوع من الإلهام يبتدع به الأمور الجديدة ، بعد أن يكون العقل جدباً . والانفعال يبعث على اختراع الأفكار الجديدة ، فالغيرة بين الطلبة فى المدرسة دافع إلى إحرازهم السبق فى العلوم .

وقد يؤدى الانفعال إلى شل حركة الفكر والعمل ، بحيث يضطرب التفكير ، ويرتبك الشخص حتى يعسر عليه فهم الموقف المحيط به ، ولا يدرى ماذا يقول أو يفعل ، وقد يصل به الأمر إلى حد البلاهة .

ومهما يكن من شىء فإن الإنسان فى ساعة الانفعال يفقد قوة ضبط النفس ، فتصدر الأعمال لا عن روية وتفكير وعزيمة ، بل عن نزوة واندفاع ، لأن الإنسان لا يكون له سلطان على نفسه . وإذا كان حقاً أن التفكير قد يعمق ، والخيال قد ينشط ، فهو تفكير يطغى على صاحبه ، فلا يستطيع أن يوجهه كما يريد . وهذا

الاضطراب العقلى مدعاة إلى فقـدان قوة الحكم والنقد ، فيصبح الإنسان عرضة للاستهواء وسهولة التصديق .

وكثيراً ما يكشف الانفعال قناع العادات المكتسبة والآداب المتبعة ، فتبرز سريرة الشخص خالصة من غشاء التقاليد ورداء العـادات ، حتى ليرجع الإنسان إلى الحالة الحيوانية أو يتصرف تصرف الطفل .

أثر الانفعال فى الجسم :

يصحب الانفعال تغيير فى مظاهر الجسم الباطنة والظاهرة .

والأثر الباطنى للانفعال يتناول جميع أجهزة الجسم ، كالجهاز الدموى والتنفسى والهضمى ، والغدد . وسنقصر بحثنا على دراسة الخوف .

فى حالة الخوف تزداد ضربات القلب أو تضعف ، والغـالب فى ذلك هو ازدياد ضربات القلب ، ويصحب ذلك انقباض الأوعية الدموية فينحبس الدم عن سطح الجلد .

أما التنفس فيضطرب فى نظامه وعمقه ، ويبذل الإنسان جهداً فى الشهيق والزفير ؛ وقد أجرى العلماء تجارب عدة على الإنسان فى الحالات المختلفة من الانفعال ، وسجلوا رسوماً بيانية تبين الصفة التى يكون عليها التنفس .

ويحصل فى الجهاز الهضمى توقف حركة المرىء والمعدة والأمعـاء الموجية ، كذلك يتوقف إفراز اللعاب ، ولذا يشعر الإنســان بجفاف فى الفم ، وتتوقف إفرازات المعدة ، ويفقد الإنسان الشهية ، وتشل العضلات القابضة ، فينتج عن ذلك تساقط البول ، وهذا أثر لشلل عضلة المثانة القابضة .

أما الغدد فقد يقف إفرازها ، كالغدد اللعابية ، أو تنشط بعض الإفرازات

مثل الدموع ، والصفراء ، والبول ، والعرق البارد . ويفرز «الأدرنيالين» بكميات قليلة فى الدم ، وهو مادة تفرز من الغدد الموجودة فوق الكلى فتهيج كثيراً من الوظائف الباطنية فى الجسم ، مثل ازدياد الكريات الحمراء والبيضاء فى الدم ، وقد ثبت ذلك من التجارب التى أجريت على الجرذان ، ثم يتأثر الكبد فيخرج إلى الدم كمية عظيمة من السكر الحيوانى المخزون به ، وقد تزداد كمية السكر فى الدم إلى حد أن ينصرف إلى البول ، وقد شوهدت هذه الحالة فى بعض لاعبى كرة القدم قبيل إقدامهم على المباراة ، وفى بعض الطلاب قبل الامتحان . وقد يؤدى الخوف الشديد ، أو الرعب المستمر ، إلى الهرم المبكر ، ويصحب ذلك المشيب .

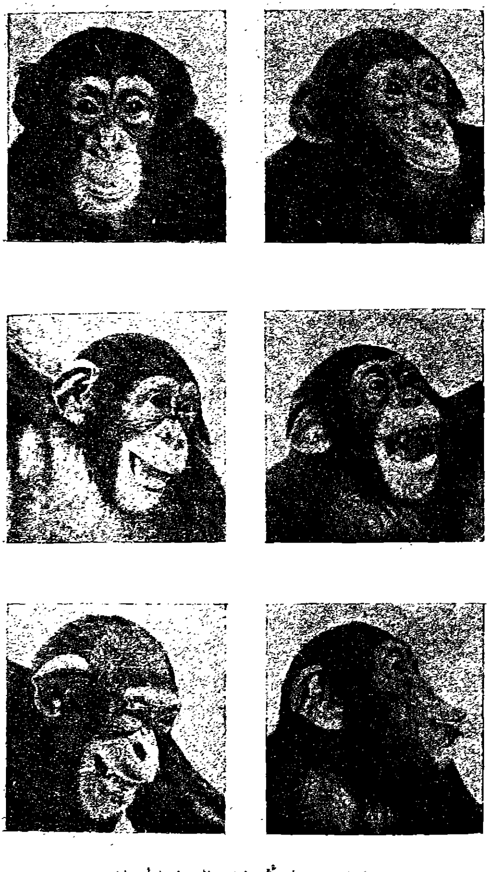
ويصحب الخوف تأثر الجهاز العضلى تأثيراً يؤدى إلى انعدام السيطرة الإرادية ، فينتج عن ذلك الرعشة ، وشلل الأرجل .



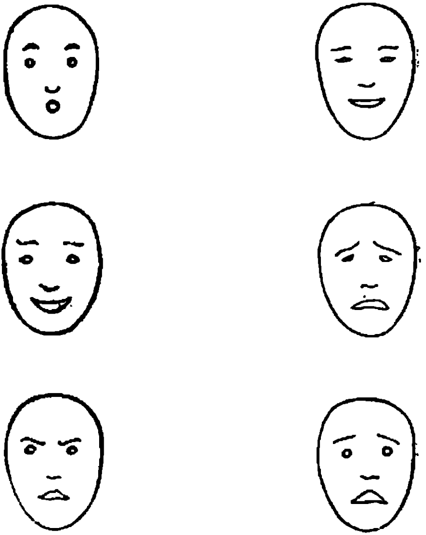
(شكل ٦) الرعب

وينتج عن الانفعال تغيير ظاهر فى ملامح الوجه ، وفى حالة الخوف يصفر الوجه ، وتغور الوجنتان ، وينحسر الفك الأسفل ، وتتسع حدقة العين .

والخلاصة أن الانفعالات المختلفة مثل الفرح والحزن والغضب والدهشة والإعجاب والضحك والقلق .... الخ ، يصحبها تغيير فى جميع أجهزة الجسم الباطنة وفى ملامح الوجه ، ويختلف هذا التغيير شدة وضعفاً باختلاف الانفعال . ومن الإطالة أن نذكر جميع هذه الانفعالات بالتفصيل ، ويستطيع القارىء أن يلاحظها بنفسه . ومن الظريف أن نذكر أن ملامح الحيوانات تتغير فى أثناء الانفعال



(شكل ٧) أثر الانفعال على الحيوان



(شكل ٨)

ملامح الوجه عند بعض الانفعالات كما يراها العالم « فرايا »

(انظر شكل ٧) . وقد أورد العالم « فرابا Frappa » رسما كروكيا للملامح التى تصحب بعض الانفعالات كما هو واضح فى (شكل ٨) .

لماذا ننفعل ؟

ليس تعليل الانفعال بالأمر السهل ، وقد تضاربت النظريات فى ذلك .

وأول هذه النظريات تقول بأن الانفعال هو نتيجة الشعور بالموقف الخارجى الذى يبعث الانفعال . ولكن ليس مصدر الانفعال هو كل شىء ، فقد يكون الخطر واحداً فيخاف شخص و يحتفظ آخر بهدوئه ، وكلاهما يشعر بالخطر . فالقول بأن الشعور بالمؤثر الخارجى هو السبب الوحيد الذى يؤدى إلى الانفعال لا يفسر لنا المثال السابق . كذلك هناك انفعالات كثيرة لا يتبين الإنسان مصدرها ، فالمنقبض المزاج ، الذى يظل حزيناً عدة أيام متواليات ، قد تمر به حوادث مبهجة فلا يفرح لها . وكثيراً ما يثور الإنسان لأتفه الأسباب ، والحقيقة هنا أن نفسه غاضبة فيلتمس أى شىء ليبرز الغضب .

والنظرية الثانية عكس النظرية الأولى ، فبدلا من اعتبار الآثار الجسمية نتيجة الانفعال ، يقولون بأن الانفعال هو نتيجة هذه الظواهر الجسمية ، والاضطرابات العضوية . وتفسير ذلك أننا نخاف لأننا نرتعش ، ولا نرتعش لأننا نخاف ؛ ونحن نحزن لأننا نبكى ، ولا نبكى لأننا فى حزن . ولابد بطبيعة الحال من إدراك المؤثر الذى يبعث الانفعال ، ولكن لا على أنه سبب الانفعال بل باعتبار أنه واسطة فقط . ويُعترض على هذه النظرية بأنه إذا كان الأمر كذلك ، ففى استطاعتنا أن ننفعل فى أى وقت نشاء بالإرادة . فيكفى أن يجمع الإنسان قبضة يده ، ويرفع صوته ، ويعض نواجذه حتى يغضب ، فهل هذا

صحيح ؟ إن الممثل على خشبة المسرح لا يفعل إلا كما ذكرنا ؛ فهو يتعمد إبراز الملامح والحركات والإشارات التى تدل على الحالة التى يستوجبها الموقف ، وقد يندمج فى تيار التمثيل فينفعل حقا . فهل هذه الحركات هى التى أدت إلى الانفعال أم أن تصور باعث الانفعال هو الذى أدى إليه ؟ وكلا الرأيين صواب فى بعض الحالات .

أثر الانفعالات فى حياة الإنسان :

الحياة بدون انفعالات تتخللها بين حين وآخر لا تكون حياة بالمعنى الصحيح ، بل تكون إلى السكون أقرب منها إلى الحركة . لأن ما يميز الحياة هو التقلب والتغير ، فالكائن الحى يولد ويكبر ويهرم ، ويعتريه خلال ذلك الصحة والمرض والانتعاش والذبول ، فما يكسب الحياة الصفة التى ينبغى أن تكتسبها ، هى الانفعالات ؛ فإننا لا نستطيع أن نجد للحياة طعما ، ولا نستطيع أن نستسيغها ، ونجعلها لينة المأخذ سهلة القبول ، إلا إذا تخللها كثير من الانفعالات . مثلنا فى ذلك مثل الطعام الذى نتناوله ، لا يكون لذيذاً مستساغا مقبولا ، إلا إذا وضعنا فيه الملح والتوابل والبهار ، التى تكسبه الطعم والنكهة ، واللذة والاستساغة ، وتجعلنا نقبل عليها . فالحياة بدون الانفعالات تكون جافة لا طعم لها .

وقد عرف الغربيون هذه الحقيقة ، فعملوا على ابتعاث الانفعالات فى أوقات مناسبة حتى ينفخوا فى حياتهم روح المرح والخفة . فتجد الزوج ينتهز فرصة عيد ميلاد زوجه ، فيبعث إليها عن طريق البريد تحفة طريفة ، كأن تكون عقداً من اللؤلؤ أو خاتما من ماس ، فتكون مفاجأة للزوج تنفعل لها انفعال الفرح والدهشة والإعجاب ؛ أو كالوالد الذى ينجح ابنه فى الامتحان ، فيفاجئه بهدية

ثمينة ، كساعة ذهبية مثلا ، يكون لها من الوقع والأثر أكثر مما لو مهد لها بزمن طويل قبل الامتحان .

الانفعال والسلوك :

تظهر قيمة الانفعال الكبيرة فى اتصالها بالسلوك الفطرى للإنسان ، ونعنى به الغرائز المختلفة . فالغريزة التى تسعى لخير الناس كافة ، لا تتحقق إلا عند ظهور الانفعال ، هذا الانفعال الذى يكون ملائما مع طبيعة الموقف الخارجى . ففى حالة الخطر الذى يستوجب هجوم الإنسان دفاعاً عن النفس ، يظهر الغضب الذى يفيض على الجسم بنشاط جديد ، فتسرع حركة الدم ، وتتسع حدقة العين لتكون أكثر بصراً ، وعلى الجملة يتخذ الإنسان هيئة المقاتل استعداداً للدفاع . وكثيراً ما يكون سلوك الكائن فطريا وذلك حفظاً لكيانه . حتى قبل أن يتعقد الموقف ، فكثيراً ما يظهر الخوف على بعض الحيوانات بمجرد رؤية أعدائها ، أو سماع صيحاتها ، أو شم رائحتها . فالفرخ الصغير يختبئ حين يسمع صياح الحدأة لأول مرة .

أثر الانفعال الاجتماعى :

ثم إن الانفعالات وما يرتسم معها من ملامح تظهر على الوجه ، لها أثر كبير فى حياة الإنسان . لأن لكل انفعال ملامح خاصة تصحبه ، فملامح الوجه عند الفرح غيرها عند الغضب أو الخجل أو الحزن . لذلك كنا إذا رأينا ملامح شخص ما ، كان كافياً لاستطلاع ما يختبئ وراءها من انفعال ، فتستطيع أن تقرأ فى صفحة وجه صديقك ، الغضب والحزن والفرح والإعجاب . . . إلى غير ذلك . كأن الانفعالات وما يصحبها من ملامح ترتسم على الوجه أصبحت لغة طبيعية بين

الناس ، يتعرفون بواسطتها إلى ما يدور بخلد بعضهم البعض .

ولكن هذه اللغة الطبيعية أخرجها الإنسان عن طبيعتها بالإرادة ، تكلفاً لحالات يريد أن يظهرها ، فهو يبتسم حين يريد أن يظهر الرضا ، أو يعبس حين الغضب . ثم تحول هذا التكلف الإرادى إلى عادة يصطبغ بها الشخص ، فهو يوزع الابتسامات على كل من صادفه ، حتى أصبح الإنسان يضع ابتسامته على وجهه كما يلبس الشيخ عمامته . وآداب الاجتماع كلها ، كخفض الصوت حين الكلام ، وتعقيد الجبين إظهاراً للحزن ... إلى غير ذلك ، كلها انفعالات تحولت إلى عادات ، وأصبحت رموزاً اجتماعية للتفاهم والتأثير بين الناس .

الانفعال والصحة :

إذا خرجت الانفعالات عن حدودها الطبيعية فأصبحت عنيفة ، وتكررت لكثرة الطوارئ الفجائية فى الحياة ، تأثرت صحة المرء إلى حد كبير ، لأن الانفعال يؤدى إلى اضطراب جميع أجهزة الجسم الداخلية ، فيختل نظامها . وإذا كان الانفعال عنيفاً فإن أثره قد يمتد بدل بضع دقائق ، إلى بضعة أيام . فالقطة التى أدخلوا عليها كلباً شرساً ، ظلت حركة معدتها متوقفة عن العمل مدة عشرين دقيقة ، بالرغم من زوال مؤثر الخوف(١) .

ومن الثابت فى علم الطب أن الشلل النصفى ، أو ما يسميه العامة «النقطة» سببه انفجار شريان فيحدث نزيف فى المخ ، أو إنسداد شريان وحرمانُ جزء المخ الذى يغذيه من دمه . ومن الأسباب المباشرة لانفجار الشريان هو الانفعالات النفسية الشديدة .

---

(١) راجع ص ٢٤ .

وكثيراً ما تؤدى الانفعالات إلى الأمراض العصبية كالهستيريا ، وهنا يضاف عامل جديد يؤثر مع الانفعال هو الإيحاء . ذلك أن الشخص يزيد فى تأثير الانفعال عن طريق الإيحاء الشخصى والوهم ، فيقدر للانفعال قيمة أكثر من قيمته . فإذا استطعنا أن نزيل هذا الوهم من ذهن صاحبه بالإغراء والإقناع ، عولج الشخص وذهب عنه المرض . مثال ذلك مريض كان يعتقد أن برجليه شللاً فهو لا يتحرك فعلاً وذلك نتيجة رؤيته شخصاً مصاباً بهذا الشلل ، فأثر فى نفسه هذا المنظر أثراً بليغاً ، واعتقد بالإيحاء الشخصى أنه مريض لا يستطيع المشى وشفى هذا المريض حين شرح له الأطباء وصف حالته ، وسبب مرضه الوهمى .

وكثير من الأمراض العصبية ، هى نتيجة العقد النفسية التى تخزن فى اللاشعور ، وتبعث على الاضطراب العقلى ، وسندرس هذه الظاهرة فى الكلام عن العواطف .

العواطف

يقولون عاطفة الحنان مثل حنان الأم نحو طفلها ، وعاطفة الصداقة أى عاطفة شخص نحو شخص آخر يتخذه صديقاً له ، وعاطفة الطفل الصغير نحو لعبته ، فما هى هذه العاطفة ؟ إذا عطفت الأم نحو طفلها ، والصديق نحو صديقه ، والطفل نحو لعبته ، فإنهم يشعرون جميعاً نحو ما يتوجهون إليه بالعاطفة ، بوجدان أكثر حدة وأشد تأصلا من وجداننا نحو أشياء أخرى من نفس النوع . فالأم لا تعطف على جميع الأطفال على السواء ، بل وجدانها لطفلها أكثر تأججاً ؛ والصديق لا يشعر نحو كل الناس بنفس العاطفة ، ولكن صديقه المختار يكون موضع عنايته . ولست تجد جميع الألعاب فى نظر الطفل سواء ، وإنما لعبة خاصة هى التى يختصها الطفل بعطفه أكثر من أى شىء آخر .

ومن الناس من درج فى منزل خاص ، نبت فى كنفه ، وشب بين جدرانه ، وعاش تضمه حجراته المختلفات حيناً من الدهر ، ثم انتقل صاحبنا من هذا المنزل إلى منزل آخر ، مثل هذا الشخص لا نزاع فى وجود عاطفة عنده نحو هذا المنزل القديم الذى كان يعيش فيــه ، ومعنى هذا أنه ينفعل إزاء ذلك المنزل أكثر من انفعاله من أى منزل آخر ، وأكثر من هذا ، فإن المنازل التى لا يعرفها لا ينفعل منها أصلاً ؛ فهو يشعر نحوه بنشوة الفرح ، وهزة السرور ، ويبعث فيه حين يمر به آهات من الأسف ، ورنات من الإعجاب ، وتقلبات بين الدهشة والاستغراب والحنين والقلق . فالشىء الذى يكون موضع العاطفة عنــد شخص يصبح مبعث هذه التأثرات الوجدانية جميعاً ، وفى هذا دليل على أنه يميل إليه بكليته وينصرف إليه بجميع نفسه . فإذا سمعت أن صديقك فى خطر ، أو مسه أحد بسوء ، فإنك تنفعل انفعال الغضب له ، والخوف عليه ، والقلق لما قد يحدث له ... الخ . وعلى العكس من ذلك إذا سمعت عن شخص لا تعرفه ولا تربطك به صــلة ، وليس بينكما أى عاطفة ، إذا سمعت أنه فى خطر فإنك قد لا تعبأ لذلك ، وقد لا يثير هذا الخبر فى نفسك أى أثر .

وفى كثير من الأحيان ، لا ندرى أننا فى حال عاطفة إلا إذا حدث ما يهدد هذا الشىء الذى نعطف عليه . فقد يظل الوالد يعنف ابنه ، ويعلن بين النــاس أنه عاق فاسد الأخلاق ، فهو لا يحبه ولا يريده ، بل يمقته ويكرهه ، حتى إذا مرض الابن ولزم الفراش ، وجدت أباه قلقاً عليه ، يعمل كل ما فى وسعه ليرفه عنه ، فيحضر له الأطباء ، ويسهر بجانبه ، وكل هذا دليل على وجود العاطفة .

ثم إن العاطفة تنمو وتزيد وتعمق كلما زادت التجربة والمرانة ، وكثرت الألفة واشتدت الصلة . ذلك أن العاطفة تجمع الانفعالات التى تنتج عن الحوادث

المتصلة بشيء من الأشياء ، فكل حادثة جديدة تخرج انفعالا جديداً ، يندرج فى قائمة العاطفة ، فيزيدها قوة وتماسكا . ومن هنا نستطيع أن نفسر اشتعال عاطفة الصداقة كلما زادت الألفة بين الصديقين . ولعل عاطفة الأمومة ، بجانب أنها تقوم على عامل غريزى ، ترجع إلى صلة الأم بوليدها أيام الحمل والوضع والحضانة ، وانفعالها فى أثناء ذلك بشتى الانفعالات المختلفة التى تتجمع كلها وتنتظم حول الطفل ، ولكل هذا أثر فى تكوين هذه العاطفة الحادة ، التى هى المثال الأعلى للعواطف .

ونستطيع أيضا أن نفسر السر فى احتفاظ الناس بأشياء لا قيمة لها فى الواقع ، ولا تنفعهم فى وقتهم الحاضر . فكثير من الناس يحتفظون بالكراسات المدرسية التى كانوا يكتبون فيها أيام الطفولة الأولى ، أو يحتفظون بملابس قديمة ، فهذه الأشياء وأشباهها ، هى رموز لتلك العهود القديمة التى كانت محل العاطفة .

اتجاهات العاطفة :

لابد أن تكون العاطفة موجودة بين صاحبها و بين شيء آخر ، صاحبها « طرف أول » ، والشيء الآخر « طرف ثانٍ » كما يقولون فى لغة القانون . أما أن توجد العاطفة جزافاً ، كما يقول بعض الناس ، دون أن نعرف ما هذا الشيء الذى نعطف عليه ، فهذا خطأ لا يقبله العلم .

فالشخص كالشعلة التى يصدر عنها الضوء فتنير بأشعتها ما تقع عليه . هذه النقط الذى يصيبها شعاع النفس ، هى المراكز التى تلتقى عندها عاطفة الشخص وتتجمع . وهذه المراكز لاتخرج عن كونها شيئاً أو شخصاً أو جماعة أو فكرة .

فالعاطفة نحو شيء هى كعاطفة البخيل نحو المال ، أو السكير نحو الخمر ، أو عاطفة الشخص نحو السيارة التى يملكها ، أو القلم الذى يكتب به ، أو المقهى الذى

يختلف إليه ... ألخ . وتختلف عواطف الناس فى هذه الناحية بين السمو والتفاهة ، فعاطفة حب الزهور والحدائق والصور الجميلة والآثار الفنية ... أسمى وأبلغ وأعمق من غيرها . وتتوقف العاطفة نحو الأشياء على المعانى التى نستمدها منها ، فالمال للبخيل مادة الحياة ، والطفل لوالده أمله فى المستقبل ، والكتاب للأديب ثروة العقل .

وهناك عاطفة تتجه نحو شخص واحد ، كعاطفة الأم نحو ابنها ، والصديق نحو صديقه ، والعامل نحو صاحب العمل الذى يشتغل عنده ، والطالب نحو مدرّسه ، وابن الوطن نحو زعيم أمته ... ألخ . وعاطفة الإنسان نحو الحيوان تدخل فى هذا الباب مثل العاطفة نحو القط أو الكلب أو العصفور المغرد فى القفص .

وقد تتجه نحو جماعة ، مثل الكراهية بين الألمان واليهود ، والعاطفة نحو فرقة كرة القدم ، وعاطفة التلميذ نحو طلاب المدرسة التى يدرس فيها ، وعاطفة الشخص نحو أهل المهنة التى ينتمى إليها ، كعاطفة الصحفى نحو الصحفين ، والموظف نحو فئة الموظفين ، والطبيب نحو جمهور الأطباء .

وقد لا تتجه العاطفة نحو شىء ، أو شخص ، أو جماعة ، بل نحو فكرة مجردة كحب الحقيقة والفضيلة ، وعاطفة الجمال ، والعاطفة الدينية والعلمية والفكرية .

تكوين العاطفة :

إذا حللنا العاطفة تحليلا دقيقاً إلى عناصرها الأولى نجد أنها ترجع إلى نوعين : الحب والكراهية ، التى إن هى فى الواقع إلا الصورة السلبية للحب . والعواطف الأخرى مزيج من الحب وشىء آخر ، فعاطفة الأمومة هى حب الأم لطفلها ، والشفقة حب الضعيف ، والصداقة حب الصديق . وهناك من يضيف نوعاً جديداً من العواطف هو الاحترام ، والحقيقة أن الاحترام حب وتقدير .

ومكونات العاطفة تقوم على طبيعة الشخص ، وعلى انتظام الانفعالات حول موضوع العاطفة ، وعلى الظروف الخارجية الشخصية .

فللغرائز الفطرية أثر كبير فى تكوينها ، فغريزة الأمومة هى الأصل فى عاطفة الأمومة . ولمّا كانت الغرائز تختلف بين الناس قوة وضعفاً وزماناً ، اختلفت العواطف أيضاً لأنها تقوم على أساس من الغريزة . فإذا قويت غريزة حب الاستطلاع عند شخص تمكنت منه العاطفة العلمية ، وإذا برزت غريزة الاقتناء أصبح بخيلا . والعاطفة تستمد أصولها أيضاً من الطبائع الخاصة التى يرثها الفرد ، كالميل إلى الموسيقى أو الرياضة البدنية ، أو الأدب والشعر ، وتعدل هذه العواطف حسب الظروف الاجتماعية التى يصادفها صاحبها فى طريقه . فكأن الإنسان مسوق بالطبيعة إلى تكوين العواطف التى تتركب منها حياته ، كالشراهة وهى حب الطعام أساسها صحة الجهاز الهضمى . وقد يرث الإنسان أيضاً الميول النفسية والعقلية كالعاطفة الدينية ، إذ كثيراً ما تجد أخوين يعيشان معيشة واحدة ، ولكن أحدهما يتجه اتجاهاً دينيا ، والآخر لا يحب التديّن .

وتتكون العاطفة من تجمع عدة انفعالات ، وانتظامها وتركزها حول موضوع العاطفة . فعاطفة الشفقة تنشأ على هذا النحو : يرى الإنسان خلال حياته منظر البائسين والمساكين فيتألم ، وقد يكون هذا البؤس شديداً فيثير الخوف أو الغضب ، ثم تحسن إلى المساكين الذين يلهجون بالثناء عليك فتفرح . وهذه التجارب المختلفة ، لا تشهدها فقط عند الناس ، وإنما تقع لك ، فيتيسر لك أن تحسها وتشعر بها مع رؤيتها ، وهذا الشعور الشخصى أوقع فى معرفة الحقائق . فالألم والفرح والخوف والغضب . . . وهذه الانفعالات المختلفة المتكررة تدور حول موضوع البائس المسكين ، فتخرج لنا عاطفة الشفقة . والألفة تزيد العاطفة قوة ،

إذ تُثار كثير من الانفعالات تزيد فى تكوينها . والعاطفة من جانب آخر باعثة على الانفعال ، مثال ذلك إذا كانت عندك عاطفة الشفقة ورأيت مسكيناً تألمت له ، و إذا كنت فاقداً لها فإنك لا تتألم لرؤية ذلك المسكين .

العاطفة والانفعال أصلهما واحد ، لأنهما يمثلان الناحية الوجدانية من الحياة . والعاطفة كما رأيت مزيج من عدة انفعالات . والفارق بينهما يقع فى أن الانفعال وقتى يزول بزوال المؤثر ، بينما العاطفة أدوم أثراً وأبقى مدة . و بينما أثر الانفعال يذهب بعد مدة قصيرة ، فإن العاطفة قد تصحب صاحبها إلى أن يموت كالعاطفة الدينية .

وهناك عوامل خارجية تساعد على تكوين العاطفة هى البيئة . والبيئة هى كل ما يحيط بالشخص : كالأرض التى يعيش عليها ، والجماعة التى ينشأ بين ظهرانيها . ومهمة البيئة فى تكوين العاطفة هى أنها تمد الشخص بالأشياء التى تتركز حولها العاطفة ، هذه الأشياء هى التى ينفعل منها الشخص ، فتتجمع الانفعالات ، ويخرج من نتيجة تجمعها العاطفة .

ولما كانت البيئات مختلفة ، والمجتمعات متباينة ، اختلفت عواطف الناس فى تكوينها عند الأشخاص تبعاً لذلك . ولذا تجد أهل الريف فى عواطفهم غير أهل المدن ، لأن الريفى يعيش بين المناظر الطبيعية والأرض الزراعية ، فتتجه عواطفه نحو الساقية ، والبقرة والنخلة ، والقروية التى تحمل البلاص ، ونحو الشمس المشرقة ، والنجوم المتألقة ، والليل الداجى . بينما أهل المدن تتكون عواطفهم نحو دور الخيالة ، والسيارات ، والأزياء ونحو ذلك .

وللتعليم أثر كبير فى تكوين كثير من العواطف ، ولا سيما تلك التى تتجه نحو أفكار مجردة . ذلك أن هناك عاملا عقليا له أهميته فى تكوين العاطفة ،

هذا العامل هو إدراك موضوع العاطفة أى فهمه ووضوحه فى الذهن . فالشفقة لا تقوم إلا على إدراك معنى البؤس ، وكثيراً ما تخفى علينا هذه المعانى ، كما كانت الحال فى فرنسا قبل الثورة الفرنسية ، إذ كان القوم فى بؤس شديد ، ولكن أحداً لم يفطن إلى ذلك ، حتى جاء أمثال « ڤولتير ، وموليير » وغيرهما فأحسوا بذلك البؤس لأنهم أدركوا المعانى الموجودة فيه . والإنسان لا ينفعل من المناظر الطبيعية ، ويتأثر منها حق التأثر إلا إذا كان على علم بمعنى الجمال وأسسه . والعاطفة العلمية لا تقوم إلا على أساس فهم قيمة العلم وقدره ومنزلته . لذا كانت العواطف السامية متوقفة إلى درجة كبيرة على العلم والثقافة . فعاطفة حب الوطن على وجهها الصحيح ، هى عند الشخص المتعلم أعمق وأصدق منها عند الجاهل . كذلك أمثال هذه العواطف كحب الديمقراطية والشعر تحتاج إلى قدر كبير من التعليم .

وتحتاج العواطف فى نشأتها وتكوينها إلى المجتمع ، حيث يستمد صاحب العاطفة عواطفه عن طريق الإيحاء والمحاكاة . ولذلك تجد ضروباً من العواطف تسود عند كل شعب على حدة ، وتشيع فى أجيال دون أخرى ، فلكل مجتمع عواطفه التى يتميز بها . ويقال فى علم الاجتماع : إن العواطف التى تشيع بين الشعوب تتغير كل نصف قرن . ونستطيع أن نسمى هذه العواطف العامة بالتقاليد .

انتقال العواطف (١) :

لا تظل العاطفة ثابتة فى اتصالها بالأشياء ، بل تتغير وتنتقل وتتحول من موضوع إلى آخر . ويقع هذا التحول بأن تربط العاطفة بشىء لا يكون هو

---

(١) Le transfer des sentiments.

السبب فى إحداثهـا ، وذلك إما عن طريق التلازم أو التشابه . فإذا حدث أن شيئين متلازمين أدى أحدهما إلى عاطفة فإن الشيء الآخر يثير نفس هذه العاطفة . كتب « روسو » عن نفسه ما يأتى . « إن ما يصلنى بدراسة النبات هى سلسلة من الخواطر المرتبطة بعضها ببعض ، فتذكرنى بالأماكن والأحراش ومجارى المياه ، والوحدة والسلام والراحة التى كنت أجدها بين كل هذا . إنها تذكرنى بصباى و بأفراحى البريئة » . فهذه المشاهد المختلفة والذكريات المتعددة ، التى صاحبت ملاحظة النباتات فى ذهن « روسو » ، انتقلت وتركزت فى دراسة النباتات .

قد ينتج الانتقال عن طريق التشابه بين موضوع العاطفـة و بين شيء آخر يماثله . فـكثيراً ما ترى امرأة غلاما فتحس نحوه بعاطفة شديدة ، والسر فى هذا أنه يشبه ابنها الذى فقدته . ومثال ذلك ما يحدث لنا حينما نرى شخصاً لأول وهلة فنحس نحوه بالاحترام أو الشـفقة أو الـكراهية ، وهـذا يرجع إلى وجه الشبه بينه و بين شخص آخر كان موضع هذه العاطفة . كذلك تنتقل العاطفة من شخص بعينه وتشيع فى عدة أشخاص ، وهذا هو تفسير العاطفة المتجهة نحو جماعة ، فإذا عرفت صديقاً من أهل الإسكندرية فإنك تحب أهل هـذه المدينة جميعاً .

وتتطور العاطفة من مستوى إلى آخر كما تنمو الحيـاة ، فعاطفة البخل تكون فى الأصل حبا للمال لأنه يجلب الفائدة ، و يحقق المطالب المختلفة التى يرغب فيها الإنسان . ثم تتحول هـذه العاطفة إلى حب المـال فى ذاته ، لا على أنه واسطة لتحقيق الرغبات .

منطق العواطف[١] :

حياة الإنسان مزيج من العواطف ولكنها تختلف من شخص إلى آخر . وللعاطفة أثر كبير فى التفكير ، لذلك يسمى التفكير المستمد منها منطق العواطف . وهو نوعان : منطق يبرر به صاحبه العواطف التى تسيره ، كالبخيل الذى يحاول دائماً تبرير مركزه بالنسبة إلى جمع المال ، أو السكير يسوّغ لك لماذا يشرب الخمر . فالبخيل لا يحاول البحث عن سبب جمع المال ، والسكير لا يفكر لماذا يشرب الخمر ، بل البخل والسكر حقيقتان بالنسبة لأصحابهما لا يبحثان فيهما ، وإنما يعملان على تبريرهما . وهذا هو ما يسمى منطق التبرير[٢] .

والنوع الثانى هو منطق الإنشاء[٣] ، الذى يرسم به صاحب العاطفة الخطط المختلفة التى توصله إلى تحقيق العاطفة ؛ كزعيم الأمة الذى يحب وطنه ، فيعمل على تخليصه من الأعداء ، أو رفع شأنه بين الأمم الأخرى .

وليس هناك تعارض بين العاطفة والعقل ، فهما يسيران جنباً إلى جنب . ولكن الصلة بينهما تختلف ، فقد يسيطر العقل على العاطفة ويقودها ، وقد تعلو كلمة العاطفة فتجتاح العقل . ومعيار العاطفة يقاس بانتصارها على العقل أو خضوعها له .

والإنسان فى حالة العاطفة لا يفقد العقل ولكنه يفكر بشكل جديد . وأثر العاطفة فى التفكير يتناوله من ثلاثة نواحٍ : فهى تؤدى إلى حسن التفكير ، أو التحيّز ، أو الخطأ .

---

(١) Ancien Traité Dumas. Tome I Page 488.

(٢) Raisonnement de justification.

(٣) Raisonnement constructif.

والإنسان حين يعطف على شيء ينصرف إليه ، وتختلط نفسه به ، ويكون دائم الصلة به كالبخيل تدور حياته على المال ، والعالم على العلم ، فتتفتح النواحى المختلفة للشيء أمام بصر صاحب العاطفة ، إذ يكون دائم الانتباه إلى ما يعطف عليه ، فتتضح الحقائق المتصلة به فى ذهنه . لذلك يحسن فهم الأشياء ويحسن التصرف فى الأمور . فالبخيل الذى يصرف وقته كله وراء البحث عن المال ، يعرف أغلب الحقائق الاقتصادية ، ويُحسن فهمها ، وإذا عرضت له مشكلة مالية أبدع التصرف فيها ، حتى تزيد ثروته ، ويتكدس ماله . كذلك العالم يحسن فهم الحقائق العلمية ، ويحل مشاكل العلم ، ويخترع المخترعات المفيدة للعلم .

ولكن هذا الانصراف إلى ناحية واحدة تعطف عليها يجعلك تزيد فى تقديرك لها ، وتغلو فى رفع قيمتها ، وتضعها فى غير موضعها الصحيح ، ومن هنا ينشأ التحيز . ولذا كان القاضى لا يستطيع إبداء حكم صحيح إذا كان على صلة بأحد المتقاضين ، أو بعبارة أخرى بينهما عاطفة صداقة . وتجد المؤرخين من العرب يتحيزون للعروبة ، وغيرهم من الفرنجة يحطون من شأن العرب وهكذا . والتحيز هو انصراف الذهن إلى ناحية واحدة من نواحى الموضوع ، مع غض النظر عن باقى النواحى التى يكون لها أثر فى الحكم النهائى على الموضوع ، أو كما قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة　　　كما أن عين السخط تبدى المساويا

والإنسان فى خضوعه للعاطفة تضعف عنده قوة النقد ، وهى ضرورية لتمييز الخطأ من الصواب ، والوصول بالتفكير إلى الصحة . ولذلك كثيراً ما تؤدى العاطفة إلى الخطأ الذى يكون شديداً فى العلوم الاجتماعية والأدبية والسياسية ، لأنها علوم تقديرية قياسها يقع على حسب ميل الإنسان لها . ولكن كيف نفهم الخطأ فى الحقائق العلمية المستقلة عنا ، والواحدة بالنسبة لجميع الناس ؟ حينما اخترع

« جاليليو » المنظار المكبر لرصد النجوم والكواكب ، وقال بأن الأرض هى التى تدور حول الشمس لا العكس ، هدّده رجال الكنيسة بالحرمان والاضطهاد إذا لم ينزل عن آرائه ويحطم منظاره ، وهذا نتيجة تأصل العاطفة الدينية .

ولصاحب العاطفة منطقه الخاص ، فهو لا يبحث عن الحقيقة ، ولكنه يعتقدها ويؤمن بها ، ويحاول إثباتها بالبراهين وتبريرها بالمسوغات .

وقد قيل إن الحب أعمى ، والحب هو أساس العواطف كما ذكرنا ، فالعاطفة تعمى الإنسان عن الحقيقة ، وكما أن النبات لا يمتص من الأرض إلا ما يلائم نموه ، كذلك العاطفة لا تنتقى من الحقائق إلا ما يوافق هواها . والمتعلمون من الناس أقل خضوعاً للعاطفة فى تفكيرهم من الجهال ، لأن للمتعلم من ثقافته ومن شخصيته القوية ما يجعله لا يجرى إلا وراء الحقيقة فى ذاتها ، بينما الجاهل يعتقد ويؤمن عن طريق الخضوع للأهواء والإنقياد دون التبصر والتفكير الصحيح .

العاطفة والسلوك :

يخضع تفكير الإنسان إلى حد صغير أو كبير للعاطفة ، وينتج عن ذلك توجيه السلوك تبعاً للمنطق الذى يسلكه ، لأن حياة الإنسان لا تخلو من العاطفة . ويكون سلوك المرء على حسب العواطف الموجودة عنده . فالعاطفة الوطنية تدفع الإنسان إلى الدفاع عن الوطن بجميع الوسائل ، كالتبرع بالمال ، والتطوع فى الجيش . وعاطفة الشفقة هى التى تدفع صاحبها إلى أن يحسن إلى الناس .

وتتميز شخصية الإنسان على حسب العواطف التى تدور عليها حياته ، لأن حد الشخصية هو الاتجاه نحو أغراض مخصوصة يسلك الإنسان لتحقيقها طرقاً لا يحيد عنها . وفى ذلك يتفاوت الناس ويختلفون ، بحيث نستطيع أن نميز كل

شخص على حدة ، فحاتم الطائى كان كريماً ، وعمر بن الخطاب شفيقاً ، والحجاج قاسياً . . . . . فهذا السلوك المختلف هو نتيجة تباين العواطف عند هؤلاء الأشخاص . وهذه العواطف وهذا السلوك هما اللذان يبرزان شخصية المرء .

فإذا طغت العاطفة على صاحبها كست شخصيته ، كشخصية البخيل فإنها مستمدة من البخل . وقد يعمل الإنسان تحت سيطرة العاطفة دون أن يشعر ، فالإرادة تصبح خاضعة لهوى العاطفة ، فلا يستطيع الإنسان أن يوقف سيلها الجارف أو وجهتها الجامحة .

الكبت والعقد النفسية :

من العواطف والميول ما تضطرنا الحياة الاجتماعية والأخلاقية والتقاليد إلى كبح جماحها ، وإيقافها عند حدها . وقد اكتسب الإنسان بالتربية والتعليم نوعاً من الرقابة يلاحظ بها الميول التى تصلح أن تظهر فى مجرى الشعور وتلك التى لا تصلح . هذه النزعات التى لا يرغب الشخص أن يبرزها للعيان ، لا تموت ولا تفنى ، بل تلقى فى اللاشعور ، وتكبت وتخمد . هذه الظاهرة هى التى سماها « فرويد » بالكبت[١] .

واكتشاف ظاهرة الكبت لم يكن بالأمر السهل ، لأن الرغبات المكبوتة تظهر فى صور رمزية مختلفة كل الاختلاف عن الانفعال المكبوت ، أو الرغبة المتراجعة . ويرجع الفضل فى اكتشافها إلى أحد الأطباء النمساويين هو الدكتور « بروير »[٢] الذى عجب لكثير من المرضى الذين يتألمون آلاماً نفسية كبيرة ، ولم يكن طب ذلك الوقت لينفعهم . ثم لاحظ الدكتور « بروير » أن ذكرى

---

(١) refoulement.

(٢) Dr Breuer.

بعض الانفعالات تستمر فى الذهن فى حالة غموض ولا يشعر بها المريض ، وهى التى تؤدى إلى كثير من الاضطرابات العقلية والجسمية لا يعرف لها الطب علاجاً .

وقد فكر « بروير » أنه إذا استطاع أن يخرج هذه الانفعالات المكبوتة من اللاشعور إلى الشعور حتى يراها الشخص شفى المريض . وكانت طريقته فى بعث هذه الذكريات القديمة هى التنويم المغناطيسى .

وكان « فرويد »[1] يعمل مع « بروير » ولكنه رجع عن استعمال التنويم لخطأ هذه الطريقة ، واقترح طريقة جديدة نصل بها إلى كشف هذه « العقد النفسية »[2] المكبوتة فى اللاشعور ، وهذه الطريقة هى التى تعرف بالتحليل النفسانى[3] وخلاصتها ما يأتى : —

١ — إلقاء أسئلة خاصة على المرضى .

٢ — التحليل الدقيق لرغبات المريض وإشاراته وحركاته ولفتاته غير المقصودة ، وتحليل الخواطر التى ترد فى ذهن المريض .

٣ — تحليل الأحلام ، ويعتبرها « فرويد » من أكبر ما ينبىء عن هذه الرغبات المكبوتة .

ولنضرب مثلا يوضح لنا ما هى هذه العقد النفسية المكبوتة ، وكيف تؤدى إلى الأمراض العصبية ، وكيف يعالج المريض بواسطة التحليل النفسانى . شاب ظهرت عليه هذه الأعراض : القيء ، عدم الشهية للطعام ، شلل وهمى فى الرجلين ، دقات شديدة فى القلب ، الخوف من الموت ، والميل إلى الانتحار . هذه كلها أعراض هستيرية لم يستطع الطب علاجها ؛ وقد وجد الأطباء عند فحص القلب

---

(١) Freud.

(٢) Complexes.

(٣) Psychanalyse.

أنه سليم ليس به أى مرض وكذلك المعدة . و بالتحليل النفسانى وسؤال المريض، اتضح أنه منــذ خمس سنوات وقع من الدور الأول فى المدرسة على الأرض مدة ثم أغمى عليه . هــذه الفترة التى مرت بين وقوعه و بين الإغماء ، أصيب فيها بانفعال شديد هو الذعر والخوف من الموت . ولما جاء رجال الإسعاف ، وأفاق المريض من الإغماء ، أصيب بالقىء الذى هو نتيجة الخوف الشديد ، ولم يستطع أن يمشى على قدميــه لمدة ثلاثة أشهر . هذا الخوف الشديد تراجع إلى اللاشعور وعاش مكبوتاً هنالك وكوّن عقدة نفسية ، هى التى تبعث الأعراض السابقة بين حين وآخر . وقد عولج هذا الشخص باستخراج هــذه الحادثة التى نسيها إلى ميدان الشعور .

لم يقف « فرويد » عنــد هذا الحد ، ولكنه أراد أن يعمم نظريته بحيث تشمل جميع الأعمال الإنسانية ، فهو يقول إن الرغبات النفسية المكبوتة هى أساس السلوك عنــد الإنسان فى جميع النواحى . و يخرج من هذا التعميم إلى تعميم آخر وهو أن الغريزة الجنسية هى التى تحتل المكان الأول من بين الرغبات المكبوتة ، وأنها تخمد بالظروف الاجتماعية والتقاليد والتربية والإرادة . وأغلب الثروة الأدبية والفنية والفكرية وقوة الابتداع ترجع على حسب هــذا الرأى إلى هذه القوة المحبوسة ، التى تنطلق وتظهر فى هذه النواحى المختلفة ، كالرسم والموسيقى والشعر والتصوير ... الخ . وفى أحوال أخرى تؤدى إلى الاضطرابات العصبية .

ونظرية « فرويد » إذا كانت صحيحة فى كثير من الأحيان ، فإن تعميمها بالشكل الذى أوضحناه فيه كثير من المغالاة ، وهذا هو أهم اعتراض يوجه لهذه النظرية .

الفصل الثامن

الارادة[1]

قد تجلس إلى مكتبك فى المنزل تقرأ وتكتب ، ثم تلوح فى ذهنك فكرة أن الطقس لطيف ، وأنه من المستحب أن تخرج للرياضة قليلاً . وبدون روية أو تدبر تستمع إلى هذا الميل فتترك منزلك وتخرج .

وفى حالة أخرى تضيق بالعمل وتميل إلى الخروج للاستراضة ، ولكنك تحدث نفسك أن إنجاز العمل أفضل ، والبقاء أفضل من الخروج ، و بعد شيء من الروية تلقى بالكتب وتخرج من المنزل .

وفى حالة ثالثة تتردد طويلا بين الاستمرار على الكتابة والانقياد لدافع الخروج ، فتجد بعد كثير من التفكير أن الأفضل إنجاز العمل فتبقى فى المنزل .

هذه عدة أمثلة تبين سلوك الإنسان فى وجهات ثلاث ، و يوصف هذا السلوك بأنه إرادى . والإرادة ميل إلى العمل ، و بذلك تدخل فى باب النزوع . ومن الخطأ الشائع بين الذين كتبوا فى علم النفس من قديم ، أن يقصروا القسم الثالث من الظاهرة النفسية وهو النزوع على الإرادة ، فيقولون إن الظواهر النفسية ، هى إدراك ووجدان ونزوع أو إرادة .

وليس الأمر كذلك ، لأننا رأينا أن هناك نوعاً من السلوك ينزع إليه الإنسان بالفطرة ، وهذه هى الغرائز . فنزوع الطفل إلى مص أصبعه هو نزوع غريزى غير

(1) La volonté

إرادى ، وهناك طائفة أخرى من الأعمال ينزع الإنسان إلى أدائها عن طريق العادة ، وهو يسلك فى هذه الحالة كالآلة التى تعمل دون شعور . فالمدخن الذى يضع يديه فى جيبه دون تفكير ويخرج لفافة التبغ ويشعلها يؤدى هذا العمل آلياً ، دون دخل للإرادة فى ذلك .

فامتصاص الطفل لأصبعه نزوع غريزى ، وإشعال لفافة التبغ نزوع عادى ، وخروج الكاتب من منزله الذى وصفناه فى بدء هذا الفصل ، نزوع إرادى .

فبماذا تمتاز الإرادة ؟

تمتاز بالشعور بالغرض الذى يريده الإنسان ، وبإدراك العمل قبل أدائه ، ووجود نية التنفيذ ؛ بينما الغريزة عمياء والعادة آلية .

خطوات الإرادة :

يسير العمل الإرادى الكامل فى أربع خطوات .

١ — الشعور بغرض .

ذلك أن الأعمال الإرادية لا يساق الإنسان إلى عملها سوقاً ، بل يكون الغرض من العمل حاضراً أمام ذهنه ، ويصحب وجود الغرض الشعور به ، كالجائع يريد أن يأكل ، والظمآن أن يشرب ، والمتعب أن يجلس ، والمتبرم أن يخرج للرياضة . فكثير من أعمالنا نشعر بالغرض من عملها ، ونفكر فى أدائها من أجل ذلك .

٢ — الروية(١) .

لتحقيق الفكرة التى تطرأ على الذهن ، قد يجد الإنسان عدة مسالك لتنفيذها ،

---

(١) délibération.

بعضها يؤدى إلى الغرض ، و بعضها لا يؤدى ، و بعضها أفضل من البعض الآخر . فإذا حصل طالب على إجازة الدراسة الثانوية ، وأراد أن يلتحق بإحدى كليات الجامعة ، فإنه يتروى أى الكليات أفضل ؟ وقد يجد أن تمة الدراسة العالية لا فائدة منها ، فيلتحق بوظيفة أو يفتح محلاً تجارياً . فهذه مسالك مختلفة ، ينعم الطالب فيها الفكر ، و يتروى قبل أن يعزم على السير فى أحدها . الروية عبارة عن تمحيص الآراء المختلفة ، والفحص عن البواعث التى تتجاذب صاحبها كالميول والرغبات والعواطف التى تمتزج بالشخص وتجتذبه إلى السير فى طريق معين . وحينئذ يبصر صاحب الروية هذه المنازع والأهواء المختلفة ، و يشعر بها ، و يضع لكل منها قيمة وقدراً . فروية الطالب حين يبحث عن دراسة عالية ، لا تكون فكراً خالصاً مجرداً عن نفسه ، ولكنه يضع فى الميزان الرغبات المختلفة التى تتنازعه ، فإذا كان يميل إلى الخطابة دخل كلية الحقوق ، و إذا كان يرغب فى السيطرة توجه إلى المدرسة الحربية .

وقد لا يمر العمل الإرادى بدور التروى ، وحينئذ يندفع الشخص إلى أداء العمل . وغالباً ما يكون الاندفاع فى الأمور البسيطة التى تعترض الإنسان ، أما جلائل الشئون فلا يبت صاحبها فيها إلا بعد روية و إمعان .

٣ — العزم (١) .

هذه المرحلة هى التى يمتاز بها العمل الإرادى و يبدأ حقاً . والعزم هو الاستقرار عند رأى من الآراء التى تحقق الغرض الذى نريده ، و يلحق العزم التصميم ، أى الإلحاح فى العزم وعدم الرجوع عنه . فالطالب بعد أن يستعرض أنواع

---

(١) décision.

الدراسات المختلفة ، تقف رويته عند إحدى المدارس العالية ، ككلية الحقوق مثلا ، ثم يصمم على هذا العمل .

٤ — التنفيذ(١)

يجب أن يصحب العزم تنفيذ ما يصمم عليه صاحب الإرادة حتى يستتم العمل . والتنفيذ ضرورى لأنه المحك الذى يبين إذا كانت الإرادة صادقة أم لا . وعلى الأقل ينبغى أن توجد محاولة التنفيذ . وقد تقوم عقبات خارجية فى سبيل التحقيق النهائى للعمل ، وهذه الظروف الخارجية لا تهمنا نفسانياً . فالطالب الذى يصمم على الالتحاق بكلية الحقوق ، قد لا يجد معه المال الكافى لدفع مصاريف الدراسة فيتقاعد .

هذا التحليل للأعمال الإرادية الذى يفصلها إلى عدة مراحل تجتازها ، هو الفكرة القديمة التى وصل إليها علماء النفس حتى عهد قريب . ولكن علماء النفس الحديثين يرون فى العمل الإرادى غير هذا الرأى .

فالإرادة تعارض عدة رغبات ، فيعلو الإنسان بإحداها على الباقية ، ولهذا تصحب الإرادة دائماً بالمجهود .

ذلك أنه من الخطأ القول بأن العمل لا يبدأ إلا بعد امتحان البواعث والدوافع(٢) فى مثل ذلك الهدوء الذى ذكرنا ، بحيث يستعرضها الإنسان أمامه ويرجح إحداها على الأخرى . بل الواقع أن أى باعث إلى العمل مثل الخروج إلى الرياضة ، أو التراجع مثل البقاء فى المنزل ، حين يلوح فى الذهن يندمج فى الحال مع بواعث أخرى ، ويتسق معها فيقوى ، أو يدخل فى صراع مع البواعث

---

(١) Exécution

(٢) motif, mobile.

النفسية الموجودة ويضعف . مَثَلُ هـذه البواعث الجديدة مَثَل المـاء الذى نلقيه فى النهر ، فيحمله المجرى ويختلط بمـاء النهر ، ويتأثر به ويؤثر فيه ؛ فأى فكرة جديدة تلوح فى الذهن تندمج فى الحال مع الحياة النفسية للشخص وتصبح عملاً أو مبدأً لعمل .

أما تقسيم البواعث العقلية إلى أقسام ، بعضها يساعد الإرادة ، وبعضها لا يتفق معها ، فهو تقسيم صناعى ، لأن الحياة النفسية كلٌّ لا يتجزأ . وعلى ذلك فإن فصل العزم عن الروية تعسف يجعل الإرادة قوة مستقلة عن العواطف والفكر ، وليس الأمر كذلك كما ذكرنا عند تحليل الظاهرة النفسية .

والحقيقة أننـا إذا أنعمنا النظر فى المراحل السابقة ، نجد أن المرحلة الأخيرة وهى التنفيذ لا شأن لهـا بعلم النفس ، لأن التنفيذ يتوقف إلى حد كبير على الظروف الخارجية . أما الشعور بغرض أو باعث ، والروية ، فإنهما مظهران للإدراك والعاطفة . ولا يبقى للإرادة إذن إلا مرحلة العزم التى تصبح امتـداداً للتفكير أو العاطفة .

وقد خرج العلماء من هذا التحليل والنقد إلى نظريتين : الأولى تنادى بأن الإرادة ليست فى النهـاية إلا مزيجاً من الأحكام العقلية ؛ فالعمل الإرادى هو نتيجة انتخاب حكم من بين حكمين أو عدة أحكام ، لأنه أفضل وأكثر فائدة . بينما النظرية الثانية تقول بأن الإنسان عبـارة عن مجموعة من الميول تتجاذبه ، وانتصار أحد هذه الميول يؤدى إلى العمل . وعلى ذلك فالإرادة قوة تعمل سابقة على كل حكم .

وكلتا النظريتين على حق من بعض الجهات . .

لو أننا نستمع إلى كل باعث يلوح لنا ، أو نساق بكل دافع يحركنا ، لكننا

نعمل عن اندفاع لا عن إرادة ، إذ أن الإرادة هى الشعور بالرقابة الشخصية على البواعث والدوافع المختلفة ، فينتج عن هذه الرقابة انتخاب الطريق الذى نريد أن نسلكه ، والحكم بأفضلية شىء على آخر ، أو ميل على ميل . والإرادة أيضاً هى المقدرة على إيقاف البواعث العقلية والدوافع النفسية بدلاً من المبادرة إلى تنفيذها . فالانتباه إلى العمل ، والشعور بالتفضيل والترجيح ، هو أساس « الحرية » عند الإنسان ؛ وليس الحيوان حراً ، لأنه ينقاد لدوافعه الباطنة التى تحركه ، فلا ينظر هل هى مفيدة أو مضرة ، فاضلة أو وضيعة ؟ فمصدر الأعمال لا يرجع إلى إرادة الحيوان بل إلى هذه الدوافع ، لذلك كان الحيوان عديم الأخلاق .

ونستخلص من كل هذا ثلاث صفات عامة للعمل الإرادى :

١ — أن الروية تقتضى نوعاً من الصراع بين البواعث والدوافع .

٢ — يحدث انتخاب من بين هذه البواعث والدوافع . لهذا كانت الإرادة تتطلب شيئاً من التردد ولو قليلاً .

٣ — يصحب الإرادة شعور بالحرية ، هو الذى يميزها عن الأعمال الآلية .

الحركات الإرادية :

يؤدى الجسم كثيراً من الحركات منها ما هو إرادى ، ومنها ماهو غير إرادى . ومن الحركات غير الإرادية ما ينتج عن تقلص العضلات بطبيعتها كالمثانة . وأغلب الحركات عند الحيوان تصدر على هذا الوجه ، مثال ذلك : إذا انتزعنا جزءاً من أمعاء حيوان كالأرنب ، بعد أن يوضع فى محلول خاص ووسط ملائم من الحرارة ، فإن العضلات تظل تتقلص وحدها ؛ أما عند الإنسان فإن أغلب الحركات غير الإرادية تخضع للجهاز السمبتاوى والباراسمبتاوى .

وهناك بعض حركات أطلقنا عليها اسم الفعل المنعكس البسيط ، وهى التى تصل إلى مراكز النخاع الشوكى فقط ، مثل حركة الرِجْل عند ما تضرب أسفل الركبة ضربة خفيفة .

وهناك حركات أخرى يصدر الأمر بها من مراكز الحركة فى المخ ، ومنها إلى الألياف النازلة أو المصدرة حتى النخاع المستطيل والنخاع الشوكى ، ثم إلى أعصاب الحركة . هذه الحركات الصادرة عن المراكز العليا فى المخ ، تسمى الحركات الإرادية .

والموازنة بين الإنسان والحيوان فيما يختص بالإرادة ، توضح لنا طبيعة الفعل الإرادى . فالحيوانات الدنيئة لا إرادة لها ، لأن سلوكها يكون بالأفعال المنعكسة أو الغريزة ، ومع ذلك فقد رأينا أن الحيوان قد تطرأ عليه ظروف تضطره إلى تغيير سلوكه ، مثل الأرضة[١] التى تطعن فريستها وتجرها إلى الجحر ، ثم تعدل طريقتها بالمحاولات الحسية ، والتجارب العملية ، وحذف الأخطاء .

أما الأنسان فإنه لا ينزل إلى ميدان التجربة العملية والتلمّس ، بل «يتصور» العمل والطرق المختلفة التى تؤدى إلى تحقيقه ، ثم ينتهى بفكره إلى أفضل طريق . مثال ذلك القط حين يرى باباً مقفلاً ، فيحاول فتحه عملياً ، ويخدش بمخالبه ، ويأتى بكثير من المحاولات . أما الإنسان فإنه يقف أمام الباب ثم يفكر كيف يفتحه ؟ بالعنف ؟ بمعالجة الرتاج ؟ ... حتى إذا استقر تفكيره عند رأى اندفع إلى تنفيذه ، فمحاولات الإنسان عقلية ، إذ يبصر بذهنه الخطأ والصواب .

وهناك إرادة كفٍ عن الفعل ، لقيام موانع توقف العمل ، كالكاتب الذى يريد أن يخرج للنزهة ، ثم يجد أن ثمة الكتابة أوجب ، فيمنع نفسه من الخروج بإرادته .

---

(١) Guêpe.

أمراض الإرادة :

للمراكز العليا من المخ نوع من الإشراف على المراكز السفلى . وقد رأينا أن الحركة الإرادية تصدر عن المراكز العليا فى المخ ، ومنها إلى النخاع المستطيل والنخاع الشوكى ، ثم إلى أعصاب الحركة ، وفساد أى مركز من هذه المراكز يؤدى إلى اضطراب الحركات الإرادية . فالشلل يحدث اضطراباً فى الإرادة ، ويرجع ذلك إلى فقدان الرقابة على الحركات ، فإذا أراد المريض أن يتناول كوباً من الماء ، فإنه لا يستطيع أن يسدد يده نحوه ، بل تظل يده تتذبذب مدة قبل أن يقبض عليه . وفساد مراكز الحركة يؤدى بالمريض إلى أن يفعل حركات صبيانية ، ويجسم الانفعالات لأسباب تافهة ، وينتقل من الضحك إلى البكاء بسهولة ، ويكثر عنده الاندفاع ، ويكرر بعض الأعمال والجمل تكراراً آلياً ، ويفقد الشعور بالمسئولية ، ويميل إلى الهذر الخالى من الأدب .

وقد تؤدى الأمراض العصبية والنفسية ، التى لا تصحب بفساد المخ ، إلى مرض الإرادة . وأول هذه الأمراض هو سهولة الإستهواء ، أو الميل إلى الانقياد لتأثير أفكار الغير عن طريق المخاطبة أو القدوة . والأطفال والجماعات أكثر قبولاً للإيحاء عادة ، لأن الطفل أو الفرد فى الجماعة يفقد الرقابة الشخصية على فكره ، وتضمحل شخصيته ، فيذوب فى غيره . بينما الشخص العادى يفكر وينتقد ويقاوم مقاومة عقلية ، بدلاً من الانقياد الأعمى الآلى لأوامر الغير . وهنا يجب علينا ألا نخلط بين هذا الإيحاء المريض ، وبين الإيحاء الصحيح الذى يجرى بين الناس عادة[1] .

---

(١) راجع صفحة ٦٨ .

وتزداد قابلية الاستهواء عند بعض العصبيين فى حالة الصحو ، وتكون أكثر شدة فى التنويم المغناطيسى أو الجولان النومى[١] .

ومن أمراض الإرادة العناد ، وهو عكس الاستهواء . والعنيد هو الشخص الضعيف الذى يريد أن يستر ضعفه بالعناد الأعمى الخالى من النقد العقلى والتفكير. وقد يكون الدافع لهذا العناد حب الظهور المعوج ، كالذين يتبعون مبدأ « خالف تعرف » . وحب المخالفة والمعارضة نوعان من السلوك أساسهما الدفاع ضد إرادة الغير ، ولكنه دفاع ذو مستوى منحط ، إذ أن المخالفة لا تصحب بالمناقشة والأدلة . وكثيراً ما يوجد العناد وحب المخالفة والمعارضة عند الأطفال ، وذلك لقصور عقولهم .

ومن أمراض الإرادة الفكرة الثابتة[٢] ، وهى تلك التى تستولى على صاحبها فتقوده وتسيره دون أن تجد مقاومة أو نقداً . فالإنسان فى هذه الحالة يكون فى شبه ذهول عن كل شىء إلا عن هذه الفكرة .

ومن هذه الأمراض أيضاً ما يعترى صاحب النزوات ، وهو الشخص الذى يجرى باندفاع وراء كل نزوة تطرأ على ذهنه . والنزوة عبارة عن فكرة تؤدى سريعاً إلى العمل ، دون أن يبحثها صاحبها فى ضوء العقل .

ومن الأمراض الشائعة فى الإرادة التردد ، حيث يظل المريض متردداً بين فكرتين ، فلا يستطيع أن ينتخب إحداهما ، ولا يصل إلى العزم والتصميم . ومرض العزيمة يجعل الإنسان حائراً لا يستقر على رأى حتى فى الأشياء البسيطة التافهة ، كشراء قلم رصاص ، أو كراسة ، أو منديل . والحقيقة أن العمل نفسه ليس

---

(١) Somnambulisme.

(٢) Idée fixe.

عسيراً أمام المتردد ، ولكنه يفقد الاستقلال فى الرأى . ولذلك فإن مثل هذا الشخص يخضع بسهولة لإيحاء الغير ، وينقاد له وينفذ العمل الذى يتردد فيه . فمرجع الاضطراب هنا هو صعوبة الخروج من هذا الصراع الفكرى . مثل هؤلاء المترددين يحبون دائماً أن يكونوا خاضعين لغيرهم فى الحياة الاجتماعية .

الفصل التاسع

الإحساس[1]

يخرج المرء إلى الطريق ، فيرى المارة والعجلات ، ويسمع ضجيج الناس ، وأبواق السيارات ، وهو بين كل هذا يريد أن يسير وأن يسدد خُطاه ، متوجهاً إلى غايته متجنباً الاحتكاك بالمارة ، متحاشياً التصادم بالسيارات . فكيف يتيسر له كل ذلك ؟

لا بد من « معرفة » هذه الأشياء المختلفة المحيطة به ، ليشق طريقه ، ويسلم من الأخطار .

كيف تتم له هـذه « المعرفة » ؟ وما هى العوامل المختلفة التى تتعاون على العلم بالأشياء الخارجية ؟

المعرفة التامة بالأشـياء ، المميزة لهـا ، المحددة لمكانها ، تسمى « الإدراك الحسى » . فإذا سمعت بوق السيارة فى الطريق ، فإنك تميل جانباً ، لأنك أدركت أن وراءك سيارة .

تسمع السيارة قادمة من خلفك فتتجنبها ، هـذا السلوك الذى يتم فى لحظة قصيرة ، يحتاج منـا إلى تحليل طويل . ويحسن أن نبسط أجزاء هذا السلوك ، ثم نعود إلى الكلام على كل جزء .

وإذا وضعنا اللغة العلمية جانباً . ونظرنا إلى الأمر نظرة خالية من التعقيد ، فإننا نبسط السلوك كما يأتى : —

١ — صوت السيارة .

---

(١) Sensation.

٢ — الأذن .

٣ — الإحساس بسمع الصوت .

٤ — تمييز هذا الصوت بأنه صوت سيارة .

٥ — تجنّب السيارة .

والجزء الخامس رد على مؤثر خارجي .

أما الأجزاء السابقة فهى جماع « المعرفة » بشىء خارجي .

وقد تسأل هل يستطيع الأصم أن يسمع الأصوات ؟ إنه لو سار فى الطريق لدهمته السيارات من الخلف وهو غير سميع .

« فالسمع » ضرورى « لمعرفة » الأصوات .

« والبصر » ضرورى « لمعرفة » الضوء والألوان والأشكال .

وسنفرد باباً خاصاً لهذه المعرفة التى تعقب السمع والبصر .... ألخ . وهو باب الإدراك الحسى .

أما هذا السمع « الضرورى » للمعرفة ، وهـــذا البصر « الضرورى » للمعرفة . . . . . ألخ ، فهو الذى نسميه الإحساس .

ويعرفون الإحساس بأنه الظاهرة الأولية فى الحياة العقلية ، التى تنشأ عن أثر الضوء أو الصوت أو الحرارة .... ألخ فى أعضاء الحس[١] .

وأغلب إحساساتنا تنشأ عن تأثير العالم الخارجي فى الحواس المختلفة . ولكن هناك إحساسات أخرى أسبابها باطنة ، كالإحساس بالمجهود حين نحرك عضلاتنا ، أو الإحساس بالجوع والعطش .

ويمر الإحساس فى مراحل ثلاث : —

---

(١) Nouv. Traité de psych. Dumas Tome II page 83.

١ — مرحلة فيزيقية[١] :

وهى المؤثرات الفيزيقية ، كالضوء ، والصوت ، والحرارة ، والتيارات الكهربائية ... ألخ ، التى تنبعث عن الأشياء الخارجية ، وتصل إلى أعضاء الحس .

٢ — مرحلة فسيولوجية :

ويتم فى هذه المرحلة تأثر أعضاء الحس ، ثم انفعال أعصاب الحس العامة ، أو الخاصة ، ووصول الأثر إلى المراكز العصبية .

٣ — مرحلة نفسية :

هى الشعور بهذا الأثر . ولا يتم الإحساس إلا فى هذه المرحلة ، لأن جميع الظواهر التى سبقت الإحساس ، بما فيها التغيير الذى حدث فى المخ ، ذات طبيعة فسيولوجية[٢] .

وقد فطن الناس من قديم إلى الحواس الخمس ، وذلك تبعاً لأعضاء الحس ، وهى البصر والسمع والشم والذوق واللمس . ولكننا الآن بفضل الأبحاث الفسيولوجية ، قد توصلنا إلى معرفة أنواع أخرى من الإحساسات . وسنذكر فيما يلى أنواع الحواس .

١ — الحواس الباطنة :

وهى الحواس المتصلة بكثير من العضلات والأعصاب والأجهزة المختلفة ، كالجهاز التنفسى والهضمي والدموى ... ألخ . وهذه الإحساسات هى الإحساس بالتعب ، والإحساس بالثقل أو الخفة ، بالضيق ، بالجوع ، بالعطش .... ألخ .

٢ — حاسة اللمس :

وهى التى تحس بالخشونة والنعومة والصلابة واللين ، وعضو هذه الحاسة هو

---

(١) Physique.

(٢) المرجع السابق صفحة ٨٣ .

سطح الجلد . ويحدث الإحساس من تهيج الأعصاب التى تنتهى إلى سطح الجلد وهناك بعض أجزاء الجلد تكون أكثر تأثراً من غيرها باللمس ، فأطراف اليد — وهى الأصابع — أكثر مواضع الجلد إحساساً باللمس . كذلك الذراع أكثر إحساساً من الظهر . والواقع أن للمران أثراً فى حدة اللمس ، فاليد اليمنى أفضل من اليسرى فى إحساسها .

وحاسة اللمس هى أعم الحواس وأشملها ، وربما كانت هى الحاسة الفطرية الأصلية ، وليست سائر الحواس إلا فروعاً منها تميزت واختصت ؛ فالبصر إن هو إلا لمس يتأثر بالموجات الضوئية ، والسمع لمس يتأثر بالموجات الصوتية .

٣ — الإحساس بالحرارة :

ظل الناس طويلاً يخلطون بين اللمس وبين الإحساس بالحرارة ، وقد ظهر أخيراً اختلافهما . فقد تبين من التجارب الحديثة أن مواضع سطح الجلد التى تتأثر بالضغط أو باللمس ، غير التى تتأثر بالبرودة أو الحرارة . وهذه الحاسة قد تكون باطنة كالإحساس بالحمى أو الرعشة ، وقد تكون ظاهرة نتيجة الاتصال بالوسط الخارجى ؛ وهذا الإحساس نسبى ، فإذا كان الجسم المتصل بسطح الجلد يماثل فى حرارته حرارة الجسم ، لم يميز الإنسان الإحساس .

٤ — الإحساس العضلى :

وهو الإحساس بالضغط والمقاومة والمجهود ... ألخ . ويختلف العلماء فى تحديد عضوه ، هل هو من احتكاك العضلات بعضها ببعض ؟ أو نتيجة احتكاك العضلات بأعصاب الحس ؟ أو هو من عمل أعصاب الحركة وبذل أى مجهود ؟

هذه الحواس السابقة يشترط فيها تماس المؤثر الخارجى وعضو الحس حتى تتم عملية الإحساس .

٥ — حاسة التوازن :

وهى الإحساس بأوضاع الجسم أو أعضاء الجسم المختلفة فى الفضاء . فالإحساس بالوقوف أو الجلوس أو الاضطجاع ، أو بحركة الذراع أو القدم ، كل هذا هو ما نسميه حاسة التوازن .

٦ — حاسة الاتجاه :

وهى حاسة لم تكتشف إلا حديثاً ، وهى إحساس باتجاه الجسم إلى اليمين أو اليسار أو الأمام أو الخلف ، وعضو الحاسة هو القنوات الهلالية فى الأذن ، وهذه القنوات مملوءة بسائل يتمايل كلما تمايل الجسم .

٧ — الذوق والشم :

وهما حاستان أكثر تعييناً مما سبقهما ، وعضو الأولى اللسان والثانية الأنف ، ويجتمعان معاً تحت نوع واحد من الحواس ، لأنهما يتأثران تأثراً كيائياً ، ويتصلان ببعض صلة كبيرة ، كما يحدث حين يصاب الإنسان بزكام ، فيضعف الشم والذوق فى وقت واحد . ويتأثر الذوق بالحلو والمالح والحامض والمر . أما الشم فهو إحساس عن بعد ، إذ تخرج رائحة من الجسم يحملها الهواء وتتصل بالأنف فيتم الإحساس . ونحن نصف المشمومات بالمصدر الآتية منه ، فنقول رائحة ورد أو بنفسج .

٨ — حاسة السمع :

وهى الإحساس بالأصوات والأنغام ؛ ويسمع الشخص عن طريق تأثر السائل الذى يجرى داخل الأذن من تذبذبات الهواء ، وتحصل الأنغام من الذبذبات المتساوية فى الطول ، مثل ضربات الموسيقى أو أى إيقاع منظم . أما الأصوات العادية أو الدوى ، فهى نتيجة عدم انتظام الذبذبات الأثيرية بين الطول والقصر وعدم تجانسها . ويستطيع الإنسان التمييز بين الأصوات فيا بينها ، وذلك تبعاً

للسلّم الموسيقى الذى يشمل سبع درجات . فهذه الحاسة إذن أدق عند الإنسان من حاستى الشم والذوق ، لأننا لا نستطيع التفرقة بين المشمومات من نوع واحد إلا فى صعوبة . ومن ناحية أخرى يستطيع الإنسان أن يميز الأصوات فى ذاتها لا عن المصدر الذى صدرت عنه .

٩ — حاسة البصر .

وهى الإحساس بالمرئيات بما فيها من أضواء وألوان وأشكال . وعضو هذه الحاسة هو العين . والبصر والسمع والشم من الحواس التى يكون مؤثرها بعيداً عن الإنسان ، ولذا نحن نرى الأشياء عن بعد . وللعين خاصة تركيز الصور التى تراها فى بؤرة واضحة على العدسة ، أى المكان الذى تكون فيه الصورة أوضح ما تكون ، وهو بالقرب من عصب الإبصار .

وهذه الحاسة أكثر مما سبقتها تعييناً وتمييزاً لما تستقبله من مؤثرات ، فلها القدرة على تمييز الألوان السبعة المعروفة ، ولها أكثر من هذا القدرة على الإحساس بالدرجات المتعددة التى يحتوى عليها اللون الواحد .

هذه هى حواس الإنسان ، التى يتعرف بها العالم الخارجى ، وبدونها لا تتم له أى معرفة خارجية . فالأعمى الذى ولد كذلك ، لا يعرف ما الألوان وما الأنوار ؟ ولو تصورت إنساناً خالياً من الحواس جميعاً ، السمع والبصر واللمس والذوق والشم وسائر الحواس ، لكان هذا الإنسان أقرب إلى النبات منه إلى الإنسان .

وليست جميع الحواس بالنسبة للإنسان ذات أهمية واحدة . وإذا رجعنا إلى أنفسنا نستقرىء أى الحواس أكثر استعمالاً وأكبر فائدة ، لكانت حاسة البصر فى مقدمتها ، ويتلوها السمع . وليست الحواس بمثل هذا الترتيب وهذه الأهمية عند جميع الحيوانات ، إذ أن أول وأهم حاسة يستعملها الكلب ويستفيد منها ، هى الشم .

هـذا وكلما كثر استعمال الحاسـة تحددت وأصبحت لهـا القدرة على تمييز المؤثرات الخارجية ، ولذا نجد البصر — لأن الإنسان يستعمل هذه الحاسة أكثر من غيرها — قد وصلت إلى هذه الدرجة . ويلى حاسة البصر فى أهميتها حاسة السمع . ويخيل إلينا أن هاتين الحاستين ، البصر أولا والسمع ثانياً ، هما أكثر الحواس استعمالاً وفائدة للإنسان ، من حيث هو عامل ، ولذا كان البصر أكثر الحواس اكتساباً للمعلومات . ذلك أنه قد ثبت بالتجارب أن أغلب النـاس يفهمون عن طريق القراءة ، أى عن طريق البصر ، أكثر مما إذا سمعوا ما يُقرأ عليهم .

والخلاصة أن الإحساس يمر فى هذه الأدوار :

١ — وجود « مؤثر[١] » خارجى يؤثر فى عضو الحس .

٢ — انفعال عضو الحس ، وتأثر أعصاب الحس ، ونقل « الأثر[٢] » إلى المراكز العصبية .

٣ — الإحسـاس ، أى الشعور بالأثر الذى أحدثه المؤثر .

فإذا رأيت شخصاً ، فالإحسـاس الذى حصل ينقسم إلى ثلاث مراحل ، الأولى وجود الشخص وهو المؤثر الخارجى ، إذ لو لم يكن موجوداً لمـا رأيته ؛ والثانية تأثر العين بصورة الشخص الخارجيـة ، والتى وصلت إلى العين فى هيئة موجات ضوئية ، ثم انفعال عصب الإبصار وانتقال هذا الأثر إلى المخ ، والثالثة الشعور بالأثر .

كذلك حين تسمع مدفع الظهر ، يكون هذا دليلاً على انطلاق المدفع الذى يحدث الصوت ، ودليلاً على أن هذا الصوت قد وصل إلى الأذن وتأثرت به ، وعلى أن أعصاب السمع قد نقلته إلى المخ ، ثم على الشعور بوجود الصوت .

---

(١) Excitant.

(٢) Excitation.

الادراك الحسى

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ ، وَلَـٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ »

[سورة الحج — ٤٥]

ضربنا فى الفصل السابق المثل بالمار فى الطريق الذى يسمع صوت السيارة فيتجنبها ، وقلنا إن هذا السلوك رد على مؤثر خارجي ، ووجدنا أن « معرفة » المؤثر الخارجي تم أولاً عن طريق الإحساس .

والواقع أن تقسيم العمل إلى إحساس ، و إلى معرفةٍ تعقب الإحساس ، هو تقسيم صناعى . ولكننا لسهولة البحث فصلنا الإحساس ودرسناه على حدة . أما المعرفة بالأشياء الخارجية فهى كلٌّ لا يتجزأ .

ولست تجد الإحساس الخالص الخالى من المعرفة ، إلا فى النادر ، عند الطفل الحديث الولادة ، فهو يرى و يسمع ، ولكنه لايعرف مايرى وما يسمع(١) .

هذه المعرفة التى تعقب الإحساس تسمى الإدراك الحسّى(٢) .

و ينبغى أن نجعل فى بالنا أن هناك شرطين(٣) يتوفران فى كل إدراك حسّى :

---

(١) Woodworth p. 312.

(٢) Perception

(٣) Psych. par, Guillaume p. 144

(١) كل إدراك حسّى هو فى أول الأمر رد من الكائن جملة ، على مجموعة من المؤثرات .

(٢) كل إدراك حسّى عبارة عن ردّ على هذه المجموعة من المؤثرات صادر عن شخص له ذكرياته ، وعاداته ، واتجاهاته الفكرية والوجدانية .

ونعود بعد ذلك إلى تحليل عملية الإدراك الحسّى .

الانتباه :

قبل أن ندرك شيئاً ما ، يجب أن نحضر أنفسنا ونهيّئ عقولنا لإدراكه . والواقع أن كل عمل أو سلوك يحتاج إلى التهيئة والانصراف إليه والاستعداد له قبل القيام به . فالكاتب إذا أراد الكتابة يحضر نفسه ، ويبعد عنه جميع المشاغل الأخرى ، وينصرف عن التأثر ، أو قل إنه يتعمد الانصراف عن التأثر بأى شاغل يحيط به ، ليفرغ نفسه ويستعد للكتابة . هذا الاستعداد هو ما نسميه الانتباه ؛ وهو يتطلب أن يتخذ الشخص هيئة خاصة تلائم ما يريد أن ينصرف إليه ، وأن يرهف الحواس التى يحتاج إليها فى درك ما يريد أن يدركه ، كالشخص الذى يستمع إلى مغنٍ ، فإنه يجلس جلسة معينة متوجهاً إلى المغنّى ، ثم يفتح أذنيه وعينيه لتلقى الأغانى وتتبع الحركات والإشارات ، حتى لا تفوته آهة أو تفلت منه إشارة . وهو فى وضع جسمه يكون متطلعاً إلى الأمام مشرئبًّا بعنقه ، مصوّباً عينيه ، مرهفاً أذنيه ، حتى يتلقى كل شىء . وفى البصر تجد العين مركزة على الشىء الذى يريد الشخص أن يراه ، حتى ترتكز الصورة التى يراها فى بؤرة واضحة على العدسة كى يحسن الإبصار ، وإذا كان الشىء متحركا تتبعه بكل دقة وتركيز ، حتى يكون الإحساس كاملاً دقيقاً .

هـذا هو الانتباه المتعمد الذى يقصد صاحبه أن يبلغ به إلى معرفة الأشياء الخارجية . وكثيراً ما يكون هناك دواع تجذب الإنسان وتدفعه إلى أن ينتبه رغماً عنه . وفى هـذه الحالة يتخذ هيئة الانتباه التى ذكرنا سابقاً . وتختلف العوامل التى تدفعنا إلى الانتباه ، وتختلف من شخص إلى آخر ، وتختلف بحسب الظروف والأحوال و بحسب الميول الموجودة عند كل شخص . فإذا ذهب عدة أشخاص إلى ملعب كرة القدم مثلاً ، فقد يلتفت أحدهم إلى اللاعبين ، وقد ينتبه آخر إلى المتفرجين ، وثالث إلى اللعب نفسه . . . ألخ ، وذلك حسب ما يدعو إلى الانتباه عند كل منهم .

الإدراك الحسّى :

بعد أن يحضر الإنسان نفسه للإدراك عن طريق الانتباه ، سواء فى ذلك ما كان معتمداً أو غير معتمد ، كيف يتم الإدراك بعد ذلك ؟

أمامك كتاب فكيف تدرك أن هـذا الشىء كتاب ؟ سمعت صوتاً فكيف تدرك أن هذا الصوت صوت سيارة ؟ دخلت فى الظلام حجرة لتحضر طربوشاً فكيف تدرك الطربوش حين تلمسه ؟ مررت بمنزل فشممت رائحة خاصة فـكيف تدرك أنهـا رائحة لحم يشوى ؟ تذوقت شراباً فـكيف تدرك أنه شراب البرتقال أو الليمون .

كل هذه الأمثلة مدركات حسية قائمة على الإحساس ، فكيف وصل الإنسان إلى معرفة الـكتاب أو السيارة أو الطربوش أو الشواء أو الشراب ؟ لنأخذ مثل الـكتاب الذى تراه أمامك ونحلل كيف وصلت إلى إدراكه على أنه كتاب ، فهناك :

١ — مؤثر خارجي ، وهو هنا الكتاب .

٢ — الحاسة ، وهى الواسطة بين المؤثر الخارجي والمخ ، وهى هنا العين .

٣ — انفعال العصب البصرى ، ونقل هذا الأثر إلى مركز الإبصار فى الجزء الخلفى من المخ .

وإلى هنا تتم عملية الإحساس التى شرحنا سابقاً .

٤ — استقبال العقل للإحساس ، فيشعر بوجوده ، ثم يؤوله ويخلع عليه معنًى مفهوماً .

فالإدراك الحسى هو شعور الشخص بالإحساس أو مجموعة الإحساسات التى تصل إليه عن طريق حاسة أو مجموعة من الحواس ، ثم تأويل ما يشعر به فينتج عن ذلك معرفة الأشياء الخارجية .

الشعور بالإحساس :

من الصعب التفرقة بين الإدراك والإحساس ، إذ أنك لا تجد فى الواقع — إلا فى الأحوال النادرة — إحساساً لا يعقبه إدراك . فالطفل الحديث الولادة يتأثر بشتى الإحساسات ، ولكنه لا يدرك منها شيئاً ، أى لا يكوّن لها معنى صحيحاً فى ذهنه ، وبعبارة أخرى لا يستطيع أن يلائم بين نفسه وبين مقتضيات الإحساسات التى تصل إليه ، فهو يخطىء ويتعثر حين يرد على المؤثرات الخارجية ، لهذا السبب فإنه يرى القمر فلا يستطيع أن يدرك أنه من البعد بحيث لا يمكن الوصول إليه ، ولذلك يحاول الإمساك به . ثم لا يلبث أن يميز بين الإحساسات المختلفة ، كالسمع والبصر مثلاً . وإذا وخزه دبوس بكى لأنه يشعر بالألم ، ولكنه لا يدرك مصدر الإحساس .

ومن الأمثلة التي نعثر فيها على إحساس خالص مَثَل الشخص المستغرق فى النوم ، الذى يستيقظ فجأة لسماع صوت مزعج ، فإنه يرى ويسمع ولكنه يظل عدة لحظات لا يدرك ما يرى وما يسمع ، إذ هذه الإحساسات لم تميز فى عقله ، ولو أنه يشعر بها . أما فى حالة النوم العميق أو التخدير مثلا فإنه لا يشعر بها ولا يدركها .

أو كالمسافر فى قطار السكة الحديدية ، يجلس فى مقعده يسمع دوياً مزعجاً وضجيجا مستمراً ، عنده إحساس بهذه الأصوات ، ثم يشعر ويميز هذا الدوى وهذا الضجيج حتى إذا ما انصرف ذهنه إلى شيء آخر كأن ينهمك فى قراءة جريدة فى يده ، لم يدرك من هذا الصخب شيئاً ، ولم يشعر به ، ولكن الصوت يصل إلى أذنيه ، وتتأثر به أعصاب الحس ، فعنده إذن إحساس دون أن يكون عنده إدراك .

أو كلاعب الشطرنج الذى يمسك لفافة التبغ بين أصابعه يدخنها ، ثم ينصرف إلى اللعب والتفكير فيه ، فتحترق اللفافة حتى تصل إلى يده وتلسعها ، فلا يدرك الألم الذى يحدث بأصابعه ، ولا يشعر به . فالشعور بالإحساس أمر ضرورى لإدراك الأشياء . والإدراك الحسى هو الشعور المباشر لشيء أو موقف خارجي تتأثر به حاسة واحدة أو مجموعة من الحواس ويصل إلينا عن طريق الإحساس .

تأويل العقل للإحساس :

تبين لنا أن الإحساس الخالص غير موجود إلا فى النادر ، ولا بد من إضافة الإدراك إلى الإحساس حتى تتم المعرفة بالأشياء الخارجية .

والإحساس الذى يصل إلى أذهان عدة أشخاص من شيء خارجي واحد ، يكون واحداً عند الجميع ، لأن التركيب الفسيولوجي للشخص العادى متفق عند

جميع الناس . فإذا كنا فى حجرة مقفلة وسمعنا صوتاً عالياً ، فإن هذا الصوت عبارة عن موجات هوائية ذات طول مخصوص ، تتأثر بها آذاننا جميعاً ، وتنقلها أعصاب الحس إلى مركز السمع فى المخ ، فالإحساس بهذا الصوت واحد عندنا جميعاً ، فهل يكون إدراكنا له متفقاً ؟ قد نختلف فى إدراكه ، فأحدنا يقول إنه صوت طلقة نارية وآخر صوت باب يقفل . وثالث صوت فرقعة عجلة سيارة . . . . فإدراكنا للشىء الواحد يختلف من شخص إلى آخر ، ويختلف عند الشخص الواحد باختلاف الزمان ، ففيم يقع هذا الخلاف فى الإدراك ؟ بل كيف ندرك الإحساس الذى يصل إلى الذهن ؟ ذلك أننا قد نرى جميعاً شجرة أو شخصاً أو منزلا أو أى شىء آخر ، ثم نتفق على إدراك ذلك الشىء بشكل واحد ، فهناك أحوال نتفق فيها على الإدراك ، وأحوال أخرى نختلف فيها ، ويستمد ذلك من عدة عوامل نشرحها فيما يأتى :

١ — الشىء الخارجى .

يتوقف الإدراك الحسى إلى درجه كبيرة على طبيعة الشىء الخارجى . فهناك أشياء مألوفة تقع تحت بصرنا وسمعنا كل يوم ، واتفقنا على تسميتها ومعرفة فائدتها وهناك أشياء جديدة نراها لأول مرة .

والإدراك الحسى هو اكتساب حقيقة خارجية ، تصبح معرفةً بانتقالها إلى العقل ، ومتى وصل الشىء الخارجى إلى الذهن نحاول أن نؤوله ، وإلا بقى غامضاً لا معنى له . فالأشياء التى نتفق جميعاً على إدراكها ومعرفتها بشكل واحد ، تكون فى الواقع أشياء مألوفة سبق لنا إدراكها ، وإذا نظرت إلى الطفل الصغير تجد أنه يخطىء فى إدراك الكتاب أو الشجرة ، كما نخطىء نحن فى إدراك الأشياء التى نراها لأول مرة .

والشىء الخارجى يكون مركباً عادة من عناصر مختلفة ، أو صفات متعددة ، ولكننا فى الواقع ندركه فى « مجموعه » ، بحيث تصل صورته كاملة إلى الذهن . فالكتاب له صفات كثيرة ، شكله وحجمه ولونه ... ألخ . وإذا فرضنا أن الشىء الخارجى ، عبارة عن حجرة فيها أثاث مركب من كراسى ومكتب ومناضد ، فإدراكنا الحسى لها هو انطباع هذه الصورة بمجموعتها فى الذهن كما هى عليه . أما إذا أدركت العلاقات الموجودة بين الكراسى ، أو النظام الموجود عليه الأثاث ، أو أن الكرسى فى ذاته شىء صالح للجلوس عليه ، فلا يسمى هذا إدراكا حسياً . وبعد وصول هذه الأشياء إلى الذهن يحاول العقل إعطاءها معنى ، وهذه طبيعة من طبائع العقل ، لأن الإنسان على حسب المعنى أو الصفات التى يدركها من الأشياء يكون تصرفه بإزائها .

٢ — التأويل .

يتوقف الإدراك الحسى على ناحيتين ، ناحية موضوعية هى الشىء الخارجى نفسه ، وناحية شخصية تتوقف على أنفسنا . واختلاف الإدراك ينشأ من الطريقة التى ننظر بها إلى الأشياء ، وكيف نوجه انتباهنا إليها ، ويتوقف على عدة عوامل أخرى . فإذا رأيت شيئاً مستديراً أحمر تقول تفاحة ، وإذا سمعت صوتاً وصفيراً تقول قطار ، أو سمعت بوقاً تقول سيارة ، وإذا شممت رائحة طيبة تقول هذا ورد .... ألخ . ومع ذلك فإنك لم تر القطار نفسه ولم تنظر الوردة . وهناك عوامل كثيرة تتدخل فى تفسير ما يصل إلينا من إحساس ، نجملها فيما يلى :

(ا) الترابط .

تتكون التفاحة مثلا حين إدراكها من جملة إحساسات ، شكلها وطعمها وحجمها ورائحتها وملمسها . وأغلب الأشياء التى ندركها إدراكا حسياً ، يشترك

فى إدراكها جملة حواس . فنحن حين ندرك التفاحة نربط فى الذهن شكلها برائحتها بطعمها بملمسها بحجمها ، ولو لم يوجد هـذا الربط لاختلط علينا التفاح الحقيق بالتفاح الصناعى الذى يشبهه فى شكله وحجمه فقط .

وإذا أدركت شيئاً لأول مرة لا تستطيع أن توجه انتباهك إلى كل جزء من أجزائه دفعة واحدة . وإذا كان حقاً أن المجموع يكون كله موجوداً بالذهن فإنه يكون غامضاً ، ولا تعرف منه على وجه الدقة إلا الجزء الذى تركز فيه انتباهك . فإذا رأيت الشىء مرة ثانية تكون قد عرفت ذلك الجزء الذى اهتممت به وأدركته فتنصرف من جديد إلى جزء آخر ، ثم تترابط الأجزاء بعضها ببعض .

إذا نظرت إلى التقويم الذى يعلق بالحائط ، تجده مركباً من « لوحة » من ورق « الكرتون » وبهـذه اللوحة صورة أو إعلان أو زخرف ، ثم فى أسفلها التقويم نفسه به تاريخ اليوم باللغة العربية والأجنبية ، من هذه المجموعة التى تبصرها لا تدرك فى الواقع إلا شيئاً واحداً هو الذى يتركز فيه انتباهك ، إلا إذا انتقلت ببصرك وانتباهك من جزء إلى آخر بسرعة . فإذا فرضت شخصاً لم يسبق له إدراك مثل هذا التقويم فإنه لن يعرفه لأول مرة ، ولكنه قد يدرك الصورة أو الزخرف فقط لأنه يعرفه قبل ذلك ، ثم يربط بعد ذلك التقويم بتلك الصورة ، ثم يربط التقويم بالتـاريخ . فأنت تدرك الشىء بأكمله مع أنك لا تدرك إلا جزءاً منه ، لأن أجزاءه مرتبطة فى ذهنك . وهكذا كلما تكرر الإدراك ، وضح وزاد المعنى .

(ب) التجارب السابقة .

تقوم المعرفة على التعلم والكسب والخبرة السابقة . وتلعب الذاكرة دوراً كبيراً فى هذا الشأن ، إذ يتـذكر الإنسان ما يمر به من خبرة ، فيصبح الجديد قديماً ، والمجهول معروفاً . ثم إن معرفة الأشياء لا تتم دفعة واحدة ، بل تتدرج فى الوضوح

كلما طال عهد الإنسان بها ، وهذا نتيجة الذاكرة . وبدون الخبرة السابقة تكون المعرفة ناقصة غامضة ، فالشخص الذى يعرف السجاد لأنه رأى بعضاً منه فى المنازل ، غير هواة السجاد الذين يميزون أصنافه المختلفة ، وقد يخلط الجاهل بين السجاد وبين أنواع أخرى لا تمت إليه بصلة . والسيارات فى نظر الشخص العادى متقاربة ، أما صاحب السيارة فإنه يميز أنواعها المختلفة . والواقع أن الأشياء تكتسب المعنى الذى نخلعه عليها لا من صفاتها فقط ، بل من فوائدها واستعمالها أيضاً . كذلك الخبرة المباشرة بالأشياء أفضل من المعرفة عن طريق الغير ، أو على حد المثل المشهور « ليس الخبر كالعيان » . لذلك كان العلم النظرى فى الأمور العملية لا يفيد فائدة الخبرة فى كسب المعرفة وتحديدها ، فالطبيب الذى يدرس تشريح الجسم فى الكتب لا تتضح فى ذهنه هذه الحقائق مثل ما إذا شرحه بيده .

فعلى قدر الخبرة السابقة يكون الإدراك . ولذا كان الطفل أقل إدراكاً وفهماً للمحسات من الشخص البالغ ، ويرجع ذلك إلى قلة تجاربه عن الأشياء الخارجية ، وكلما تقدمت السن بالطفل زاد إدراكه .

(حـ) الاتجاه العقلى .

اقرأ هذه الكلمات بصوت عال وبسرعة .

ضرير — غدير — أمير — جير — بير — دير

أغلب الناس يقرأون الكلمة الأخيرة وهى « دير » بإعطائها حركة الكلمات التى سبقتها ، وذلك لأن الذهن قد توجه وجهة خاصة ، ولذا يصعب أن يغيرها ، كالسيارة التى تنطلق فى الطريق فيصعب على قائدها أن يغير اتجاهها فجأة . ومن هذا القبيل مثال الشخص الذى يكون جالساً على مقهى فى انتظار

صديق له فيرى شبحاً من بعيد ، فيدرك أنه ذلك الصديق ، لأن ذهنه متجه هذه الوجهة .

وللحالة النفسية التي تسود الإنسان وقت الإدراك ، أثر كبير في إدراكه . ويختلف التأويل باختلاف تلك الحالة . فإذا كان الشخص في حالة حب أدرك الأشياء المحيطة به على نقيض ما إذا كان في حالة كره ، ولذا قال الشاعر .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

والأم الفياضة بالحنان نحو ابنها تفزع إليه عند سماعها أى حركة ، وتستيقظ من نومها العميق خوفا عليه . وكالذى يلدغه الثعبان مرة ، فيرى الحبل فيخاله حية تسعى .

خداع الحواس

قد رأيت أن المدرك الحسى ، أى الصورة التي تدركها في الذهن عن شيء خارجي بواسطة الحواس ، هو مجموعة صفات هذا الشيء التي تصل إلى الذهن . فالشجرة الموجودة أمامك ، لا تعرفها في ذاتها ، وإنما تعرف ظواهرها فقط . وقد تقول إن كل الناس يتفقون على أنها شجرة ، وهذا صحيح لأن العقول الإنسانية واحدة وطبيعتها من نوع واحد ، فما يراه إنسان ، يراه جميع الناس الاعتياديين متفقاً ، وهذا المدرك الحسى نصل إليه عن طريق التجارب السابقة التي نضيفها بعضها إلى بعض فيتكون هذا المدرك . وكثيراً ما يكون هناك من الأسباب ما يدعو إلى الخطأ في خلع المعنى على الشيء ، وفى هذه الحال لن يطابق الإدراك لحقيقة ، وهذا ما يسمى الخداع . ونحن في حاجة إلى الدقة في اكتساب المدركات لأن الخطأ فيها قد يؤدى إلى عواقب وخيمة ، كالصيدلى الذى يزن المقادير التي

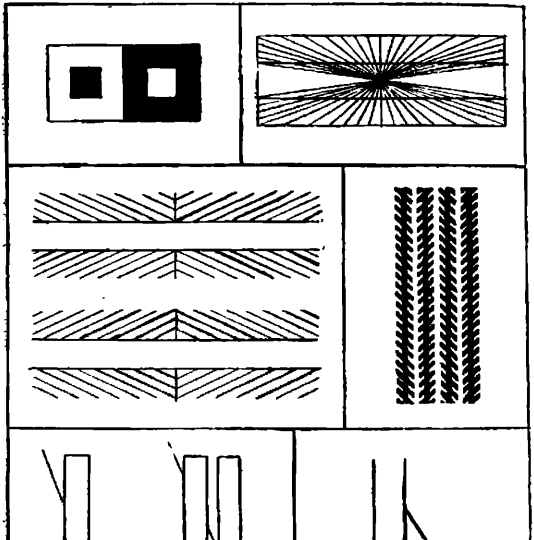
يركب منها الأدوية يحتاج إلى الدقة الشديدة فى إدراك الموازين . كذلك إدراك الزمان يحدث فيه خداع كبير ، فقد تمر عليك دقيقة فيخيل إليك أنها مدة طويلة والعكس ، وذلك حسب الحالة النفسية التى تكون موجوداً فيها . ولذلك إذا احتجت فى أمر من الأمور إلى استعمال الزمان استعمالاً دقيقاً ، فينبغى أن تستعين بالساعة حتى تضمن الدقة ، كالذى يريد أن يسافر فى قطار السكة الحديديه الذى يتحرك فى مواعيد موقوتة .

وللبحث عن سبب الخطأ فى الإدراك ، ينبغى أن نرجع إلى مراحل الإدراك ففيها نجد أسس هذا الخداع . والإدراك الحسى هو نتيجة وجود الأشياء الخارجية ثم وجود الحواس ثم العقل . فالخطأ ينشأ عن هذه النواحى الثلاث : طبيعة الأشياء أو ضعف الحواس ، أو الخطأ فى تأويل العقل .

قد يرجع خداع الحواس إلى طبيعة الشىء نفسه ، إذ يكون مضللاً بطبيعته ، مثل العصا الموضوعة فى الماء فإنها تظهر منكسرة ، لأن طبيعة الأشعة تجعلها كذلك .

ومن هذا النوع الخداع الذى ينشأ عند رؤية الأشكال الهندسية التى تخدع حتماً فى إدراكها ، مثل الخطين المتوازيين اللذين يظهران خلاف ذلك ، والخطوط المتوازية التى تظهر غير متوازية (انظر شكل ٩) . ويعلل الخداع هنا بأن الشكل عبارة عن مجموعة واحدة ، يضطر الناظر إليه أن يراه بأكمله ، ولا يستطيع أن يجرد جزءاً منه . فالمجموعة لها فى إدراكنا صفة مختلفة عن كل جزء على حدة . ونستطيع أن نستغل هذا الخداع فى الحياة العملية ، مثال ذلك الشخص القصير القامة يحسن أن يلبس حلة منسوجها مخطط خطوطاً طولية حتى يبدو طويلاً .

وقد يكون الخطأ نتيجة عدم دقة الحواس ، ويبدو ذلك فيمن عنده قصر نظر أو ضعف فى السمع أو عمى لونى خاص ، فيرى اللون الأحمر أسود بطبيعة



(شكل ٩) خداع البصر

العين . و إذا كنا فى حجرة دافئة وخرجنا إلى الشارع ، فإننا ندرك البرودة الموجودة أكثر مما هى عليه فى الواقع ، وذلك نتيجة ضعف الإحساس الجلدى عن إدراك الفارق الفجائى .

هاتان الناحيتان : ضعف الحواس ، وطبيعة الأشياء ، لا دخل للإنسان فيهما . فطبيعة الأشياء واحدة بالنسبة لكل الناس ، ولذلك نستطيع أن نقول إن ما يظهر لنا مخالفاً للواقع إنما هو الحال الطبيعى .

أما الناحية التى تهمنا من الوجهة النفسية ، فهى الخطأ الذى ينشأ عن تأويل العقل للإحساس .

و إدراك الشىء فى الواقع لا يكون نتيجة إحساس كامل بجميع أجزائه ، بل ما يصل إلى ذهنك هو جزء منه فقط . فأنت تكتفى بجزء من الإحساس ثم تضيف إليه من نفسك ، مثال ذلك إذا سمعت اسمك ينادى به ، وتبينت نغم هذا الصوت ، فإنك تؤول هذا النغم على أنه صوت صديق لك .

فعند الناس تهالك وسبق إلى الإدراك مكتفين ببعض الإحساس . والحقيقة أن الإنسان لا يدرك جميع أجزاء الشىء ، و إنما يدرك بوضوح بعض أجزائه وهى التى يركز فيها انتباهه ، ثم يبنى الإدراك على هذا الجزء . مثال ذلك إذا نظرت إلى بقعة من الحبر لم تقصد منها شكلا معيناً ، ثم طلبت إلى عدة أشخاص أن يدركوا هذا الشكل ، فإنهم يختلفون فى إدراكه ، كل شخص حسب الأجزاء التى يركز فيها بصره ، وحسب خبرته واتجاه عقله .

ينتج عن هذا الاستباق فى الإدراك أن يقع الإنسان فى الخطأ والخداع . فكثيراً ما تتصفح كتاباً فتقرأ كلمة غير موجودة بدل أخرى ، كأن تكون الكلمة غريبة عن موضعها ، أو غير منتظر وجودها ، أو لم تتعودها فى هذا الموضع . فالعين

تتعود إبصار الكلمات متصلة فى الجمل ، فإذا رأيت غيرها مشابهة لها فى الرسم والطول ، نطقت بالأولى التى تعودتها .

وإنما الأمم الأخلاق بقيت فإن هُموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

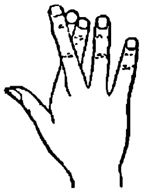
هل فطنت حين قرأت هذا البيت إلى النقص الموجود به ؟ أغلب الذين يقرأون هذا البيت ، يضيفون من عندهم الكلمة الناقصة وهى « ما » بعد كلمة « الأخلاق » فما هو السبب فى هذا ؟ السر هنا أن القراءة لا تكون لكل حرف وكلمة على حدة ، ولكن للجملة بأكملها ، تعنى بما يجرى فيها من معنى قبل أن تلتفت إلى اللفظ الشارد . وأنت قد تعودت سماع هذا البيت ، لذلك تكتفى منه بالإحساس البصرى ببعض الكلمات ، ثم تضيف الباقى من عندك .

وأكثر من يقع فى مثل هذا الخطأ أولئك الذين يصححون تجارب أو « بروفات » المطابع ، فكثيراً ما تمر عليهم الكلمة الخاطئة دون أن يفطنوا إليها ، وذلك لتهالكهم على الإدراك من غير أن يستتم لهم الإدراك الكامل بما يقرأون ، إذ يستعيرون من معلوماتهم السابقة وتجاربهم الماضية ، أساساً يؤولون به الإحساس .

هذا الخطأ أو الخداع قابل للإصلاح فى بعض الحالات ، وغير قابل فى حالات أخرى . فإذا استطعت أن تتحقق الشيء بنفسك أصلحت خطأك ، وتفطن إلى هذا الإصلاح أثر الاختلاف فى النتيجة التى تتوقعها . فإذا قرأت كلمة تخالف الواقع وكانت هذه القراءة مما يغير المعنى ، فإنك تفطن إلى هذا التغيير ثم ترجع إلى الجملة تصححها ، فتفطن إلى الكلمة التى أدركتها خداعاً . كذلك إذا أدركت شخصاً على أنه صديقك ، تذهب إليه وتهم بتحيته ، وحينئذ تتحقق خطأك .

أما إذا كان الشيء غير قابل للتحقيق ، ففى كثير من الأحيان تصر على ما أدركته خطأ .

ومن أمثال الخطأ المبنى على التجربة السابقة والعادة ، أنك إذا وضعت قطعة من الطباشير على صفحة يدك ، ثم مررت عليها بأصبعيك السبابة والأوسط معقودين ، فإنه يخيل إليك وجود قطعتين من الطباشير . وهى تجربة معروفة من قديم ، ذكرها أرسطو وسميت « خداع أرسطو » .



(شكل ١٠)

وهناك من العوامل ما يزيد فى الخداع والخطأ ، وأهمها الاتجاه النفسى . فإذا كنت على ميعاد مع صديق تنتظر مجيئه ، فإن كل صوت تسمعه تعتقد أنه صوت صديقك ، وكل إنسان تراه من بعيد تدرك أنه هو ؛ فوجودك فى حالة خاصة غير الحال الإعتيادية هو ما ينتج الخداع .

ويهمنا فى هذا الشأن تصحيح الخداع ، ويكون هذا إذا أزلنا أسبابه . فينبغى أن يتحقق الإنسان من الأشياء التى يدركها إدراكاً حسياً ، بألا يسرع فى الإدراك ، وألا يدع نفسه فريسة الحالات النفسية التى توجهه وتجعله متحيزاً فى إدراكه .

الفصل العاشر

التصـــور

تصل الأشـياء الخارجية إلى الذهن ممثلة فى مجموع صفاتها ، ويسـمى هذا المجموع المدرك الحسى[1] . هذا المدرك الحسى هو أقرب شىء إلى الحقيقة ، وإلى الشىء الخارجي الموجود فى الواقع ، لأنه يصل إليك عن طريق الحواس ، وأنت منتبه إليه ، مثل إدراكك الـكتاب الذى تقرأ فيـه الآن ، وصلت منه أشعة ضوئية تحدد شكله وحجمه ولونه ووقعت على العين ، ونقلها عصب الإبصار إلى منطقة الإبصار فى المخ فعرفت أنه كتاب . ولـكنك تستطيع أن تصرف النظر عن هذا الشىء الخارجي الموجود أمامك فى الواقع ، ثم تستحضره فى ذهنك على هيئة « صورة » ليس إلا . ذلك أنك تخزن فى العقل المدرك الحسى ، ثم تخرجه إذا شئت دون أن يكون الشىء موجوداً ، وهذا ما نسميه « الصورة »[2] .

وليست جميع الصور من ناحية نوعها ، ومن ناحية سهولة أو صعوبة استحضارها ، ومن ناحية مكانها فى الترتيب واحدةً . فالصور البصرية هى تلك التى نستحضرها عن طريق البصر . وأكثر الناس بصريون ، بمعنى أن تصورهم للأشياء يكون عن طريق البصر لا عن طريق الحواس الأخرى . والأشخاص الذين هم من هذا الطراز يتذكرون ما مرّ بهم من قراءات باستحضار الصفحات المطبوع فيها الكلام . كذلك يترجمون الكلام إلى صور بصرية إذا كان ذلك

---

(١) Percept.

(٢) Image.

مستطاعاً ، والقانون فى نظرهم قاضٍ يلبس رداء القضاء . والبصريون أقسام منهم من يتصور الأشكال ، ومنهم من يتصور الألوان ، ومنهم من يتصور الأبعاد الهندسية . فلاعب الشطرنج يتصور فى ذهنه حركة القطعة التى سينقلها والموضع الذى ستصل إليه ، والصورة هنا بصرية حركية فى آن واحد .

والصورة السمعية هى تلك التى تستحضرها فى الذهن عن طريق السمع . فإذا سمعت نغم بوق السيارة ثم اختفى النغم ، تستطيع أن تستحضر صورة هذا الصوت فى ذهنك فيخيل لك أنك تسمعه . كذلك إذا سمعت النغم الموسيقى فإنك تستحضر صورته فى الذهن بعد سماعه . والسمعى حين يريد أن يستعيد درساً حفظه يستحضره عن طريق السمع لا عن طريق البصر ، كأنه يسمعه ، وإذا أراد أن يجمع عددين فإنه يتمتم بشفتيه أرقام هذين العددين . والموسيقيون سمعيون ، فقد كان « بيتهوفن » يردد صدى مقطوعاته الخالدة فى باطن نفسه ، حتى بعد أن أصيب بالصمم . والقدرة على التصور السمعى أقل من التصور البصرى سواء عند الناس على وجه العموم أم عند الشخص الواحد .

والصورة الحركية هى تصور الأشياء المتحركة ، مثل تصور سيارة تجرى ، أو رجل يمشى ، أو حركة الذراع فى الهواء . وهناك صور شمية وذوقية ولمسية ، وهذه جميعاً أصعب فى استحضارها بل نادرة .

وأغلب الناس أوساط ، بمعنى أنهم لا يختصون بنوع واحد من هذه الانواع السابقة وهى البصرية والسمعية والحركية ، بل لهم القدرة على استحضار الصور السابقة كلها .

وليس شك فى أن الصورة تكون أقل دقة ووضوحاً من إدراك الأشياء نفسها ، إذ ينسى المتصور كثيراً من التفاصيل ، بل كثيراً ما يضيف من عنده

أشياء لم تكن موجودة . وهناك تجربة قال بها « السير فرانسس جالتون » حين توجه إلى العلماء أن يسترجعوا الصور المتعددة عن مائدة طعام الإفطار ، بما عليها من شاى ولبن وجبن و بيض وصحون وملاعق . . . ألخ مع التفصيل الدقيق من حجم وشكل ولون . وتستطيع أن تجرى هذه التجربة على نفسك الآن . فهل تستطيع أن تسترجع طعم ورائحة اللبن أو القهوة أو البيض أو الفول أو الجبن ؟ هل تستطيع أن تسترجع خشونة الخبز أو نعومته ؟

و إذا وازنا بين الصورة والإحساس فإننا نجد أنهما يؤديان إلى نفس النتائج الفسيولوجية والنفسية ؛ فالشَّرِه حين يجلس إلى المائدة ، ويتصور أطباق الطعام واللذة التي سيحصل عليها ، يسيل لعابه مقدماً . والطفل الذى تهدده بالعقاب ، يتصور ألم العصا فيبكى .

التصور والأدب

مما يجعل للآثار الأدبية قيمة ولذة ، وبهاء ورونقاً ، أن نستحضر فى الذهن الصور الحسية لما نقرأ ، بصرية أو سمعية أو حركية أو أى نوع آخر ، فيتضح الأثر الأدبى فى الذهن ، ونستمتع به أكبر الاستمتاع . فإذا قرأت نظم أمير الشعر المرحوم أحمد شوقى مثلا ، وهو يصف الجسر الواصل بين ضفتى البوسفور ، واستحضرت الصور الحركية والبصرية الموجودة فيها ، فإنك بهذا التصور تملؤها حياةً :

أمير المؤمنين رأيت جسراً   أمر على الصراط ولا عليه
له خشب يجوع السوس فيه   وتمضى الفأر لا تأوى إليه
ولا يتكلف المنشار فيه   سوى مر الفطيم بساعديه
ويبلى نعل من يمشى عليه   وقبل النعل يدمى أخمصيه

التخيـــل

التصور كالإدراك الحسى . هو نوع من معرفة الأشياء الخارجية ، مع الفوارق التى ذكرنا سابقاً .

ولكن هناك نوعاً من الخيال نبتعد فيه عن الواقع كما هو عليه ، ونخرج به إلى مستوى أعلى ، للعقل فيه أثر كبير . ذلك أننا لا نتصور صوراً بمفردها أو مجموعة من الصور دفعة واحدة ، ولكن الصور تتجمع متسلسلة متماسكة ، بينها كثير من العلاقات المختلفة التى تؤلف معنى جديداً ، وهذا ما يسمى التخيل[1] فالصورة واقعة واحدة ، والتخيل وقائع متعددة ترتبط بعضها ببعض ، وتسير متتابعة كشريط الخيالة . وللتخيل أنواع متعددة .

١ — من طبيعة كل شخص أن يبصر إلى حد ما مستقبل الأعمال التى يؤديها وقد يكون هذا التنبؤ قريباً وقد يكون بعيداً . ويقوم التنبؤ على الاستنتاج أو الأمل أو الحلم أو الخوف أو الرجم ، فالاستنباء بالمستقبل أثر من آثار التخيل ، كذلك كل مشروع جديد هو نتيجة الخيال ، فرجال الأعمال يَنْفذُون بخيالهم إلى تصرفات الناس . والحضارة نفسها تحمل بين طياتها عنصر النظر إلى المستقبل .

٢ — لا يمد الإدراك الحسى الإنسان إلا بجزء محدود جداً من العالم الخارجي ، وكذلك الذاكرة لا تستحضر إلا جزءاً من الماضى . وهنا يتدخل الخيال ليستكمل هذه المساحات المحدودة ، ويوسع آفاقها المخبوءة البعيدة .

٣ — ومن وظيفة الخيال تفسير حقائق العالم ، وقد يكون هذا التفسير جزئياً تعلل به حقيقة بسيطة محدودة بذاتها ، كوقوع سرقة أو ضياع شىء أو رسوب

(١) Imagination.

طالب فى الامتحان . وقد يكون عاما كالقوانين الطبيعية التى تفسر حقائق الكون مثل قانون الجاذبية ، أو كالنظم الفلسفية والدينية .

٤ — واللعب نوع من الخيال الخالى من الغرض ، حيث يسعى الإنسان إلى اللهو دون المنفعة . فالطفل يركب العصا و يبعث فيها الحياة فيتخيل أنها حصان حقيق . ولعب الكبار قد ينصرف إلى الفن ، فالرسم والموسيقى والتصوير و إنشاء الروايات خروج عن الواقع لإرضاء شهوة الخيال .

٥ — والأوهام المختلفة كالهذيان وأحلام اليقظة والأحلام ، إن هى إلا تخيل خرج عن حدوده وتفكك واكتسب هذه الصفة ، ويوصف التخيل فى هذه الحالة بالضرر ، ويعد هذا من أمراض الخيال .

وللخيال أثر كبير فى درس التاريخ ، لأنه يقرب الأشياء إلى الذهن ، ويبعث فيها الروعة واللذة والحياة ، ويمنع عنها السأم والملل . فإذا كنت تقرأ فى تاريخ « محمد على باشا » دعوته للماليك فى القلعة ، وهم خصومه الأقوياء ، وأصحاب الشأن فى البلاد من زمن ، ثم إجهازه عليهم فى مذبحة سالت فيها الدماء وقضى عليهم وهم عزل من السلاح على أيسر سبيل ، وقد بلغ عددهم حول الخمسمائة أو يزيد ، فأراح نفسه وأراح المصريين من شرهم المستطير . . . هذا التخيل هو الذى يبعث الحياة فى المشاهد التى لم تقع تحت حسّنا ، ولم تدخل فى تجربتنا ، وإنما نقرأ ونسمع عنها فقط .

ليس فى هذا النوع من التخيل جدّة أو إبداع أو خروج عن الواقع ، بل هو محاولة استعادة الصور على نسق ما يعرفه الإنسان ، والأهم عندنا هو بحث « التخيل المبتدع » الذى يؤلف صاحبه شيئاً لم يكن موجوداً من قبل كما سنفصل ذلك الآن .

الاختراع(١)

العامل المبتدع هو الذى يخترع وسائل يخرج بها إنتاجا أكبر بمجهود أقل والتاجر المبتدع هو الذى يعرف كيف يبتكر الإعلان الطريف ، ويرتب بضاعته الترتيب اللطيف ، ويقدم للمشترى الصنف الجديد . والكاتب المبتدع أو القصصى البارع هو الذى يصور الشخصيات ويلون الحوادث ، بحيث لا تكون نسخة من الحقيقة ، ولكنها حية معقولة تأخذ بمجامع القلوب . هذا الخيال هو الذى يستطيع الإنسان بواسطته أن يؤلف ويربط الأفكار والصور بطريقة جديدة مبتكرة ، بحيث يخلق الإنسان شيئا جديداً لم يكن معهوداً من قبل .

الاختراع والسن :

يختلف التخيل المبتدع باختلاف السن ، فالخيال عند الطفل مرن مرونة شديدة ، إذ يطفر من أفكار وصور وأحلام إلى غيرها . وللمخيلة عنده قدرة عجيبة على قلب الأشياء ووضعها فى ثوب روائى ، فهو يجد فى الريح التى تهب خارج الحجرة ، وفى الأصوات التى يسمعها صادرة عن الشارع ، أغرب الوجوه وأعجب الأصوات . واللعب البسيطة التى يتناولها بيديه هى شخصيات حقيقية ، يعيش معها كما نعيش نحن فى عالم الأحياء ، « فدمية » الطفلة بنت تجرى فيها الدماء ، وترى وتسمع وتتكلم ولذلك تحركها وتخاطبها كأنها شخص حى .

وللطفل ميل خاص إلى تهويل الأحجام ، وتكبير قوى الإنسان ، وتجسيم الأشياء . أما الرجل فالحقائق تصدمه ، والواقع يحد من خياله ، فلا يستطيع أن يسبح فى عالم الخيال إلى ذلك الحد من الوهم والتهويل كالطفل . لأن العقل يضع

Création, Invention. (١)

سداً يحول دون جموح الخيال . فالطفل لا يعرف من الحقيقة إلا معارف ضئيلة يخلطها بأحلامه ، ويضيفها إلى أوهامه ، وهو لا يدرى إلى أى حد تمتزج الحقيقة بالخيال ، أما الرجل فذهنه مملوء بالحقائق التى تكبح جماح التخيل ، وتمنعه أن يذهب إلى غير حد .

عوامل الإبداع :

يعتقد كثير من الناس أن الخيال المبتدع لما كان صورة غير حقيقية ، فهو غير حقيق فى كل شىء . ولكن الواقع خلاف ذلك ، لأن التخيل المبتدع لا يخلق المادة التى يتكون منها الخيال ، إذ أن هذه المادة موجودة . أما الصفات التى يمتاز بها كل اختراع فإنها ترجع إلى صفتين أساسيتين ، الصفة الأولى هى : « الجدّة » وهى التى بها يتميز الابتكار عن الأشياء التى سبق أن مرت بنا والتى نتذكرها ، والصفة الثانية هى : أن كل اختراع مهما كان بسيطاً ، فإنه يحتوى على أسلوب من « النظام »[١] .

فالاختراع هو تأليف العناصر المألوفة المعهودة بشكل جديد .

والذاكرة الجيدة ضرورة من ضرورات الابتكار ، لأن كل شىء جديد لابد أن يقوم على الذكريات الماضية ، والمعلومات السابقة . وليس من الضرورى أن يتكوّن التخيل من الصور العقلية فحسب ، بل الأغلب أن نلجأ إلى المعانى الجزئية والكلية ، والمعنى أو الفكرة يختلف اختلافاً بيناً عن الصورة ، لأن المعنى يحتاج فى دَرْكه إلى استجماع عدة قوى عقلية كالحكم والعقيدة والاستدلال والمنطق وإدراك العلاقات بين الأشياء .

---

(١) Système.

وعلى العكس من ذلك فإن الذاكرة الصماء ، الشديدة الحفظ فى ناحية من النواحى ، تصبح معطلة للاختراع ، لأنها تقيد صاحبها فلا يملك تغيير ما حفظ ، بينما الابتكار جدة ، والجدة تغيير .

ولا بد للمخترع أن يحيط علماً بأطراف الموضوع الذى يريد أن يبتكر فيه ، لأن العقل لا يخترع إلا على حساب المعلومات السابقة ، وعلى ذلك فالذاكرة ضرورة من ضرورات الاختراع .

والنزعات الغريزية والفطرية من أهم عوامل الاختراع . وفى المثل المشهور « الحاجة أم الاختراع » . « فالمودات » الجديدة التى تقصد إلى الزينة هى أثر من آثار حب الظهور ، والمكتشفات والمخترعات والعلوم نتيجة غريزة حب الاستطلاع ، وقديماً اخترع الإنسان البدائى السلاح من الحجر المسنون والحديد المشحوذ لحاجة الدفاع عن النفس .

ويجب ألا ننسى أثر الوسط الاجتماعى فى بعث المخترعات ، فالمحاكاة تؤدى إلى انتقال الأفكار وشيوع الأعمال ، حيث تنتقل الفكرة من شخص إلى آخر ، ومن شعب إلى شعب ، ثم يعمل المخترع على تحسينها وكمالها . وقد تشيع الأفكار الجديدة فى جيل جديد بعينه مع بعد الشقة ، لأن الظروف الاجتماعية وأسباب الحضارة تؤدى إلى ذلك ، ففى الوقت الذى كان « دارون » يمهد لنظرية التطور فى انجلترا كان « لامارك » يذيعها فى فرنسا .

ويتم الاختراع فى ثلاث مراحل أساسية : تحليل وتركيب و إلهام (١) .

١ — التحليل :

لأجل أن نؤلف بين العناصر الموجودة الحقيقية تأليفاً جديداً نسميه اختراعاً

---

(١) Analyse, synthèse, inspiration.

يجب أن نحلل أولاً الأشياء إلى عناصرها . والتحليل هو نتيجة التخيل المبتدع ، فأنت إذا دخلت حديقة ، قسمتها إلى ستة أجزاء مثلاً فهذا حوض الزهر ، وهنا مجموعة الشجيرات ... إلى غير ذلك . فتحليلك الحديقة هذا التحليل هو نوع من الخيال . والعالَمُ فى نظر الطفل أو الرجل الجاهل شىء واحد أو مركب من أشياء لا عدد لها ، أما فى نظر الشخص المتعلم فالعالم يتركب من ثلاث مواد ، صلب وسائل وغاز . فهذا التحليل نتيجة الإبداع .

٢ — التركيب :

بعد تحليل الشىء إلى عناصره تؤلف بين هذه العناصر تأليفاً جديداً غير موجود فى الحقيقة . فنى الحديقة التى حللتها إلى أقسام تستطيع أن تؤلف بينها تأليفاً جديداً تتخيل الزهر يتدلى من الدوح والطير ينبت من الدوح . . . . . إلى غير ذلك . وعندنا « طاليس » الفيلسوف اليونانى تخيل أن الماء هو أصل الأشياء ، لأنه يتجمد تارة فيكون صلباً ، ويصبح بالحرارة بخاراً تارة أخرى . والمصورون الذين لم يشاهدوا الملائكة ، يمثلونهم فى صورة بشر لهم أجنحة . والموسيقى البارع لا يفعل أكثر من التأليف بين الأصوات السبعة المعروفة فيخرج لنا لحناً جديداً شجياً .

٣ — الإلهام :

هذا التركيب الجديد يكون فى الواقع نتيجة إلهام لا ندرى كيف يحدث ، ولم يستطع العلماء حتى الآن أن يعرفوا كنه هذه الهبة التى توجد عند بعض الناس وإليك مثلا يبدو فيه أثر الإلهام واضحاً . كان « نيوتن » نائماً ذات يوم تحت شجرة فوقعت عليه منها تفاحة ، فتخيل أن سبب وقوع التفاحة هو « جاذبية » الأرض لها ، وكانت هذه الحادثة البسيطة سبباً فى كشف قانون من أكبر قوانين

العالم ، فكيف تخيل نيوتن قانون الجاذبية ؟ فقد رأى الإنسان من آلاف السنين الأشياء تقع أمام بصره ، ورأى نيوتن نفسه آلاف الأشياء تقع أمامه ، فلماذا لم ينتبه إلى هذا الفرض إلا فى تلك اللحظة ؟ لا شك أن هذا التخيل هو نوع من الإلهام أو الوحى ، أو هو قبس من النور يطرأ على العقل فجأة فينير ظلمته . ويمتاز الإلهام بصفة « المفاجأة » إذ يظل الإنسان حائراً لا يدرى كيف يفعل فيما يريد أن يبتكر ، وإذا بالفكرة الجديدة تأتى إلى الذهن فجأة ، أو كما يعبر الشاعر « الفريد دى موسيه » « كمجهول يهمس فى آذاننا[١] » .

والحقيقة أن الإنسان إذا كان لا يشعر كيف يصل إلى الاختراع ، فإن عقله الباطن أو اللاشعور يظل يعمل فى الخفاء وينظم الأمور ، حتى تتهيأ النتيجة الأخيرة عنها فتطفو إلى مستوى الشعور ، ويُلْهَم بها صاحبها .

ولنضرب مثلا بسيطاً يتضح فيه التحليل والتركيب والإلهام . هبك تحل تمرين هندسة فإن أول شىء تعمله هو تحليل هذا التمرين وتفكيكه ، ثم تظل ساعة لا تهتدى إلى الحل ، وإذا بك تصل إليه فجأة ، لا تدرى كيف كان ذلك وإنما هو الإلهام ساعدك على تركيب العناصر التى حللتها ، وعلى تركيبها تركيباً جديداً هداك إلى الحل والصواب .

الاختراع النافع :

لأجل أن يكون الاختراع مفيداً ينبغى أن يكون للإنسان غرض يسعى إليه أولا ، ونظام يخطه لتحقيق ذلك الغرض ثانياً ، وأن يكون كلا الغرض والنظام فى حدود الإمكان ثالثاً . وفى هذه الحالة يصبح الاختراع مفيداً فى كل مرافق

---

(١) Comme un inconnu qui nous parle à l'oreille.

الحياة ، فى الحياة العادية العملية ، فى العلوم والمخترعات وفى الفنون .

ينبغى أن يكون الغرض ممكن التحقيق ، فكثير من الناس يفرضون لأنفسهم غايات هى شبه المستحيل ، كالتاجر الذى يكسب عشرة جنيهات فى الشهر ، فيطمع فى ربح قدره ألف فى الشهر التالى . هذه قصور تبنى على الماء ؛ ومثل القوم الذين يطمعون فى هذه الأغراض ، مثل الطفل الذى يتصور إمكان الإمساك بالقمر .

فإذا وضعت لنفسك الغرض المعقول ، كالطالب الذى يتطلع إلى النجاح بتفوق فى الامتحان ، أو التاجر الذى يربح خمس عشرة جنيهاً فى الشهر بدل عشرة ، وجب أن ترسم خطة محكمة الوضع للوصول إلى الغرض . هذا النظام فى الخطة لا ينشأ إلا عن دراسة الموضوع الذى تعمل له دراسة وافية علمية قائمة على أساس من الحقيقة والواقع والمعرفة . نرى كثيراً من الناس يعنون بوضع قصص أو روايات ويتألمون لأنها لم تنجح ، والسر فى سقوطها وسقوطهم هو أن القصة أو الرواية فن يحتاج إلى دراسة وإلى معرفة أصول الروايات وحبكها ولغتها وحوارها... وقد فطن العالم المتحضر إلى هذه الحقيقة فقيّد المهن المختلفة — خصوصاً ما كان منها ذا خطر على حياة الإنسان — بقيود الشهادات العلمية ، حتى لا يعمل صاحب المهنة جزافا بل يعمل على أساس . وهذا حق ، لأننا لا نستطيع أن نفهم أن يقوم شخص لم يتعلم صناعة التماثيل والنحت والتصوير ، فيعمل تمثالا كتمثال نهضة مصر ، أو أن جاهلا يخترع جهازاً كهربائياً مفيداً .

فلأجل أن يكون الخيال مفيداً ينبغى أن يكون لك غرض مفيد ممكن التحقيق ، ثم يجب أن ترسم خطة أو نظاما تسير وفقه فى تخيلك ، وتضع حدوداً تقف عندها ولا تتخطاها . للكون سنن يجرى عليها ، قال الله تعالى « لا الشمس

ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » . فإذا خرج الخيال عن النظام الموضوع المقيد بالواقع والحقيقة ، وسبح الإنسان فى الفضاء ، ينتقل من فكرة إلى فكرة دون غاية ودون رابطة معقولة بين الأفكار كان التخيل ضاراً بصاحبه . وسنضرب الأمثلة على فائدة التخيل فى جميع مرافق الحياة :

١ — فى الحياة العامة :

فأنت فى كل لحظة من لحظات حياتك الخاصة تستفيد من التخيل المبتدع ، فسكنك فى منزل خاص يطل على حديقة غناء ، وترتيب حجراته بنظام مخصوص هو نتيجة الإبداع . ثم انتقاؤك الملابس والأحذية بحيث تكون ذات ألوان منسقة بديعة ، كل هذا من عمل الابتكار . كذلك التاجر الذى يصنف « واجهة دكانه » والصحفى الذى يرتب جريدته والطالب الذى يصف الكتب فى القمطر . . إلى غير ذلك ، كلهم يعملون على أساس التخيل المبتدع .

وله غير ذلك أثر عظيم فى خلق المثل الأعلى الذى هو ضرورى لنا جميعاً ، ذلك أن الإنسان مثله مثل كل كائن حى يسعى إلى غاية ، هذه الغاية قد ركبت فى الحيوان بالغريزة ، فهو يسعى إليها دون أن يعرف ذلك أو يشعر بها ، ولكن الإنسان قد تركت له الحرية فى اختيار غاياته أو مثله العليا ، وهذا الانتخاب نتيجة الاختراع .

٢ — فى الفنون :

الفنون الجميلة نوع من التعبير بالرموز والاستعارات كالرسم والموسيقى والنحت والشعر والقصص . . . ألخ ، عن المعانى و العواطف التى تجول فى ذهن صاحبها .

ومنطق الفن مستمد من العواطف والمشاعر الباطنة . وهو شخصى[١] . ويتمثل فى الغالب فى صور حسية حية . وللإلهام أثر كبير فى بعث هذه الآثار الفنية ، وللفنانين فضل كبير فى إبراز المعانى الخفية الغامضة التى تخفى عن أعين العامة من الناس ، فروايات « شكسبير » الخالدة تجلى لنا العواطف الإنسانية كالغيرة والبخل والشرف إلى غير ذلك بحيث نلمسها بأيدينا . والفنون الجميلة جميعاً هى أثر من روائع الخيال .

٣ — فى العلوم والمخترعات :

و يمتاز العلم عن الفن بأنه مشترك بين جميع الناس ، أى موضوعى[٢] ، على العكس من الفن فإنه شخصى . وجميع المكتشفات العلمية والنظريات والقوانين إن هى إلا أثر التخيل المبتدع . فقانون الجاذبية ، وقاعدة أرشميدس ، ودوران الأرض وكرويتها ، كلها فروض هى نتيجة الابتداع . ولم يصل المخترعون إلى ما وصلوا إليه ، حيث تقدموا بالعلم والحضارة ، إلا بخيالهم الخصب المنتج .

أحلام اليقظة[٣]

كثيراً ما ترى شخصاً قد شرد عن الانتباه إلى ما يحيط به ، وذهب مع نفسه يسبح فى عالم الخيال ، فيصبح فى حالة من شرود الفكر وتشتت الانتباه ، وهى الحالة التى يطلق عليها العامة لفظ « السرحان » . هذا الشخص الذى يفقد صلته بالعالم الخارجى ، يعيش بينه و بين نفسه ، فهو كالنائم ولكنه ليس بنائم . إنها حالة بين اليقظة والنوم . ترى ما هى هذه الخواطر التى تجول فى ذهن هذا الشخص ؟ كل منا تمر به هذه الحالة ، فهى أمر طبيعى ، ولا يعد ذلك مرضاً إلا

(١) Subjective. (٢) Objective.
(٣) Rêveries.

إذا كثر شرود الشخص إلى درجة تؤرق منامه وتعطل أحواله . وكل منا يتجه فى أوهامه حسب ميوله ورغباته وظروفه ، وفى المثل « كل يغنى على ليلاه » ، فالطالب يذهب به الخيال إلى مرحلة الامتحان ، ثم يتصور بعد ذلك أنه جاز الامتحان بنجاح عظيم ، ثم هيأت له الظروف عملاً عظيماً فى إحدى الشركات يدر عليه الربح الوفير فيلبس فاخر الثياب ، ويقتنى السيارات الحديثة . . . وهذا شخص أنيق الملبس حسن القوام ، يتخيل أن الخيالة لم تخلق إلا ليكون ممثلاً بها ، وأن الحظ أخطأه حتى الآن ، ولكن الزمن سيقبل عليه وسيصبح بعد حين كبير الممثلين . وهذا تاجر كاسد الحال يتصور أن الصفقة المقبلة ستكون خيراً و بركة ، ثم يمتلىء بالمال ، فيقضى ما عليه من دين ، ويوسع تجارته .

فما لا يستطيع الإنسان أن يحققه فى عالم الواقع ، لا يجد سبيلاً إلى تحقيقه إلا فى عالم الخيال . والباعث على ذلك أن الإنسان يحب دائما تحقيق رغباته ، كالحصول على المال والمركز والزواج والأولاد والأسفار إلى غير ذلك ، وكثيراً ما تقوم عقبات كثيرة فى طريق هذه الرغبات تحول دون تحقيقها ، فيعمد صاحبها إلى أحلام اليقظة يسرى فيها عن نفسه ، ويحقق رغباته المختلفة .

الأحلام (١)

يصحب النومَ ظهور الأحلام . والحلم من طبيعة الإنسان ، بمعنى أنه عام عند جميع الأشخاص . ويعزو العامة إلى الأحلام قيمة كبيرة ، فيحاولون بها التعبير عن المستقبل ، وليس الأمر كذلك لأن العلم لا يؤمن بالكشف عن الغيب ، أما ما يؤثر عن تعبير الرؤيا بحيث تنبىء عن المستقبل ، مثل ما حدث ليوسف الصديق

(١) Rêves.

فى أرض مصر ، فهو من باب المعجزات الدينية ، والخوارق التى يختص بها الدين دون العلم .

وترجع أسباب الأحلام إلى اثنين : فسيولوجى ونفسانى . أما السبب الأول فهو أن النائم لا يدرك شيئاً لا نعدام الانتباه والشعور ، فإذا حدث بداية ليقظة ، أمكن أن تصل الإحساسات إلى العقل ، لكنه لا يدركها على حقيقتها ، فيحدث نوع من الخداع . ثم يجسم النائم هذه الإحساسات ويركب منها ما يشاء من أحلام . فإذا سمع وقع رذاذ المطر على الشباك ، تخيل أنه قصف المدافع فى حومة الحرب ، وإذا وخزته بعوضة توهم أنها طعنة سيف من عدو لدود . وللحواس الباطنة مثل هذا الأثر ، فإذا أكل الإنسان أكلة دسمة تتألم لها المعدة ، فإنه يظن أنه واقع فى مخالب وحش مفترس هائل ، وهذا الحلم نسميه عادة « الكابوس » .

وأغلب الناس ينسون الحلم تماماً حين الصحو من النوم ، وقد لا يذكرون منه إلا طرفاً يسيراً ؛ ولكن الغريب أن بعض هذه الأحلام يتذكرها الإنسان بجميع تفاصيلها الدقيقة ، ومنها مالا ينساها صاحبها طول الحياة .

والصور فى الحلم تكون غريبة عن المألوف مقلوبة الأوضاع ، وينعدم فيها المنطق والتسلسل المعقول ، ولا يحسب للزمن حساب . وعلة ذلك أن الإنسان لا يدرك ولا يعى ما يحلم ، وتنعدم الرقابة العقلية التى ترغم الإنسان على التفكير فى حدود الواقع والحقيقة . وكثيراً ما يخرج الحالم فى الحلم على الحدود الخلقية والشرف الموضوع ، وسبب ذلك أن الإنسان يعود إلى الفطرة الأولى ، وإلى الغرائز الطبيعية الكامنة التى تنطلق على سجيتها دون رقابة من المجتمع أو التقاليد أو العرف أو الدين .

ومن أسباب بعض الأحلام أن الإحساسات التى تؤثر فينا فى النهار ، لاتزول

ولا يمحى أثرها ، بل تستمر وتظهر فى صورة الأحلام فى الليل . وليست كل الإحساسات تبعث على ذلك ، بل الإحساسات الغريبة التى تنشأ عن المناظر غير المألوفة التى يراها الإنسان لأول مرة ويعجب لها . وهذه أحلام عارضة ، غالباً ما ينساها صاحبها سريعاً .

ونظرية « فرويد » فى الأحلام مشهوره ، وخلاصتها أن الحلم تحقيق رغبة لم يستطع صاحبها أن يحققها . وأحلام الأطفال واضحة الدلالة فى تأييد هذه النظرية ، وأحلامهم بسيطة وتفسيرها يسير ، لأن حياتهم لا تعقيد فيها ، وهى تدل دائماً على الرغبات التى يودونها فى أثناء النهار كاللُعب والحلوى ... الخ .

ويقص « فرويد » عن نفسه أنه حلم أنه عطش عطشاً شديداً ، فأحضرت له زوجته الماء فى « زهرية » زجاجية كان قد أحضرها معه من رحلة فى إيطاليا . ولكن الماء حين شرب منه كان شديد الملح فازداد عطشاً ، ثم صحا من النوم ، فوجد نفسه ظامئاً . وتفسير هذا الحلم هو رغبة صاحبه فى الشرب ، أما ظهور الزهرية فسببه أنها كانت ثمينة ولكنها فقدت ، فهو يرغب فى عودتها .

ولا تجرى جميع الأحلام على هذا النسق ، بل منها ما يظهر فى صورة ألم شديد ، وتظهر كذلك رموز رهيبة مخيفة ، كالأفاعى والحشرات السامة . وهذه تعبر عن الآلام التى تصيب الإنسان ، وعن المخاوف الكثيرة التى تحيط به ، كالخوف من الفقر ، والعار ، والفضيحة ، والجريمة ، والسجن . وكثيراً ما تكون هناك عقد نفسية مكبوتة فى اللاشعور ، ولا يستطيع صاحبها أن يظهرها ، فيبعثها اللاشعور وتظهر فى الحلم .

الفصل الحادي عشر

تداعى الخواطر وترابطها[1]

تجرى الخواطر فى الذهن ، بحيث يشعر بها صاحبها ، أو تهبط إلى هامش الشعور ، أو تصدر عن اللاشعور ، وهى فى جميع هذه الحالات تتصل بعضها ببعض و يتبع أحدها الآخر طبقاً لنظام وترتيب ، فالخواطر النفسية لا تظهر فى مجرى الشعور عفواً دون نظام أو ترتيب ، بل لوجود حالة نفسية تتبعها حالة نفسية أخرى بالذات ، سبب من الأسباب . فورود الخواطر فى الذهن يتلو بعضها بعضاً يسمى تداعى الخواطر .

فهذا رجل قد جلس إلى مقهى فى الطريق يرقب المارة ، وهو يرى السيارات تجرى والناس يمشون ، والباعة ينـادون على بضاعتهم ، و إذا بطفل يعدو عابراً الطريق قد ارتبك فى حركته وأقبلت عليه سيارة أوشكت أن تدهمه ، وأدرك صاحبنا الخطر المحيق بالطفل ، فتأثر وخشى عليه من الاصطدام ، ومال إلى مساعدته ، ولـكنه خاف أن يدهم مثله فتردد ، ثم عاد ضميره يؤنبه ، ودفعته المروءة أن يقوم فى سرعة لإنقاذه ، فى هذه اللحظة تصور أولاده لو كانوا فى هذه الحالة ، وتصور نفسه لو دهمته السيارة وأودت بحياته .

هذا التتابع فى الحالات النفسية هو ما يسمى التداعى ، فصورة الطفل « تدعو » فى ذهن ذلك الرجل صورة أولاده ، و إدراك الخطر يدعو إلى الخوف ، والخوف يدعو إلى النكوص ... وهكذا .

---

(١) Association des idées.

وإذا كانت الحالة النفسية تدعو حالة أخرى ، فذلك لأن بين الحالتين صلة ورابطة ، وقد تكون الصلة الموجودة بين الأشياء ضرورية ، مستمدة من طبيعة الشيء مثل صلة العلة بالمعلول ، والوسيلة بالغاية ، والجزء بالكل . . . . ألخ مثل الصلة بين المطر والسحاب ، وبين النهار وطلوع الشمس ، وبين الشعور بالخطر والخوف ، والإحساس بالعطش وطلب الماء . فالترابط هو الصلة التى تربط الحالات النفسية بعضها ببعض ، والتداعى هو ميل الشخص إلى إيراد الخواطر متتالية الواحد بعد الآخر . لهذا السبب كان الشيء الواحد مصدراً لإثارة خواطر مختلفة فى ذهن أشخاص كثيرين . فلو أن شخصاً آخر شهد ذلك المنظر السابق فإن الخواطر تجرى فى ذهنه على نسق يختلف عن الأول .

ويحدث التداعى بين فكرة وفكرة مثل التداعى بين لفظ نهر ولفظ النيل أو بين صورة صديقك الفوتوغرافية والشخص نفسه . وقد يحدث بين حالة وجدانية وأخرى مثلها ، فالاستغراب من شيء قد يدعو إلى الإعجاب به ، أو بين حركة وحركة ، كما يدعو إمساكك بالقلم أن تكتب به ؟

وقدتنتج هيئة الجسم الحالة الوجدانية التى تصاحبها ، فالسجود والركوع يحدثان عاطفة دينية ، أو العكس تؤدى الحالة الوجدانية إلى الحركة ، فالخشوع الدينى يدعو الشخص إلى الركوع ، كذلك يكفى أن ترسم على وجهك ملامح الحزن ، حتى تجد نفسك حزيناً بالفعل ، وقد رأينا ذلك واضحاً عند الكلام على الانفعالات .

قوانين التداعى الأساسية :

سنجرى الآن تجربة تعرف باسم « التداعى المقيد » ، وهى أن يضع المجرّب فى الجدول الآتى الكلمة التى ترد فى ذهنه مباشرة بعد قراءة الكلمة الموضوعة ، مثال ذلك إذا قرأتُ كلمة (نهر) فإن ما يرد فى ذهنى بعدها مثلا هى كلمة (النيل) .

لا تتوقف ولا تتردد واذكر أول كلمة ترد فى ذهنك .

ترعة		غاندى	
مدرسة		الجامع	
أبيض		ليل	
موز		طفل	
غنى		شارع	
تمثال		قميص	
الهند		يابس	
غواصة		إمرأة	
سعد		قطن	
كبير		شهر	

إذا بحثنا الكلمات التى نحصل عليها من هذه التجربة ، نجد أن هناك رابطة تصل بين كل كلمتين . هذه الروابط الأساسية هى التلازم والتشابه والتضاد . وقد وصل القدماء إلى كشف هذه القوانين العقلية ووصفها « أرسطو » على النحو الذى نذكره الآن .

١ — التلازم .

إن وقوع حالتين نفسيتين متلازمتين باستمرار فى مجرى الشعور ، يكون سبباً فى

تتابعهما فى الظهور ، إذا ظهرت إحداهما . وقد يكون هذا التلازم لفظياً مثل نهر النيل والجامع الأزهر ، فإننا تعودنا سماع الكلمتين متجاورتين باستمرار . وقد يكون التلازم فى الزمان مثل الظهر والعصر . وقد يقع التلازم فى المكان مثل مكة والمدينة .

٢ — التشابه .

من الأسباب القوية التى تربط الأشياء بعضها ببعض تماثلها من أى ناحية من النواحى ، كالتشابه فى الشكل أو اللون أو المعنى . فالصورة تدعو إلى التفكير فى صاحبها ، ورؤيتك الابن تبعث إلى التفكير فى والده وذلك لمجرد وجود تشابه فى الخلقة أو فى نبرات الصوت . ونلاحظ أنه كلما أخذ التشابه يضعف ، قل الميل إلى التداعى أيضاً .

٣ — التضاد .

كذلك الخاطر قد يدعو فى الذهن ما يضاده ، فإذا خطر لك الغنى استرسلت إلى الفقر ، أو الليل يدعو إلى النهار ، وفكرة البياض تدعو إلى فكرة السواد ، أو كالمسافر فى البحر ينظر إلى الماء فيخطر فى ذهنه اليابسة لتضاد الفكرتين .

التلازم والتشابه والتضاد من القوانين الأولية التى نبه إليها أفلاطون وأرسطو قديماً ، وقد وجهت الاعتراضات إلى قصر الحياة العقلية على هذه القوانين الثلاثة . وقيل إنه يجب أن تضاف إليها الارتباطات المنطقية ، أى الصلة الضرورية بين المعانى أو بين الأشياء ، مثل الترابط بين المبدإ والنتيجة ، العلة والمعلول ، الوسيلة والغاية ، الجنس والنوع . فالطبيب حين يشاهد على المريض أعراضاً خاصة يتجه ذهنه إلى نوع من المرض ، فهذه علاقة العلة بالمعلول ، ثم يفكر فى أسلوب من العلاج ، والعلاقة بين العلاج والشفاء هى علاقة وسيلة بغاية . والرياضى حين يلاحظ

تساوى زاويتين فى مثلثين محصورتين بين ضلعين متساويين فى كل منهما ، يتجه ذهنه إلى انطباقهما ، وهذه علاقة النتيجة بالمبدأ .

القوانين الثانوية :

هناك قوانين أخرى ثانوية هى التى تدعو إلى تسلسل المعانى والخواطر فى الذهن ، ويحسن إجراء التجربة الآتية لتستبين منها هذه القواعد ، وهذه التجربة تسمى « التداعى المطلق » . والفرق بينها وبين التداعى المقيد ، أن الأخيرة كانت كل كلمة مقيدة بكلمة تسبقها ، فتلزمك أن تبدأ بها فى التفكير ؛ أما فى التداعى المطلق فإنك تبدأ بكلمة واحدة ثم تترك نفسك لخواطرك تنساب فيها ، بعد أن تستمد بدايتها من هذا الأصل . وينبغى أن يبتعد المجرب عن جميع المؤثرات وأن يجلس فى مكان هادئ ، ثم يطلق لفكره العنان ولا يحاول أن يوقف مجراه . وقد أجريت التجربة التالية على أحد الأشخاص فى يوم الثلاثاء الذى يوافق عشرين من شهر اكتوبر سنة ألف وتسعمائة وست وثلاثين بالقاهرة وكانت النتيجة كالآتى : —

شارع — طريق — قهوة — محمد — حسين — سينما — تمثيل — سهر — معاهدة — محالفة — استقلال — جيش — حرب — خوف — موت — غلاء — فقر — غنى — راحة — موسيقى — غناء — أناشيد ....

إذا درسنا هذه الكلمات نجد فيها مجموعات متصلة مثل (سينما — تمثيل — سهر) ومجموعة أخرى مثل (معاهدة — محالفة — استقلال — جيش) ومجموعة ثالثة هى (حرب — خوف — موت) ومجموعة رابعة هى (غلاء — فقر — غنى) ومجموعة خامسة هى (راحة — موسيقى — غناء — نشيد) .

والصلة بين هذه المجموعات ، و بين كلمات هذه المجموعات بعضها و بعض ، ترجع فى كثير من الأحيان إلى قوانين التداعى الأساسية التى ذكرناها ، كما هو واضح . ولكن هناك أسباباً أخرى هى التى تبعث الإنسان إلى ذكر بعض المعانى ، وهى التى توجهه وجهة معينة ، مثال ذلك ذكر « المعاهدة » فهو نتيجة الحوادث السياسية الشاغلة للأذهان فى مصر وقت إجراء التجربة ، وهى معاهدة التحالف والصداقة بين مصر و إنجلترا . وأهم هذه القوانين أربعة :

١ — الشيوع :

فهناك أشياء تشيع فى بعض الأوقات ، وتصبح حديث المجالس ، ومضغة الأفواه ، كالأمور السياسية التى تجرى فى وقتها ، والاختراعات الحديثة التى تبدأ فى الذيوع والانتشار مثل « الراديو » فى مبدإ أمره . وقد يصدر أحد كبار الكتاب مؤلفاً جديداً فيصبح مصدر مناقشة أدبية بين أهل العلم مدة من الزمان . هذه الأمور الشائعة التى تتردد على ألسنتنا ونذكرها فى كل وقت وفى كل زمان ، توجه الذهن وتبعث الخواطر التى تجرى فيه .

٢ — الجدّة :

والجدة مصدر جديد . ونقصد بالجدة أن الحادث الجديد يلفت النظر و يجذب الانتباه ، ويقطع سلسلة التداعى الماضية ، و يكوّن بداية سلسلة جديدة . فإذا كنت تقرأ فى جريدة ، ثم وقع بصرك على نبأ موت صديق — وهذا هو النبأ الجديد — فإنك تبدأ فى سلسلة من التداعى مصدرها ذلك الخبر ؛ و إذا كنت فى حجرة مقفلة ، تجلس فيها منفرداً تفكر فى هدوء ، ثم فتح باب الغرفة ودخل عليك منه شخص ، فإنك تقطع سلسلة تفكيرك الهادئة ، وتشرع فى التفكير بشكل جديد .

٣ — الميل الغالب :

كل شخص مركب من مزيج من الميول والأهواء ، هى التى توجهه وتسيره فى الحياة ، هذه الميول تشغل نفس صاحبها ، وتملك عليه كل تفكيره ، كما ذكرنا عند الكلام على العاطفة فقلنا إن البخيل تدور حياته على المال والعالِمَ على العلم . فالشخص الذى يميل إلى ارتياد دور الخيالة تجد أحاديثه مملوءة بها ، والعالم لا ينفك عن التفكير فى العلم .

٤ — الاتجاه العقلى :

ونعنى بذلك حالة العقل التى يكون عليها فى الوقت الذى تتسلسل فيه الخواطر . فالحقيقة أن الإنسان لايظل على حالة واحدة طول الحياة ، بل يتنقل فى حالات شتى متباينة ، فساعة يكون منقبضاً ، وساعة منشرحاً ، وتجده متشائماً حيناً ، ومتفائلا حيناً آخر ، ويكون تعباً فى وقت من الأوقات ، مستريحاً فى وقت آخر ، ويكون هادئاً رزيناً زماناً ، وثائر الأعصاب ينظر إلى العالم بمنظار أسود زمناً آخر . هذه الحالة النفسية التى تسود الإنسان ساعة التداعى ، تؤثر فيه ، ويخرج تفكيره مصطبغاً بذلك اللون .

قيمة التداعى :

تداعى المعانى أساس أغلب العمليات النفسية . فقد رأينا أن معظم سلوك الإنسان أعمال آلية ، يكتسبها بالتعلم خلال الحياة . والتعلم الحركى مثلا يفرض تعدد كثير من الحركات تتصل ببعض عن طريق الروابط التى ذكرناها . بل حياة الحيوان تقوم على قوانين الترابط ، وقد أمكن العلماء أن يصلوا بتدريب الحيوان إلى تحقيق هذه النظرية . فالكلب الذى يسيل لعابه حين يسمع دقات الناقوس

قد تعلم أن يربط فى ذهنه صوت الناقوس بحضور الطعام ، فأصبح يكفى أن يسمع الصوت حتى يسيل لعابه . فالأفعال المنعكسة المعدلة تقوم على الترابط .

وعملية التذكر تقوم على أساس الترابط كما سنذكر فيما بعد . فالإنسان حين يريد أن يتذكر اسم صديق نسيه ، يستحضر فى ذهنه صورته أو صورة منزله أو أسماء أصدقائه الذين يتشابهون معه فى مخارج الحروف .

والتداعى أساس كثير من المعتقدات الفاسدة التى لاتستند إلى حقيقة ، فالتشاؤم من العدد ١٣ نشأ من أن أناساً — كما يقولون — كانوا جلوساً إلى مائدة واحدة وعددهم ثلاثة عشر ، فحصل أن أصاب بعضهم نكبات محزنة ، فاقترن حصول النكبات بالعدد ١٣ ، والحقيقة أن حصولها لم يكن نتيجة ذلك العدد .

وتستطيع أن تستغل قوانين التداعى فى قراءة الفكر ، لأنك عرفت أن الخواطر تجرى فى الذهن بنظام خاص طبقاً لقوانين معروفة ، فإذا أضفت إلى ذلك معرفتك بميول الشخص الذى تحدثه ، والحالة النفسية التى تسوده ، والحوادث الطارئة التى تحصل فى ذلك الوقت ، وتكون مثيرة لاهتمامه ، استطعت بسهولة أن تستنتج مايدور فى خلده من فكر .

والتداعى كذلك أساس التحليل النفسانى الذى نعالج به كثيراً من الأمراض العصبية ، وكثير من هذه الأمراض نتيجة العقد النفسية المكبوتة . ولعلك تتساءل كيف نستطيع الوصول إلى هذه العقد المكبوتة الخفية التى يضع عليها المريض ستاراً كثيفاً يمنع من ظهورها ؟ ذلك أن الرقابة التى يضعها العقل لإخفاء هذه العقد فى اللاشعور تجوز عليها الحيل ، فتظهر لنا آثارٌ من هذه العقد فى صور رمزية ، وفى فلتات اللسان . فالعالم الماهر هو الذى يفطن إلى هذه الرموز أو الفلتات ، ويمسك بها أول الخيط الذى يستدل به على تلك العقد النفسية .

الفصل الثانى عشر

الذاكرة

قيمة الذاكرة :

للذاكرة أثر كبير فى الحياة النفسية . فالإدراك الحسى — وهو أساس المعرفة — لايقوم إلا على التجارب السابقة ، وهذه التجارب لاتظهر إلا بتذكرها . والاختراع يقوم على الصور العقلية ، وعلى المعانى المكتسبة والخبرة السابقة . والعادات التى تشغل أغلب حياة الإنسان إن هى إلا نوع من التعلم والتدريب .

وللذاكرة أثر كبير فى حياة كل شخص ، لاسيما عند أولئك الذين يعملون أعمالا عقلية . والذين يَشْكون من ضعف الذاكرة كثيراً مايطمعون فى إصلاحها لحياة الطالب قائمة على الذاكرة ، لأنه فى حاجة إلى اكتساب المعلومات والمعارف ويحتاج المحامى أن تكون مواد القانون ، والأحكام التى صدرت عن مختلف المحاكم وشروح الشراح ، حاضرة فى ذهنه حتى يحسن الدفاع . ولابد للتاجر أن تكون البضائع وأماكنها وأثمانها ، وأوقات هبوطها وارتفاعها ، ووجوه العملاء ، كل ذلك موجود فى صفحة ذهنه حتى يتمكن من الوقوف على قدميه فى الأسواق الكثيرة التقلب .

وليس فى تعريف الذاكرة صعوبة ، فالتذكر هو استرجاع ماحدث فى الماضى إلى الحاضر . هذه العملية تشتمل على خمس مراحل : هى الحفظ والوعى والاسترجاع والتعرف والتحديد .

الحفظ

الحفظ هو اكتساب المعلومات التي يجهلها الإنسان ، ووصولها إلى الذهن .

والحفظ إما أن يكون متعمداً ، بمعنى وجود نية الحفظ حتى يتذكر الشخص فيما بعد الشيء الذي يحفظه ، كالذي يجلس لحفظ قصيدة من الشعر ، أو كالشيخ الذي يحفظ القرآن ، والممثل الذي يحفظ دوره ليلعبه على خشبة المسرح . وقد يحفظ الإنسان عن غير قصد ، دون أن تكون عنده النيــة لحفظ ما يقع أمامه ، كالذي يذهب إلى دار الخيالة ، ثم يروى لك مارآه . والحقيقة أن كل ما يقع تحت حس الإنسان ، وكل ما يدخل فى خبرته ، عن طريق البصر أو السمع أو أى حاسة أخرى ، يعد جزءاً من محفوظات الإنسان ، فهو دائم الاكتساب لكل ما يقع عليه بصره .

الحواس :

تنفذ المعلومات التي نكتسبها — سواء عن قصد أو عن غير قصد — عن طريق الحواس بالطبع ، كما سبق أن بحثنا ذلك فى الإدراك الحسى . وليس جميع الناس بدرجة واحدة من ناحية إدراكهم للأشياء ، كذلك من الصعب أن يتذكر الإنسان المحسات كلها بدرجة واحدة ، ولذا يقسمون الناس عادة بأنهم بصريون و سمعيون أو حركيون ، وقد سبق الكلام على هذه التفرقة فى باب التصور .

فالبصرى هو الذي يسهل عليه تذكر الأشياء التي تأتى إليــه عن طريق لبصر كالألوان والأشكال ، فإذا تذكر صديقاً له فإنه يستحضر صورة وجهه لايستحضر صوته ، و إذا أراد أن يتذكر شيئاً قرأه فى كتاب ، فإنه يستحضر رسم لحروف والصفحة التي قرأها ، ولا يستحضر صوت هذه الحروف . وأكثر الناس

بصريون أى يتذكرون الأشياء التى وصلت إليهم عن طريق البصر .

والسمعى هو الذى يسهل عليه تذكر الأشياء عن طريق السمع ، فإذا أراد أن يتذكر صديقه ، فإنه يستحضر نغم صوته ولا يستحضر صوته ، وإذا شاء أن يتذكر سيارة صديقه ، يستحضر نغم بوقها دون شكلها ولونها .

والحركى هو الشخص الذى يتذكر الإحساس الحركى ، أى الأشياء فى حال حركتها . ومثل ذلك الشخص إذا شاء أن يتذكر بيتاً من الشعر ، لا يكفى أن يتصور رسمه المكتوب ، أو يتصور سماعه ، ولكن يحاول كتابته . وحين يتذكر الإنسان مباراة كرة القدم ، فإنه يستعيد حركة اللاعبين كأنها تجرى أمامه . وكثيراً ما نلجأ إلى مثل هذه الذاكرة ، حين يخوننا تذكر هجاء كلمة ، فنحاول كتابتها .

وأغلب الناس — كما ذكرنا — أوساط ، أى يجمعون بين البصر والسمع والحركة .

الصورة التى نتذكرها قد تكون واضحة فى بعض الأحيان وقد تكون غير واضحة . وقد تتضح عند بعض الناس حتى تقترب من الحقيقة .

وصحة الحواس ضرورية لجودة التذكر ، لأنها الأساس الأول الذى تنفذ منه المعلومات إلينا ، وهى المنظار الذى نرى العالم الخارجى من خلاله ، فإذا كان المنظار سليماً رائقاً صافياً ، وصلت المعلومات سليمة كذلك . ومن الخطأ أن يحفظ السمعى عن طريق القراءة الصامتة ، ولا يجب على البصرى أن يحفظ شيئاً عن طريق السمع .

الحفظ المتعمد :

للبحث فى مقدرة الشخص على الحفظ ، يحتاج الأمر إلى استعمال مادة لاعهد للحافظ بها ، حتى نضمن جدتها المطلقة ، وحتى نعرف مقدرته على الحفظ الخالص . ولهذا السبب يلجأ علماء النفس فى تجاربهم إلى استعمال المقاطع التى لامعنى لها . وهنا يجب أن يعرف الإنسان نفسه ، أو يدرس نفسه من هذه النواحى : مدى الحفظ ، وكيفية ربط المعلومات .

ما هو المدى الذى تستطيع أن تحفظه ؟ إليك تجربة بسيطة ، وهى سلسلة من الأعداد كل منها مكون من عدة أرقام ، فكم رقماً تحفظه بعد قراءة واحدة ؟

٧ ٢ ٦

٤ ٧ ٨ ٩

٣ ٨ ١ ٥ ٢

٨ ٣ ٠ ١ ٦ ٢

٧ ٤ ٩ ٥ ٣ ١ ٤

٢ ٨ ٥ ٣ ٦ ٧ ٠ ٩

٣ ٠ ١ ٥ ٤ ٩ ٢ ٣ ٥

٦ ٤ ١ ٣ ٨ ٧ ٥ ٧ ٢ ٩

٢ ٧ ٢ ١ ٣ ٩ ٤ ٨ ١ ٦ ٥

٨ ٣ ٠ ٤ ٥ ١ ٧ ٦ ٢ ٧ ٨ ٣

يجد الإنسان أنه من السهل حفظ الأعداد المكونة من ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أرقام ، ولكن الأعداد الطويلة يجد عناء فى حفظها . ومتوسط

مدى ذاكرة الطفل الذى تبلغ سنه ست سنوات أربعة أرقام ، والشخص البالغ سبعة أرقام .

هذا هو المدى المباشر للحفظ ، وهو فى الأشياء القصيرة سهل ، ولذلك تكتسبها فى يسر . أما إذا كانت المادة التى تريد حفظها طويلة ، فإنك تلاقى صعوبة كبيرة ، ولذلك تتغلب على عدم الحفظ بالتكرار . ولكن لنفرض أنك تحفظ مباشرة عدداً مكوناً من ثمانية أرقام ، فلماذا لا تقسم العدد إذا كان مكوناً من ستة عشر رقماً إلى قسمين ثم تحفظ كل قسم على حدة ؟ لو رجعت إلى الثمانية الأولى تجد أنك قد نسيتها ، ذلك أن الجديد يُنسى القديم ويحجزه ويغطى عليه . هذا إلى أن العدد حين تقسمه قسمين ، فالواقع هنا أننا أمام ثلاث عمليات : وهى حفظ الجزء الأول ، والجزء الثانى ، ثم ربط الجزأين ، ولهذا لا تتغلب على ما تحفظ إلا بكثرة التكرار .

وفى هذه الحال يتشبث الحافظ بدعائم يقيمها فى المادة الطويلة التى يحفظها ، حتى يقبض عليها ولا يدعها تفلت من ذاكرته .

الروابط :

احفظ هذه المقاطع التى لا معنى لها ، ثم حلّل كيف وصلت إلى حفظها .
صعل — طمس — بزج — هقع — طبم — وطح — يدط — ندف — لاب — كدل .

هنا يلاحظ الحافظ المشابهات والمباينات ، ويخلق الروابط بين المقاطع ، ويصل المقاطع بأسماء يعرفها ، ويضمها فى مجموعات . وللإيقاع الموسيقى أثر كبير فى مساعدة الحفظ . هذا وفى مبدإ الأمر يحفظ الإنسان الشىء لارتباطه بشىء

آخر بأى نوع من الرابطة ، ولكن فيما بعد يضرب الذهن صفحاً عن هذه العلاقات ويتذكر الأشياء مباشرة .

هذه الأرقام والمقاطع التى لا معنى لها ، يجد الشخص صعوبة كبيرة فى حفظها ويحتاج إلى تكرارها مرات عدة ، وهو فى الواقع يحفظها عن طريق التلازم ، وهو القانون الأول من قوانين الترابط . وكلما ربط الإنسان ما يحفظ بالروابط المنطقية وبطريق التشابه والتباين كان الحفظ أسهل ، فإذا كان ما تحفظه له معنى مفهوم ، وذلك نتيجة اتصال الأفكار وتسلسلها ، فإن الحفظ يسهل كثيراً ، وتستطيع أن تتبين ذلك من هاتين التجربتين : اقرأ هذه الكلمات ثم تذكر ما تحفظه منها ، ووازن بين هذا وبين حفظك للمقاطع التى لا معنى لها :

مدير — نشيد — إبريق — مقطم — بيت — قروش — عنب — قطار — طالب — حصان — غيط — فراش — كنيسة — حديقة — بدلة — تل — ريشة — مركوب — جراح — كرسى .

اقرأ هذه الكلمات ثم تذكر ما تحفظه منها :

مريض — السم — خطر — تليفون — سماعة — طبيب — سيارة — قلق — دواء — صيدلية — راحة — سهر — صباح — زوار — تهنئة — خروج — بستان — هواء — شفاء — صحة .

إذا فطنت فى التجربة الثانية إلى أنها مركبة من سلسلة واحدة لها معنى يسير من أولها إلى آخرها ، فإنك قد تحفظ المجموعة بأكلها من مرة واحدة ، دون أن تنسى منها شيئاً .

والنتيجة التى نستخرجها من جميع هذه التجارب ، هو أن إدراك المعنى ،

أى إدراك العلاقات والروابط والصلات الموجودة بين الأشياء ، يؤدى إلى سهولة الحفظ وسرعته .

الاقتصاد فى طرق الحفظ :

يحفظ الإنسان عن طريق « التكرار » كما هو معلوم ، ولا بد أن يصل الإنسان إلى الحفظ إذا استمر على التكرار . ولكن اتباع طرق غير صحيحة فى الحفظ ، تضطر الإنسان أن يكثر من التكرار دون فائدة ، فيضيع عليه كثير من الوقت ، يضاف إلى ذلك أن اتباع الطرق غير الصحيحة فى الحفظ ، يؤدى إلى سرعة النسيان . وهناك طرق أساسية تؤدى إلى الاقتصاد فى الحفظ نجملها فيما يلى : —

١ — التسميع :

نقصد بالتسميع أن يُسَمِّع الإنسان ما يحفظه لنفسه ، صامتاً أو بصوت عالٍ . ذلك أن الحافظ بعد تكرار ما يحفظ مرة أو مرتين ، بدل أن يستمر فى الحفظ ، يحسن به أن يراجع نفسه ليرى إلى أى حد وصل به الحفظ ، وفى أثناء ذلك يصحح حفظه بالاستعانة بالمادة نفسها الموجودة أمامه ، لأن الحفظ عملية تقوم بها مستعيناً بمساعدة المادة نفسها ، على أن تستغنى عن معونة الكتاب فيما بعد .

وقد ثبت بالتجربة أن طريقة التسميع تقتصد فى الوقت . والسر فى هذا أنك حين تعرف أنك ستسمع لنفسك ، يكون أمامك غرض واحد هو الحفظ ، وحينئذ يقوى الباعث عليه ، وكذلك يستحثك التسميع إلى أن تستغنى عن معونة الكتاب ، ويعلمك أن تعتمد على نفسك بدونه .

٢ — التكرار الموزّع بدل المستمر :

هل يحسن أن تكرر ما تحفظ دون انقطاع ، أم تقطع الحفظ على فترات ؟ و إلى أى حد تطول الفترة ؟

الواقع أن الحفظ الموزّع على فترات أفضل . وفى تجربة أجراها « بيرون » وجد أن شخصاً احتاج إلى تكرار قدره إحدى عشرة مرة ، بين كل مرة وأخرى نصف دقيقة ، فى حفظ قائمة مركبة من عشرين عدداً . بينما احتاج إلى ست مرات فقط ، بين المرة والأخرى خمس دقائق لحفظ قائمة تماثلها .

كذلك الحفظ الموزع يثبت المعلومات . ومن المعروف أن الحفظ قبل الامتحان مباشرة ، أقل قيمة مما إذا سبق الامتحان الدرسى بفترة طويلة .

و إليك نتيجة إحدى التجارب فى حفظ مقاطع لا معنى لها (عن جوست Jost) :

توزيع الـ ٢٤ قراءة	مجموع ما حفظه زيد	مجموع ما حفظه عمرو
٨ قراءات يومياً لمدة ٣ أيام	١٨	٨
٦ » » ٤ »	٣٩	٣١
٢ » » ١٢ »	٥٣	٥٥

ومن هذه النتيجة تجد أن التوزيع الطويل أخرج نتائج حسنة جداً .

٣ — الطريقة الكلية بدل الجزئية :

الطريقة الجزئية هى التى تجزئ بها المادة التى تريد حفظها إلى أجزاء ، ثم تحفظ كل جزء على حدة ، على عكس الطريقة الكلية التى تحفظ بها المادة دفعة واحدة دون أن تقسمها . ولكل من الطريقتين مزايا ومساوئ نبينها فيما يلى : —

لنفرض أنك تريد أن تحفظ قصيدة من الشعر تبلغ عشرين بيتاً ، فتقسمها إلى خمسة أجزاء ، كل جزء أربعة أبيات ، وهذه هى الطريقة التى يتبعها أكثر

التلاميذ عندنا ، وذلك أولا لسهولتها ، وثانياً لأن الطالب يستطيع حفظها على أيام عدة ، ثم هي بعد ذلك الطريقة الطبيعية للأطفال ، لأن مدى عقولهم أصغر من أن يسيطر على كية كبيرة من المادة ، ولأنهم يميلون دائما إلى اختبار أنفسهم ، لعدم صبرهم ولعدم وثوقهم بأنفسهم ، فهم يراجعون دائما كل جزء ، ولذا نجد محفوظات الأطفال ضئيلة الكم . أما مساوئها فهي أن القصيدة لن تكون وحدة مرتبطة ، بل كل جزء يكون منفصلا عن الباقي ، بمعنى أنه لا يكون هناك ترابط بين آخر الجزء الأول ومستهل الجزء الثاني ، ولهذا السبب نجد من يحفظ على هذه الطريقة ، يندفع في تسميع القطعة ، حتى ينتهي الجزء ثم يقف تماماً ، فإذا ما لقنته أول كلمة من الجزء التالي ، استمر في تلاوته بسهولة ، هذا فضلا عن انقطاع سيل المعنى الذي يسود القصيدة وهو ما لا يجب عمله ، لما للمعنى من أثر كبير في الحفظ كما ذكرنا ، وذلك يرجع لعدم وجود الترابط .

أما الطريقة الكلية ، فإنها تتلافى المساوئ السابقة ، فتكون القصيدة وحدة متماسكة مترابطة يسير فيها المعنى من أولها إلى آخرها في انسجام . ولكنها مع ذلك تكون صعبة الحفظ لطولها من ناحية ، ولأن الحافظ إذا ما وصل إلى آخرها يكون نسي أولها من ناحية أخرى ؛ وسبب ذلك أن العقل لا يستطيع أن يلم دفعة واحدة بتفاصيل متعددة ، ولكنها من جهة أخرى تكون أقرب إلى صورة الحياة الطبيعية لأن الحياة وحدة لا أجزاء فيها . هذا وقد ثبت بالتجربة أن الطريقة الكلية أفضل من الجزئية .

وإليك نتيجة تجربة أجراها شخص على نفسه في حفظ قطعتين من الشعر طول كل واحدة ٢٤٠ بيتاً من قصيدة واحدة ، حفظ الأولى مجزأة والثانية من غير تجزئة :

طريقة الحفظ	مدة الأيام التى استغرقها	عدد الدقائق التى استنفدها
٣٠ بيتاً كل يوم ثم استعادتها حتى يستطيع تسميعها .	١٢	٤٣١
ثلاث قراءات للجميع يوميا حتى يصل إلى تسميعها	١٠	٣٤٨

٤ — التثبيت :

تثبت المعلومات التى يحفظها الشخص بالتكرار أولاً ، لأننا رأينا أن الخواطر تتداعى عن طريق التلازم ، وهو تجاور الأشياء ، فكثرة التكرار تؤدى إلى التثبيت .

كذلك صحة المخ لها أثر كبير ، و إذا حدث أى ارتجاج فى المخ ، نتج عن ذلك فقدان الذاكرة . وصحة الأعصاب لها أثر كبير فى تثبيت المعلومات ، ولذا كانت الحمى أو المخدرات مما يضعف الذاكرة . ويؤدى سوء الجهاز الهضمى إلى مثل ذلك .

ومن العوامل المهمة فى التثبيت الراحة بعد الحفظ ، لأنك إذا حفظت شيئاً جديداً مباشرة بعد شىء قديم ، فإن الجديد يغطى على القديم كما ذكرنا سابقاً . وللراحة أهمية أخرى أيضا ، ذلك أن ماتحفظه يستمر ويتردد فى الذهن بواسطة الصور العقلية ، فإذا سمعت نغماً موسيقية وانقطع النغم ، فإنه يخيل إليك أنك لاتزال تسمعه ، فاستعادة ماتحفظه فى الذهن ، وتصوره ، يدعو ذلك إلى تثبيته .

الحفظ غير المتعمد :

إرادة الحفظ ، لها أثر كبير فى الحفظ . وأغلب العلماء يؤكدون أهمية هـذا

العامل ، فقد حدث فى أحد معامل علم النفس فى سويسرا ، أن طالباً كان المفروض أن يحفظ مقاطع لا معنى لها بعد عرضها عليه ، وبعد انتهاء مدة العرض المقررة لم يتذكر منها شيئاً ، لأنه لم يتعمد حفظها حيث لم يطلبوا منه ذلك ، ولهذا فإنه كان يتأمل فى هذه المقاطع ، دون أن يحاول حفظها .

فليس شك فى أن نية الحفظ تؤدى إلى الحفظ .

ولكن إذا فرضنا أن حادثة وقعت أمام الإنسان ، وليس عنده نية حفظ ما وقع ، فانه يتذكر مع ذلك كثيراً من التفاصيل . وقد تسمع نغماً فتردده دون أن تكون عندك نية حفظه . والطفل يحفظ عن طريق اللعب والتسلية أكثر مما يحفظ عن طريق الإرادة ؛ والسر فى هذا أن كل ما يثير الاهتمام ، ويتوجه إليه الإنسان ، ويكون عنده ميل إليه ، فإنه يركز فيه انتباهه ، ويحصر له ذهنه . والحفظ على وجه العموم يتطلب الانتباه التام ، واليقظة العقلية . وفى الحفظ المتعمد يكون الانتباه إرادياً ، وفى غير المتعمد يجذب انتباه الشخص على الرغم منه ، إما عن ميل ، وإما عن أى سبب آخر .

والميل ضرورة من ضرورات جودة التذكر . فالشخص الذى يميل إلى دراسة التاريخ ، يشتغل ذهنه به وينصرف إلى قراءته ويجد فى درسه لذة كبيرة ، ومثل هذا الشخص يكفى أن يقرأ كتاباً فى التاريخ مرة واحدة حتى يحفظه .

الوعى والنسيان

بعد أن يحفظ الإنسان المعارف ، يحتفظ الذهن بها ويخزنها ويستبقيها ، حتى إذا شاء أن يسترجعها بعد ذلك وجدها حاضرة فى الذهن . ومعنى الاحتفاظ بالمعلومات هو عدم نسيانها .

وليس الوعى نشاطاً عقلياً بل هو حالة ركود .

والنسيان ظاهرة طبيعية لا بد أن تأخذ مجراها الطبيعى عند كل إنسان ، ومَثَل المعلومات التى تصل إلى الذهن ، ثم تخف آثارها أو تمحى ، مثل الحائط الذى يطلى بالدهان ، فيكون فى أول أمره براقاً ثابت الطلاء ، ثم لا يلبث ذلك الطلاء أن يمحى بالتدريج حتى يزول تماماً .

فالمعلومات تزول بعدم الاستعمال .

ولكن هل إغفال المعلومات ، و إهمالها يجعلنا ننساها تماماً ؟ هناك من يقول بأن كل ما يدخل الذهن يبقى فيه بحيث لا ينسى أبداً ، فهو موجود ولكننا لا نستطيع أن نستحضره ، بدليل ظهور بعض الذكريات فجأة ، كما يحدث لبعض الناس الذين تعلموا لغة أجنبية فى الصغر ثم نسوها تماماً ، ولسبب من الأسباب يتكلمون بها فجأة و يتذكرونها . ولكن هذا الرأى فيه كثير من الغلو .

ومع ذلك فإن الإنسان لا ينسى تماماً ، فإنك إذا حفظت قصيدة من الشعر ثم نسيتها تماماً ، ثم رجعت بعد ذلك تحاول حفظها ، فإنك تجد ذلك أسهل .

ونلاحظ أن معلومات الإنسان بعد وصولها إلى الذهن مباشرة ، تكون أسرع نسياناً مما إذا تركت برهة من الزمن تستقر فى الذهن ، وتقدر هذه المدة التى تستغرقها المعلومات فى النسيان من يوم كامل إلى ثلاثة أيام . لذا يجب على كل شخص أن يكشف فى نفسه عن المدة التى يستنفدها فى النسيان ، ويبدأ بعدها أن يتذكر . و يختلف الناس فى سرعة نسيانهم ، وهذا ناشىء عن اختلاف فى الطبائع .

وهناك بعض الناس لهم القدرة الغريبة على حفظ كل شىء وعدم نسيانه ، وهؤلاء شواذ لم يستطع العلم تعليل السر فى ذلك . ومما يروى فى باب هذه الغرائب

ما قيل من أن « أبا العلاء المعرى » كان يصلى بالمسجد وإذا به يسمع أجنبيين يتشادان باللغة اليونانية ثم اختلفا وذهبا إلى القاضى ، الذى طلب شهود الحادث ، فقالا له لم يكن بالمكان إلا شيخ أعمى ، فأحضر بين يدى القاضى ، فروى الحديث الذى دار بينهما بتمامه ، وهو يجهل هذه اللغة كل الجهل .

وللسن أثر فى النسيان ، فالإنسان فى صغره يكون أكثر حفظاً وأقل نسياناً .

ثم إذا حفظ الإنسان شيئاً بتثبت ، وكرره كثيراً ، فإن نسيانه يكون بطيئاً . كذلك الأشياء التى تحفظها بعد فهمها ، وبالطريقة الكلية ، تكون أسهل حفظاً وأبطأ نسياناً .

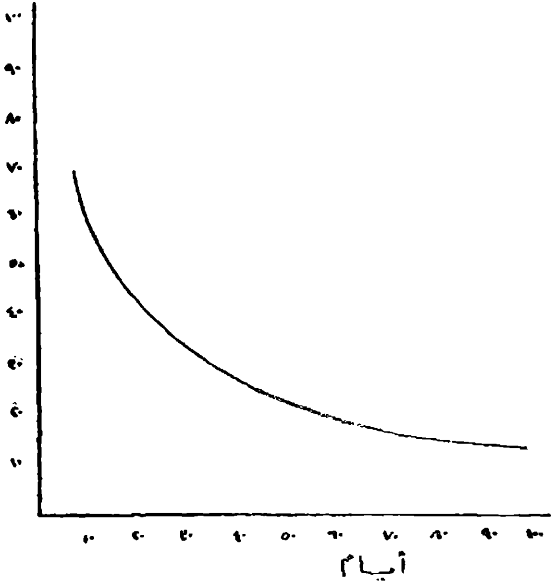
وقد أجرى العلماء تجارب على النسيان ، وأخرجوا ما نسميه « خط النسيان » وهو خط بيانى يتضح منه سرعة النسيان فى الأيام الأولى التى تلى الحفظ ، ثم وقوف النسيان بعد ذلك ، والاحتفاظ ببعض الأشياء التى لا تنسى (انظر شكل ١١) .

وللعمل على الاحتفاظ بالمعلومات ، يجب أن يتبع الحافظ الطرق السابقة الصحيحة التى ذكرناها فى الحفظ ، وهى حسن استعمال الحواس ، وفهم المعنى ، وربط المعلومات ، والتسميع ، والتكرار الموزّع ، واستعمال الطريقة الكليـة ، وتثبيت المعلومات ، ثم يراجع الحافظ بعد ذلك ما حفظه بين الحين والآخر ، لأن ذلك يساعد على بقائه وعدم نسيانه .

الاسترجاع

الاسترجاع هو استحضار ما حفظه الإنسان فى الماضى إلى الحاضر .

وفى كثير من الأحيان يصعب على المرء الاسترجاع ، ولو أنه يحفظ تماماً ما يريد أن يسترجعه ، ولذلك أسباب عدة ، أهمها وجود عوامل نفسية عارضة



(شكل ١١) خط النسيان

تمنع من الاسترجاع ، وتبعث على الاضطراب كالانفعالات الشديدة ؛ فالطالب الذى يدخل قلبه الخوف فى وقت الامتحان يضطرب ولا يستطيع أن يتذكر شيئاً ، وعلاج هذا الأمر هو الثقة بالنفس والطمأنينة .

ومنها ظهور فكرتين فى آن واحد ، فتتصادم الفكرتان وتمنع إحداهما الأخرى من الظهور ، كالذى يريد أن يتذكر رقم تليفون فيظهر فى ذهنه فى نفس الوقت رقم تليفون صديق آخر ، وفى هذه الحالة يجب أن تترك الأمر أصلا وتعود إليه بعد مدة وجيزة .

ويجب أن تعلم أنه لا يوجد فرق أساسى بين الحفظ والاسترجاع ، لأنك تسترجع نفس ما حفظت ، ولكن فى الحفظ يجرى الإنسان عملية ملاحظة ينتبه فيها ليكتسب المعلومات ، أما فى الاسترجاع فنحن نستعيدها فقط .

ولأجل أن تسهل عملية الاسترجاع ، يجب أن تربط ما تريد أن تتذكره وأنت تحفظ ، بأشياء تعرفها ويسهل عليك استرجاعها ، فقوانين الترابط لها الأثر الأكبر فى الاسترجاع ، ويجب أن تعمل دائماً على ربط المعانى بغيرها مما يكون معهوداً لديك ، ويكون شائقاً جذاباً بحيث لا تنساه . وهذا هو السر فى تسمية الناس أصدقائهم بأسماء مستعارة ، يكون الغرض منها الفكاهة ، وتكون فى الغالب مطابقة للشخص تمام المطابقة بحيث تلبسه وتشبهه ، فتكون أقرب إلى الترابط بين الشخص وبين هذا الاسم المستعار . وإذا شئت أن تتذكر التاريخ الجاف ، الذى تجد صعوبة فى حفظه ، فما عليك إلا أن تربطه بتواريخ معروفة لديك ، أو بقصة تاريخية مشوقة تقع فى نفس ذلك العصر .

التعرف

التعرّف هو معرفة أن ما نسترجعه سبق أن مر بنا حقيقة . والتعرف أسهل من الاسترجاع ، فقد تجد كثيراً من الصعوبة فى استحضار ماحفظته ، ولكن إذا عرض عليك الشىء فإنك تتعرف عليه ، وتؤكد أنه جزء من تجاربك الماضية . والتجارب العلمية التى تجرى على التعرف يكون أغلبها على المشمومات ، لأنها أدق وأصعب فى تمييزها من المرئيات والسمعيات .

وقد يكون التعرف جزئياً ، فكثيراً ما ترى شخصاً فتحدثك نفسك أنك تعرفه ، أو تشعر بنوع من الألفة بينك و بينه ، كأن تكون قد قابلته ، أو اشتريت منه شيئاً ، أو صادفته فى مكان ما ، ولكنك لا تستطيع التأكد من الذكر على وجه التحقيق . وعلة ذلك أن معرفته الأولى متصلة بكثير من الأحاسيس كالشوق والفرح والغضب ، ومتصلة بكثير من الحوادث ، فيكون من العسير استخلاص هذه الذكرى المعينة من بين تلك الأخلاط الغامضة من الأحداث ، ويخرج تذكرك ناقصاً جزئياً .

وعملية التذكر الكاملة يشترط فيها التعرف ، إذ لا يكفى أن تستحضر ما حفظته ، بل يجب أن تعرف أنه هو هو وليس غيره . وكثيراً ما يصحب التذكر نوع من التردد أو الشك فيما نسترجعه بحيث لا يثق الإنسان بهذه الذكريات ، أوقعت حقاً أم هى وهم من اختراع الخيال ؟ وفى كثير من الأحيان تستحضر فى ذهنك أحداثاً على أنها وقعت لك ، ولكنها فى الواقع لم تحصل بتاتاً ، وهذا نوع من الخداع . وقد تدخل منزلاً لأول مرة فيخيل إليك أنك دخلت هذا المنزل قبل ذلك ، وأنك تعرفه ، وحقيقة الأمر أنك لم تعرفه ، وسبب ذلك يرجع فى الغالب إلى وجود تشابه بين هذا المنزل ومنزل آخر تعرفه .

التحديد

تكمل عملية التذكر بتحديد المكان أو الزمان الذى وقعت فيه الأشياء التى نتذكرها . والتاريخ تحديد زمانى للحوادث ، ولذلك يأخذون حادثة معينة يصطلحون عليها كبداية للتاريخ ، وترتب الحوادث بحسب وقوعها بعد هذا الزمن أو قبله ؛ فميلاد المسيح مبدأ التاريخ الميلادى ، والهجرة النبوية بداية التاريخ الهجرى . ويتخذ الناس حوادثهم الخاصة لتحديد أزمنة حياتهم . وتحدد الأشياء أيضاً بنسبتها إلى المكان ، فتقول إنك عرفت فلاناً فى الأسكندرية على شاطىء البحر ، أو قرأت هذا الشعر فى الصفحة اليمنى من كتاب من كتب الأدب . وهذا التحديد يتطلب تذكر الصلة بين ما تسترجعه وبين الأشياء التى ترتبط بها . فتذكر الروابط المختلفة كالتلازم أو التشابه أو التضاد أو الروابط المنطقية ، أساس التحديد . وقد تحدد ما تذكره لاتصاله بانفعالات وجدانية حدثت معه ، كألم أو فرح أو خوف .

ولا يعد عدم تحديد الشىء الذى تستعيده نقصاً فى عملية التذكر ، ولا عدم التعرف ، إذ يكفى أن تسترجع ما تحفظه دون أن تحدد مكانه أو زمانه أو تتعرف عليه ، هل وقع حقاً أم لا ؟ والغالب أننا لا نستطيع تحديد الذكريات إلا بصعوبة شديدة ، أما الشك فى التعرف فيعد مرضاً من أمراض الذاكرة .

الفصل الثالث عشر

إدراك الكلي

يكتسب العقل المعرفة الأولية عن طريق الحواس ، ثم تكوين المدركات الحسية ، ثم يستطيع أن يستغنى عن المدركات الحسية الموجودة فى الخارج ، ويتذكرها عن طريق الصور العقلية . فالطفل الصغير يقدم إليه كوب اللبن أو قطعة الحلوى ويتذوقهما ويدرك شكلهما وطعمهما ، ثم تشتهى نفسه ما ارتاحت إليه ، فيطلب ذلك اللبن أو تلك الحلوى اللذين تذوقهما ، ففى ذهنه صورتهما كما جربهما ، بمعنى أنه يطلب ذلك اللبن الذى شربه ، موضوعاً فى نفس الإناء الذى رآه ، مصحوباً بنفس الحرارة التى كان عليها ، وفى المكان الذى تذوقه فيه . فالمدرك الحسى معرفة لشىء خارجي محدود جزئى خاص ، والصورة العقلية استرجاع ذلك الشىء الخارجي المحدود الخاص .

وللعقل القدرة على إدراك المعانى الكلية العامة ، التى تنطبق على كثير من الجزئيات المحدودة ، فيدرك معنى اللبن إطلاقاً ، أو الحلوى إطلاقاً ، دون أن يقصر ذلك المعنى على اللبن الذى شربه ، والذى كان موضوعاً فى إناء رآه ، والذى كان مصحوباً بحرارة معينة ، والذى تناوله فى مكان معين ، بل اللبن عامة ، كثيراً كان أم قليلا ، ساخناً أم بارداً ، فى أى مكان من الأمكنة ، وفى أى وعاء .

فالمدركات الحسية جزئية ، تحد بالأشياء ذاتها التى نحسها ولا تتعداها ، بينما

المعنى الكلى ، معنى مجرد عام ، مجرد لأنه يشتمل على صفات منتزعة عن مشخصاتها ، وعام لأنه ينطبق على أفراد كثيرين من نوعه . فالمعانى الكلية نصل إليها بالتجريد والتعميم .

التجريد :

إن ما يصل إلى الذهن من الشىء الخارجي هو عدة صفات لهذا الشيء ليس إلا ، أما الشيء نفسه فوجود فى الخارج وله حقيقة فى ذاتها لا ندركها . والمدرك الحسى عبارة عن مجموع صفات هذا الشيء التى تصل إلى الذهن . فإذا رأيت شخصاً ، فما يصل إلى ذهنك منه ، هو اللون والشكل الخارجي والحجم ، ولكن هذه الصفات لا تنفصل فهذا الشخص بصفاته كل لا يتجزأ عن المدرك الحسى . من بين هذه الصفات أن له شعراً « ذهبي اللون » فهو فى الذهن شعر لونه ذهبي . الشعر واللون لا ينفصلان فى الواقع ، لأنك لا تجد شعراً لا لون له ، بل يجب أن يكون أسود أو أبيض أو من أى لون آخر . ومن ناحية أخرى لا تجد لوناً لا يقع فى مادة من المواد ، كاللون فى قطعة الخشب أو الشعر أو القماش أو الحائط . . . ولكننا بواسطة العقل نستطيع أن نتصور اللون فقط بدون المادة الموجود فيها ، والتى يجب أن يكون موجوداً فيها ، ولا يكون فيها إلا بالفعل ؛ فإذا أدركت شجرة لون أوراقها أخضر ، فإنك تتصور — من المدرك الحسى للشجرة — اللون الأخضر فقط ، أى تستبقى فى ذهنك اللون الأخضر فقط ، بينما اللون لا ينفصل فى الواقع عن ورقة الشجرة الموجود فيها . إذاً هناك صورة مدركة حسية فى الذهن ، هى عبارة عن ورقة الشجرة مضافاً إليها اللون الأخضر ، وشكل الورقة ولونها الأخضر لا ينفصلان فى الخارج أو الحقيقة ، فأنت فى

الذهن استطعت أن تفصل اللون عن ورقة الشجرة وتستبقيه بمفرده . هذه العملية العقلية التي استطعت بها أن تفصل اللون عن ورقة الشجرة تسمى : التجريد . فالتجريد هو انتزاع صفة من صفات المدرك على حدة ، منفصلة عن باقي الصفات . فالورقة التي تقرأ فيها الآن ، ذات لون أبيض ، وشكل مستطيل ، وسمك معين ، ولكنك تستطيع أن تجرد اللون الأبيض من الورقة التي تقرأ فيها ، وأن تنتزع شكلها المستطيل ، وأن تدرك سمكها فقط . . . ونحن في الواقع لا ندرك البياض بمفرده ، بل ندرك الورقة وقد اجتمعت فيها جميع الصفات التي ذكرناها .

وهناك فرق بين التجزيء والتحليل والتجريد . فالتجزيء هو تقسيم الشيء الواحد إلى عدة أجزاء ، مثل تجزيء الكتاب إلى مائة ورقة ، والرغيف إلى نصفين . والتحليل هو الوصول إلى عناصر الموضوع أو المواد التي يتركب منها مثل تحليل الهواء إلى أكسجين وأزوت . ولا يكون التجريد تجزيئاً ، ولكنه قد يقترب من التحليل ، ومع ذلك فبينهما فروق ، إذ ليس من الضروري في التجريد أن يعنى الذهن بالبحث عن جميع العناصر التي يتحلل إليها الشيء .

وهناك ثلاثة أنواع من التجريد ، فقد تجرد الكيف أو الكم أو العلاقة . فانتزاع صفة اللون من الورقة هو تجريد الكيف ، وتجريد عدد صفحات الكتاب وحجمه هو تجريد الكم ، وتصور النسبة بين الكتاب والمنضدة الموضوع فوقها هو تجريد العلاقة .

وسواء كنا نجرد صفة أم كمًّا أم علاقة ، فالعقل يبذل جهداً ، « وينزع » إلى أداء هذا العمل ، فالتجريد بداية لنزوع ، بل هو حركة عقلية . فمعنى « الجاذبية » أنها المجهود الذي نبذله لنقرب منا أو نبعد عنا شيئاً يقاوم القوة التي بها تقارب أو تباعد .

وللصفات التى ندركها أثر فينا ، فنعجب بها أو نحتقرها أو نقبل عليها أو نبتعد عنها ؛ فهذه وردة أدرك رائحتها الجميلة ، فجمال رائحتها يجعلنى أشتاق إليها وأطلبها . فصفات الأشياء تنتج فينا نوعاً من النزوع أو النشاط لـكسبها .

فإذا أعجبتنى الصفة ، فإنى أركز فيها « انتباهى » لأن هذه الصفة ستكون موضع العمل منى ، وعلى ذلك فالتجريد يتطلب الانتباه أولاً .

وتتفاوت المعانى المجردة ، فبياض هذه الورقة أقل تجريداً من معنى البياض إطلاقاً ، والبياض أقل تجريداً من معنى اللون ، واللون أقل فى درجة التجريد من معنى الصفة . . . . .

كيف نصل إلى التجريد ؟

هناك ثلاث نظريات يفسر بها التجريد ، ولـكل منها وجه من أوجه النقص ، ونحن نسوقها فيما يلى : —

١ — النظرية التى تقول بأن الحواس هى آلات التجريد . فـكل حاسة تختص باكتساب نوع من الصفات تمتاز به ولا تشاركها فيه غيرها ، وذلك حين ندرك المحسوسات . فالعين تدرك الألوان ، والأذن الأصوات ، والأنف الروائح ، واللسان الطعوم ، وسطح الجلد الملموسات ، فالانسان يوزع الصفات ويقسمها ، تبعاً لتقسيم الحواس الطبيعى ، فالجسم آلة خلقت للتجريد ، والحواس مضطرة إلى التجريد بفطرتها ، وإذا لم يكن الأمر كذلك لاختلطت الأشياء بعضها ببعض ، حتى لتدرك العين الروائح والطعوم والمشمومات والأصوات كما تدرك الألوان .

ولا تصلح هـذه النظرية لتفسير التجريد إطلاقاً ، فالحواس تفصل صفات الـكيف فقط ، وليست كل المعانى المجردة كيفيات ، فهناك معان كثيرة ليست

بصفات ، مثل معنى السببية ، والتبعية ، والجاذبية ، والعددية ، وهذه العلاقات المختلفة لا تستمد من الحواس . كذلك العين لا ترى اللون فقط ، بل ترى شكلا بمجموعه ، يحتوى على حجم ولون وسطح وشكل ، وليس من طبيعة العين انتزاع اللون فقط منفصلاً عن الشكل . فإذا صلحت الحواس لتفسير بعض أنواع التجريد الأولية ، فإنها لا تفسر لنا باقى أنواع التجريد .

٢ — النظرية الثانية هى التى تقول بأن الانتباه ، وهو المجهود العقلى الذى يبذله الإنسان حين الإدراك ، أو هو حصر الفكر فى جزء من الحقيقة الخارجية ، بينما تظل باقى الأجزاء مهملة لا يوجه إليها الملاحظ نظره ، هذا الانتباه الذى يضيق دائرة الشعور هو الذى يؤدى إلى التجريد .

والاعتراض على هذه النظرية يقع فى سببين ، الأول أننا إذا كنا نوجه الانتباه نحو فصل جزء من الحقيقة ، وتقطيعها لأنها أكبر من أن تدرك ، فليس التجزىء تجريداً ، فإذا فصلت يد الشخص عن الجسم ، فليست اليد إلا جزءاً من الجسم ، ولا تعد معنى من معانى الجسمية أو الإنسانية . والسبب الثانى أننا إذا قلنا إن الانتباه يؤدى إلى تحليل الشىء إلى عناصره الأولى ، كالنمو بالنسبة لجسم الإنسان ، فيكون الانتباه مرادفاً إذاً للتجريد ، أو تكون هناك قوة للانتباه ، وقوة أخرى للتجريد ، بينما المجهود العقلى واحد .

٣ — النظرية الثالثة أن أصل التجريد لا يكون فى المدرك الحسى فقط ، ولا فى قوة الانتباه فقط ، بل فى القدرة على الموازنة . وذلك أن العقل لا يفعل شيئاً أمام الشىء « الواحد » الواقع تحت حسه ، ولكن العقل إذا أدرك شيئاً آخر يماثل الأول ، وثالثاً يماثلهما ، فإنه يلحظ اشتراكهما فى صفة واحدة ، وينتزعها

منها جميعاً ، عن طريق الموازنة بينها . والموازنة هي انتقال الانتباه من شيء إلى آخر لكشف بعض أوجه الشبه .

ولكن انتزاع الصفة المشتركة بين عدة أفراد متشابهين ، يفرض أن الشيء الذي ندركه يتكون من عدة صفات منفصلة ، وبذلك يتيسر للعقل أن يلحظ هذه الصفات ، وأن يوازن بين الأشياء فيدرك وجه الشبه في كل منها . والواقع يخالف ذلك ، لأن إدراكنا للشيء الواحد يكون كاملاً ، بحيث تجتمع صفاته كلها دفعة واحدة ، دون أن تكون هذه الصفات منفصلة ، فنحن حين ندرك الصفة الكائنة في شيء على أنها مماثلة لصفة أخرى في شيء آخر وثالث ورابع ، يتجه عقلنا إلى أن هذه الصفة « عامة » في الجميع ، فعملية التجريد لا تفهم بواسطة الحواس أو الانتباه أو الموازنة فقط ، بل لا بد من إضافة عملية التعميم إليها .

التعميم :

المعنى الكلي[1] هو المعنى العام الذي ينطبق على أفراد كثيرين ، مثل شجرة فإنها تنطبق على آلاف الأشياء الخارجية المعروفة بهذا الإسم ، ومثل إنسان لأنه ينطبق على جميع الناس .

ولأجل أن يطبق العقل المعنى الواحد على عدة أفراد ، يجب أن يلحظ بينهم صفات مشتركة هي التي تجعله يدرج هؤلاء الأفراد تحت معنى واحد . فالمعنى الكلي يدل على صفات مشتركة أولا ، وعلى صلاحية أفراد كثيرين للاشتراك في هذا المعنى . فمن الناحية الأولى تسمى هذه الصفات مفهوم[2] المعنى ومن الناحية الثانية

---

(١) Concept .

(٢) Compréhension

يسمى الأفراد الذين ينطبق عليهم هذا المعنى الماصدقات(١). وهذا هو تقسيم المناطقة للمعنى الكلى ، فله مفهوم وماصدق . فمفهوم الإنسان الحيوانية والنطق ، وماصدقات الإنسان هم جميع أفراد النوع الإنسانى .

كيف نصل إلى تكوين المعنى الكلى ؟

يحسن قبل أن نبحث فى تكوين المعنى الكلى ، أن نفرق بينه و بين الصورة المركبة(٢) التى أراد بعض علماء النفس مثل جالتون أن يوازنوا بينهما . والصورة المركبة هى صورة نحصل عليها من تأمل عدة صور مختلفة لشىء واحد ، فيخرج لنا من جماعها صورة تمثلها جميعاً ؛ مثال ذلك أن جالتون صوّر الأسكندر بعد رؤيته ست مداليات موجودة فى المتحف البريطانى تمثل الأسكندر فى أعمار مختلفة من حياته . هذه الصورة نحصل عليها بانتزاع الصفات البارزة المشتركة فى عدة مدركات حسية ، ولكنها لا تتعدى هذه المدركات الخاصة ، بحيث إذا أضيف مدرك حسى جديد اضطررنا إلى تغيير الصورة المركبة ، وتعديلها بما يوافق الشىء الجديد . فالصورة المركبة لا تنطبق إلا على العدد المحدود من المحسات المنتزعة منها .

ولكن المعنى الكلى يخالف ذلك ، فمعنى « إنسان » ينطبق على أفراد لانهاية لهم ، على أفراد الإنسان فى الماضى والحاضر والمستقبل .

نعود إلى السؤال مرة أخرى ، كيف يتكون المعنى الكلى ؟ إن معارفنا تبدأ فى الأصل بالمدركات الحسية الجزئية ، التى تترك وراءها صوراً ذهنية . فنحن نرى هذه الشجرة وتلك وتلك ، وكل واحدة منها تترك فى الذهن

---

(١) Extension

(٢) L'Image composite

صورة لها ، فكل معرفة كانت فى الأصل معرفة الجزئيات ، و بين هذه الجزئيات خلاف فى الأعراض ، فشجرة طويلة وأخرى قصيرة ، وثالثة مورقة ، ورابعة مخضرة ، وخامسة مثمرة ... فكيف نخرج من هذا التعدد إلى الوحدة ، ومن الخلاف إلى الاتفاق ؟

أجاب هاملتون عن هذا السؤال بنظريته المعروفة ، فهو يميز خمس خطوات فى تكوين المعنى الكلى : —

١ — الأولى الإدراك الحسى للأشياء الخارجية المتكثرة المتعددة .

٢ — الثانية الموازنة بين هذه الأشياء الخارجية لمعرفة الصفات العامة المشتركة بينها .

٣ — الثالثة توجيه الانتباه الذى يركز الذهن فى الصفات التى لحظ الإنسان اشتراكها ، وتجريدها من غيرها .

٤ — الرابعة التأليف بين هذه الصفات المشتركة .

٥ — الخامسة التسمية ، أى وضع اسم لهذه المجموعة المشتركة من الصفات .

وللاسم الذى يتصل بالمعنى أهمية كبيرة فى الخطوات التى تعمل على تكوينه وسنبين هذه الأهمية وقيمة اللغة فى الإدراك الكلى فيما بعد .

و يبين هاملتون هنا أننا نصل إلى التجريد بالموازنة ، وقد اتضح لنا قصور هذه العملية عن الوصول الكامل إلى التجريد . و إذا قلنا إننا ننتزع الصفات المشتركة من بين عدة مدركات حسية ، فالمعنى المنتزع لن يكون إلا « صورة مركبة » محدودة بهذه المدركات الحسية فقط ؛ فنحن فى حاجة إلى تفسير عملية التعميم بغير هذه الخطوات .

والحقيقة أن مشكلة التجريد لا تحل بمفردها ، بل هى عملية لا تنفصل عن

التعميم . فالمعانى الكلية معانٍ مجردة ، وكل معنى مجرد هو معنى عام . وبيان ذلك أن كل معنى عام هو معنى مجرد ، لأنه لإدراك أن من خصائص المعنى الانطباق على عدد لا نهاية له من الأفراد ، يجب أن ينتزع أو يجرد هذا المعنى من المحسات التى تشمل صفات مشتركة ، والعكس لا تجريد بغير تعميم . وقد يكون عند الحيوان شىء من هذا ، ولكن بصورة محدودة عما هو موجود عند الإنسان ، فالفيل الذى يدرب على حمل الأثقال ، قد تنشأ فى ذهنه فكرة الثقل ، ولكنه لا يستطيع أن يمتد فى تطبيق هذه الفكرة على الأشياء التى لا يتصل بها ولا تهمه . بينما الإنسان عنده المقدرة على التجريد والتعميم فى آنٍ واحد . فإذا جردتُ اللون الأبيض من هذه الورقة فقط دون أن أفكر فى أن اللون الأبيض قد يوجد فى أشياء أخرى ، فإن هذا التجريد لا يعدو الحقيقة الجزئية ، ولا يعلو كثيراً فوق الحس ، إذ أن هذه الصفة تظل متصلة بمجموعة الصفات المستمدة من ذلك الشىء .

والحقيقة أيضاً أن العقل لا يقف موقفاً سلبياً من الأشياء التى يجردها ، ولكنه يميل إلى النشاط ، ويتجه إلى أن يكون بداية لعمل . ذلك أننا نرد دائماً على مطالب الحياة ، ونحاول أن نسلك دائماً أمام المواقف المختلفة التى تقدمها لنا الظروف الخارجية ، وليس الأصل فى الإنسان أن يعمل لكسب المعرفة المجردة الخالصة . فنحن ندرك الأشياء التى نجد فيها فائدة لنا ، ولذلك كان الإدراك الحسى باعثاً إلى النزوع والميل إلى العمل . إذا طلبت من شخص أن يصف لك كوب الماء الذى كان يشرب منه ، أو السكين التى كان يستعملها فى تناول الطعام ، أو الأطباق التى كان الطعام موجوداً فيها ، فإنك تدهش لعدم مقدرته على وصفها ؛ ذلك أن الشخص لم يدرك الكوب إلا على أنه يحوى الماء ، ولم يدرك الأطباق إلا على أنها أوعية الطعام ، ولذلك يُعَرِّف الإنسان الأشياء أولاً

لفائدتها وصلاحيتها للاستعمال ، ولا يبدأ الإنسان فى تمييز الصفات المجردة الذاتية المقومة لطبيعة الشىء إلا فيما بعد . ونحن لا نقف من الطبيعة موقف المتفرج دون اهتمام ، بل ننظر إلى الطبيعة بمنظار الحاجة والمنفعة ، ونحاول دائماً أن نطبق سلوكنا ، الذى أفادنا فى موقف ، فى الظروف الأخرى المشابهة . فالجسم يسلك نفس السلوك فى الظروف المتشابهة التى قد تختلف فى بعض التفاصيل ، فالإنسان حين يرى وحشاً قد أفلت من قفصه ، ليكن هذا الوحش أسداً أو نمراً أو أى حيوان مفترس ، فإن الإنسان يتخذ وسيلة الهرب ، وفى هذا السلوك الغريزى يجرد الإنسان معنى الخطر ، وهو فى نفس الوقت يعمم هـذا المعنى ، لأن الخطر سواء أكان عن أسد أو نمر ، فهو خطر بالنسبة له · فمن هذا المثال يتضح لنا تماماً أن « فكرة الخطر » جردت وعممت فى آن واحد .

فهو تجريد وتعميم مستمدان بالطبيعة ، وسابقان على كل تفكير . ولـكن الإنسان لا يقنع بما تقدمه له الطبيعة ، فهو يفكر ويتأمل ، ويشعر بفائدة هـذه المجردات الطبيعيـة ، فيحاول أن ينسج على منوالها ، مقلداً فى ذلك الطبيعة ، وأكبر عون له فى هذا التعميم ، هى الألفاظ التى اخترعها الإنسان ليثبّت فيها هذه المعانى المجردة .

اللغة والمعنى الـكلى :

اللفظ هو رمز نضعه فى الاصطلاح لمعنى من المعانى . هـذه الرموز ضرورية لوضع أساس الاستقرار فى التقدم العقلى ، وذلك لتركيز كل خطوة من سير الذهن ، حتى نستطيع أن نتقدم فى ذلك السير . فقد يغزو الجيش بقعة من الأرض وينتصر عليها وينتشر فوق أديمها ، ولـكنه لا يملكها إلا حين ينشىء

فوقها الحصون ، فالألفاظ حصون الفكر . ولنضرب مثلا آخر ، فإنك تعرف دون شك أن الأنفاق التى تحفر فى أرض رملية ، لا تستقيم إلا إذا بنيت عقود من الحجر على مسافات لتمنع انهيار الرمل ، فاللغة بالنسبة إلى العقل كالعقود بالنسبة للأنفاق .

فالمعنى يظل حائراً فى الذهن ، حتى يستقر فى اللفظة المناسبة ، فيثبت ويتركز ويتحدد . واللغة ضرورية للفكر ، حتى للتفكير الشخصى ، فالإنسان بينه وبين نفسه يفكر فى أثواب من اللغة . قال صاحب البصائر النصيرية[1] : « أما إذا جرى التعليم فيه [يعنى المنطق] على سبيل المخاطبة والمحاورة ولم يكن ذلك إلا بألفاظ ، صارت الألفاظ أيضاً منظوراً فيها بالضرورة ، خصوصاً وفكر الإنسان قلما ينفك عن تخيل ألفاظ معها ، حتى كأن الإنسان يناجى نفسه بألفاظ متخيلة إذا أخذ فى التروى والتفكر » .

وقد نسأل أنفسنا ماهى الحاجة التى دفعت الإنسان إلى اختراع اللغة ، التى أفادتنا هذه الفائدة الكبرى فى تركيز المعانى المجردة العامة ، والجواب عن هذا يسير ، فهذه الحاجة تمتد أصولها إلى المجتمع . أما الحيوان لأنه يستغرق فى الأنانية ، ولأنه يعيش ليشبع رغبات الحس فحسب ، ولأنه يعمل لفائدته الشخصية ، فإنه يعيش لنفسه . فآكل العشب يعرف الأعشاب ويميزها ويدركها ليأكلها ، ولكنه لا يبدى ميلاً إلى نقل هذه المعرفة لغيره من أقرانه . ففكره ينعكس على جسمه ، وينعكس على شهواته التى تملى عليه طريق العمل . فالحيوان عبد لشهواته الجسمية ، ولذلك كانت هذه الأنانية البعيدة الغور مانعة من ابتكار اللغة . ولكن الإنسان لحاجته إلى نقل الفكر من شخص إلى آخر ، اضطر إلى استعمال

---

(١) البصائر النصيرية ص ٦

اللغة . واللغات فى أول أمرها بدأت بالأسماء والصفات دون الأفعال ، فكثير من لغات الشعوب الهمجية لا أفعال فيها .

ولأجل أن ينقل الإنسان فكره إلى غيره ، يجب أن يتخذ وجهة نظر ذلك الغير ، ولذلك فهو يلغى من تفكيره المدركات الشخصية البحتة ، و يستبقى المدركات العامة التى يفهمها هو وغيره . فإذا رأى الإنسان شجرة ذات فروع كثيرة مورقة خضراء ، و يحاول أن ينقل هذا المعنى المحسوس المتصل الصفات الكثير التفاصيل ، فإنه ينبغى أن يلغى التفاصيل الجزئيــة الخاصة من هذا الشكل ، ثم يضم فى لفظ واحد ما يمثل للجميع ؛ فاللفظ « شجرة » يدل على هذا الشكل جملة ، هذه الشجرة التى ليست بقصيرة أو طويلة ، مورقة أو جرداء ، خضراء أو يابسة ، فى حقل أو فى حديقة ، إلى اليمين أو إلى اليسار ، ثم يضيف العقــل إلى هذا المعنى أو الاسم صفة تحدد ما يطلب الإنسان من فكر ، فيقول شجرة خضراء .

الفصل الرابع عشر

التفكير

كثيراً ما يخطىء عامة الناس فى معنى التفكير ، فيطلقون هذا الاصطلاح على كل ما يجول بخاطر الإنسان . فإذا أدرك شكلا ، كالذى يسير فى حديقة فيقع بصره على أشجارها وأزهارها ، فإنه يقول إن ما يدركه تفكير ، وهذا فى الواقع إدراك حسى . وقد يسبح فى الخيال فتتابع الصور فى ذهنه ، وهذا تخيل . وقد يسترجع من الماضى أحداثاً وقعت له ، ويسمى هذا تذكراً .

أما التفكير الكامل وفى أرقى درجاته ، فلا يكون إلا إذا وقف الإنسان موقفاً جديداً لا يعهده ، ولا يدرى كيف يسلك للخروج من هذا الموقف الجديد إذ يجد أمامه أوجهاً كثيرة للسلوك ، يتردد فى اختيار أفضلها ، ويستعرض أمامه المسالك المختلفة قبل أن يستقر رأيه على طريق منها .

فالإنسان أمام الخطر الداهم ، يلجأ إلى الهرب ، وهذا سلوك غريزى ، والطالب يذهب من البيت إلى المدرسة فى طريق معينـة لا يغيرها ، لأنه ألفها بالعادة . وأغلب أعمال الإنسان آلية ، يكون فى الحقيقة مسوقاً إلى عملها . وذلك عن طريق الفعل المنعكس ، أو الفعل المنعكس المتعلق بشرط ، أو بالغريزة ، أو بالعادة أو بسلطان الإيحاء أو التقليد . والحقيقة أن اللحظات التى يتخلص فيها الإنسان من سلطان هذه الآلية ، ويشعر بالحرية فى العمل ، حيث يفكر التفكير الصحيح ، هى لحظات قصيرة بالنسبة لحياة الإنسان . فالتفكير الصحيح يتطلب أن يشعر الإنسان بوجود مشكلة تقف فى طريقه ، وتحتاج إلى الحل ، فيصبح حل هـذه

المشكلة « الغرض » الذى يسعى الإنسان إلى تحقيقه . ويشبه « ديوى » عملية التفكير بالمسافر الذى يقطع طريقاً مستوياً لامنعرج فيه ، فهو ليس فى حاجة إلى تفكير للسير فى هـذا الطريق ، فإذا فرضنا أن الطريق انشق فى المنتصف إلى ناحيتين ، إحداها فقط هى التى تؤدى إلى النهاية المطلوبة ، حينئذ يتروى المسافر عند مفترق الطرق ، ويفكر أى الطريقين يسلك .

ويتكون التفكير من عدة عناصر هى : المعنى ، والحكم ، والاستدلال . وقد تكلمنا عن المعانى وتكوينها وصلتها باللغة فى الفصل السابق .

الحكم (١) :

الحكم نسبة معنى إلى معنى إما بإيجاب وإثبات أو سلب ونفى (٢) .

ولا نريد أن نبحث الحكم من ناحية المنطق ، فهذا شأن المناطقة . أما من الناحية النفسية فالحكم إثبات أو نفى ، بمعنى أنك تثبت شيئاً لشىء ، أو تنفيه عنه ، فتقول « محمد تلميذ أو غير تلميذ » فإما أن تثبت طلب العلم إلى محمد ، أو تنفى هذه الصفة عنه .

والحكم يتضمن التصديق (٣) ، وعكس الاعتقاد هو الشك لا النفى . والنفى نوع من الإثبات ، لأنك تثبت أن هـذه الصفة لا تصلح لهذا المعنى ؛ والعقل فى حالة النفى أو الإثبات يتعرض للخطأ .

والبحث فى طبيعة الأحكام ، هو البحث فى مقدرة العقل على الإثبات أو النفى . والمعانى لا تستطيع أن تقف فى الذهن بمفردها بل لا بد من إضافة صفات

---

(١) Jugement.

(٢) البصائر النصيرية فى علم المنطق ص ٤٩ .

(٣) Croyance.

لها ، وأبسط مظاهر الأحكام هى الأحكام الصامتة ، فإذا كنت تستريض فى حقل ، ثم ساقتك قدماك إلى حافة ترعة تريد أن تعبرها فإنك « تقدر » اتساعها ، ثم « تقيس » مجهودك لتصل إلى الجانب الآخر ، فتقدير المسافة ، وقياس المجهود حكم ، ولكنه حكم صامت ، دار فى خلدك ، دون أن تبرزه فى ثوب من اللغة . ومع ذلك فاللغة ضرورية للحكم ، لأنك إذا لم تفكر بصوت عال ، فلا تستطيع إلا أن تفكر فى ثوب من اللغة الباطنة ، فتحدث نفسك . ومع ذلك فإذا كان الإنسان فى كامل تكوينه يستعين دائماً باللغة ، فهو فى طفولته الأولى كان يفكر بدونها ، ومع ذلك فالطفل الصغير أعماله كلها أحكام ، فهو إذا صاح ، فإنه يحكم على نفسه بالتألم ، وإذا ابتسم لرؤية أبيه ، فإنه يحكم على نفسه بالغبطة لهذه الرؤية . فإذا بدأ فى الكلام ، وهو فى أيامه الأولى لا ينطق إلا ببعض ألفاظ ضئيلة ، فإن اللفظة الواحدة التى ينطق بها تدل على حكم ، فإذا قال « بابا » فإنه يريد أن يقول « هذا بابا » فهو يثبت الأبوة لهذا الإنسان الشاخص أمامه .

ليست المعانى إذن أساس التفكير ، بل الأحكام ، والحكم يسبق المعنى الكلى ، فالمعنى « شجرة » ، هو إثبات مجموعة من الصفات لعدد من الأفراد التى تشترك فى نوع الشجرة . والإدراك الحسى يتضمن الحكم ، لأنك تعتقد فى حقيقة هذا الشىء الخارجى الذى تدركه ، فالإدراك الحسى إثبات لوجود الشىء الخارجى .

والحكم نسبة — كما يقول المناطقة — بين موضوع ومحمول (١) . فمن طبيعة العقل أن يحمل على الموضوع صفة من الصفات يثبتها أو ينفيها عنه . فالعقل يضع العلاقات المختلفة بين الأشياء ، ولا يستطيع أن يعقل المعانى منفصلة ،

---

(١) Sujet et attribut.

فنحن ندرك الأشياء بعلاقتها مع غيرها ، فالوقود غذاء النار ، والكتب للقراءة ، والمدرسة للتعليم ، والآلة البخارية لجر القاطرات .... فأنت ترى هنا المعانى أزواجاً أزواجاً ، لا تفهم إلا بعلاقتها مع شىء آخر ، فإذا قلت الوقود وسكتّ ، فلا يستدل من هذا المعنى على شىء ، إلا إذا اتصل بصفة من الصفات ، فالوقود للتدفئة ، أو للطهى ، أو لتوليد البخار ، أو للحريق ...

فالأحكام هى العناصر الأولى التى يتكون منها التفكير .

الاستدلال (١) :

الاستدلال هو تسلسل عدة أحكام مترتبة بعضها على بعض ، بحيث يتوقف الأخير منها على سابقاتها بالضرورة . ونحن نستدل على ترتب الأحكام بعضها على بعض ، كما نستدل للوصول إلى إيضاح حقيقة مجهولة .

وقد جرى بعض العلماء على تعريف الاستدلال بأنه حركة الذهن التى توصل من قضايا معلومة إلى قضية مجهولة ، وفى هذا التعريف نقص ، لأن الكشف مثلا لا يقوم على الترتيب المنطقى وحسب ، بل يتوقف على الابتكار ، حيث أن كشف المجهول نوع من الاختراع ، والاختراع أثر من آثار الخيال والإلهام ، كما ذكرنا فى باب التخيل ؛ ذلك أن الذهن يشتغل فيما يكشف عنه فى اللاشعور ، ثم تطفو الفكرة الجديدة فجأة فى مستوى الشعور .

والتفكير إما أن يكون نقيلا (٢) ، وإما أن يكون منظما (٣) . فإذا انتقل

---

(١) Raisonnement.

(٢) Vagabonde. — فى المصباح المنير « نقله » نقلا حوله من موضع إلى موضع ونقله بالتشديد مبالغة وتكثير فيه .

(٣) disciplinée.

الإنسان من معنى إلى معنى دون نظام كما يتفق له ، فهذا تفكير تقيل ، بينما حل مشكلة محدودة يقتضي نظاماً ، ويقتضى الرجوع إلى الاستدلال لحل هذه المشكلة . فالاستدلال هو مظهر التفكير الصحيح .

وكل استدلال فهو انتقال من حكم إلى آخر .

فنحن فى الاستدلال نحاول أن نبسط معارفنا لنطبقها على حالات تماثل حالات نعرفها . وأبسط أنواع الاستدلال هو النوع الرياضى ، فإذا قلنا ا = ب ، ب = حـ ، حـ = ى ، ى = هـ ، فإن العقل يعرف بداهة أن جميع هذه الحدود متساوية ، فنقول مثلا إن ا = هـ .

كذلك إذا قلنا إن القاهرة أكبر من الأسكندرية ، والأسكندرية أكبر من طنطا ، فنستطيع أن « نستبدل » طنطا بالأسكندرية فى القضية الأولى ، فنقول القاهرة أكبر من طنطا . فالاستدلال هو استبدال حكم بحكم ، أو الانتقال من حكم إلى حكم .

فإذا حللنا العقل وهو ينتقل بهذا الشكل ، نجد أنه يقوم بعملية « الموازنة » بين الأحكام ، ليرى هل من حقه أن ينتقل من حالة إلى حالة أخرى تنطبق عليها أم لا ، فالعقل يوازن بين هـذه الحدود الثلاثة : القاهرة والأسكندرية وطنطا ، فيرى أنها متدرجة فى الكبر ، فينتقل بالموازنة من أن القاهرة أكبر من الأسكندرية ، إلى أن القاهرة أكبر من طنطا .

ولا بد فى الاستدلال من وجود « حد أوسط » (١) يكون واسطة الانتقال بين حدين . فالأسكندرية هى الحد الأوسط بين القاهرة وطنطا ، اشتركت تارة مع القاهرة ، ومع طنطا تارة أخرى . والحد الأوسط كما يوجد فى القياس ، يوجد

(١) Moyen terme.

فى الاستقراء . فنحن فى الاستقراء نبدأ بملاحظة ظواهر الطبيعة ونخرج منها أو نستدل منها على قانون عام ، فنحن نلاحظ أن حجم الغاز يتغير تغيراً عكسياً مع الضغط ، وهو قانون تمدد الغازات ، فالحد الأوسط هنا هو « العلاقة الدائمة » بين الضغط وتمدد الغاز ، هذه العلاقة الدائمة هى التى سمحت لنا بالانتقال من الملاحظات الجزئية إلى القانون العام .

القياس والاستقراء والتمثيل :

يقسم المناطقة الاستدلال عادة إلى ثلاثة أنواع . القياس والاستقراء والتمثيل . وفى ذلك يقول ابن سينا (١) « الحجة العقلية ثلاثة أنواع : القياس والاستقراء والتمثيل ، وذلك لأنه إما أن يحكم على الجزئى لثبوت ذلك الحكم فى الكلى وهو القياس ، أو يحكم على الكلى لثبوته فى الجزئى وهو الاستقراء ، أو يحكم على الجزئى لثبوت الحكم فى جزئى آخر وهو التمثيل . . . . وأما القياس فهو العمدة وهو قول مؤلف من أقوال إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر . . . . »

فالقياس (٢) استنتاج نتيجة خاصة موجودة فى مقدمات عامة أوسع منها وأكبر ، وهذه المقدمات معروفة لنا ، والنتيجة مستمدة من المقدمات ، فنحن لن نكشف شيئاً جديداً . مثال ذلك :

كل معدن موصل جيد للحرارة .

الذهب معدن .

إذاً الذهب موصل جيد للحرارة .

فهذه النتيجة وهى أن الذهب موصل جيد للحرارة ، موجودة بنفسها فى

---

(١) لباب الإشارات ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) déduction.

مقدمات هذا القياس ، فالنتيجة غير جديدة ، بل هي جزء من المقدمة ، وعلى ذلك فالاستدلال القياسي جدب لا يخصب معرفة جديدة[١] .

ولكن القياس إذا كان لايقدم شيئاً جديداً خالصاً ، فإنه يؤدى إلى نتائج جديدة من حيث صورها وشكلها . فالنجار لا يبتدع خشباً ، ولكنه يخرج من الخشب أثاثاً يختلف عن مادة الخشب فى شكلها القديم ، والخباز لا يخترع أو ينشىء قمحاً ، ولكنه يشكل القمح فى صورة خبز لم نكن نعهده من قبل . كذلك القياس فإنه صناعة عقلية تشكل المعلومات التى نعرفها فى صور جديدة نحن فى حاجة إليها ، وتفيدنا فائدة جديدة . فالنتيجة التى نصل إليها ، ولو أنها جزء من المقدمة ، إلا أنها كانت خافية عنا ، ومختبئة فى ثنايا المقدمة ، فتبرز لنا ، ونلقى عليها ضوءاً جديداً .

أما الاستقراء[٢] فهو ملاحظة ظواهر الطبيعة ، والارتفاع منها إلى قانون عام ويتخلل ذلك محاولة « تفسير » الحقائق العامة التى نجمعها بالمشاهدات ، ويكون ذلك بواسطة « فرض[٣] » إذا تحقق يسمى قانوناً . فقد لاحظ الإنسان من قديم أن بعض الأجسام كالخشب تطفو على وجه الماء ، ثم علل ذلك بأسباب كثيرة ، إلى أن وصل أرشميدس إلى الفرض الذى أصبح قاعدة تطبق فى جميع الحالات وهو أن « كل جسم يغمر فى سائل يدفع من أسفل إلى أعلى بقوة تساوى وزن حجم السائل المزاغ » .

فالمهم فى الاستقراء هو الانتقال من ميدان الحقائق المحسوسة إلى مرحلة التفسير والفرض ، وهذا الانتقال يحتاج إلى الابتكار والإلهام ، ولذلك كان

(١) Manuel de philosophie par Luquet P. 39, 40.

(٢) Induction.

(٣) hypothèse.

الاستقراء موصلا إلى كشف القوانين العامة ، ولا يمتاز الاستقراء عن القياس من الناحية العقلية فى شىء ، فكلاهما فى حاجة إلى كشف الحد الأوسط الذى يوصل إلى النتيجة ، ولكننا فى القياس نبدأ بالقانون ، ونستمد منه حقيقة جزئية ، وفى الاستقراء نبدأ بالجزئيات وننتهى إلى القانون . والإنسان فى تفكيره فى حاجة إلى كلا الطريقتين معاً ، فبالاستقراء نصل إلى القوانين العامة ، وبالقياس نثبت صحة هذه القوانين ، ونطبقها من جديد لمعرفة الحقائق الجزئية أو نتائج التجربة .

والقياس والاستقراء يقطعان طريقاً واحداً ولكن فى اتجاه مضاد ، ذلك أنه إذا كان الطريق مجهولاً لم يطرق من قبل ، يفضل العقل أن يقطعه فى اتجاه الاستقراء ، بمعنى أنه يبدأ من ملاحظة الظواهر متجهاً نحو الفروض العامة . أما إذا كان الطريق معروفاً مرتاداً ، فإن العقل يجرؤ فى ذلك الوقت أن يرتكز على هذه الفروض العامة ويهبط منها إلى التجارب الجزئية .

أما التمثيل[1] فهو بداية الاستقراء ، وهو عبارة عن الحكم على شىء بأنه يطابق شيئاً آخر لوجود تشابه بينهما من بعض النواحى ، فيتخذ العقل هذه المشابهات الجزئية على أنها دليل تشابه أكمل وأعمق وأتم . ولذا كان هذا النوع من الاستدلال ، لا يؤدى إلى نتائج موثوقة يقينية . ومن أمثلة التمثيل أن نقول إن جو المريخ يشبه جو الأرض ، ولما كانت الأرض مسكونة ، فالمريخ كذلك مسكون .

وقد حلل ديوى[2] فى كتابه « كيف نفكر » فى الفصل السابع التفكير إلى خمس مراحل ، نلحقها فيما يلى : —

---

(١) Raisonnement par analogie.

(٢) Dewey.

١ — وجود مشكلة .

إذ لا يمكن أن يفكر الإنسان فى لا شىء ، بل لا بد أن يكون هناك موضوع للتفكير فيه ، وهذا الموضوع هو مشكلة تشعر بوجودها وضرورة حلها . والمثال الذى ضربه فى هذا الصدد ، هو أن طالباً يفكر هل يستمر فى التدخين أو يضرب عنه ؟

٢ — تحديد المشكلة .

ذلك أن المشكلة تكون متعددة الجوانب ، فإذا نظرت إليها تارة من جانب ، وتارة من جانب آخر ، فقد يؤدى هـذا إلى اللبس والتشعب والغموض ، فلا بد من تعريف المشكلة وحدها ، وإيضاحها ، حتى يستقر فى الذهن غرض واحد . ففى المثال السابق نستطيع أن نفكر فى المشكلة من الناحية الاقتصادية ، أو الصحية ، أو الخلقية ، أو النفسية ... الخ . ولنحدد المشكلة كما يأتى : هل التدخين يساعد أم يعطل التكوين الكامل الجسمى والعقلى للطالب وهو فى هـذه السن ، وهل يؤدى إلى النجاح فى الحاضر والمستقبل ؟

٣ — الحلول المحتملة وتكوين فرض .

بعد تحديد المشكلة على هذا النحو ، يشرع العقل فى استعراض الحلول المختلفة ، حتى يصل إلى حل يسمى فى ذلك الوقت فرضاً . وهنا ينقب عن الحقائق والمشاهدات التى تفيد فى الوصول إلى الحل ، فيلاحظ هذا الطالب أن فريقاً من أقرانه يدخن وفريقاً لا يدخن ، ومن بين الفريقين بعض الطلاب أكثر نشاطاً وقوة وصحة واحتمالاً ، وبعضهم أذكى عقلا ، وأكثر تحصيلا فى الدرس ، وأسبق درجة فى العلم . ولتفسير هذه الظواهر المختلفة من جهة المشكلة التى نحن بصددها ،

يفرض الطالب هذا الفرض : وهو أن التدخين معطل للنمو الجسمانى ، مؤخر للصحة والنجاح .

٤ — قيمة الفرض .

بعد الوصول إلى الفرض نبحث فى صحته ، وفى صلته بالجهات المختلفة من الموقف ، فنقول : إنه إذا كان حقاً أن التدخين معطل للنمو وللصحة والنجاح ، فإنه يجب أن يكون المدخنون أبطأ فى نموهم وأضعف فى قوتهم البدنية ، وأقل احتمالا من غير المدخنين . كذلك فإنهم لا يستطيعون مباراة غيرهم فى الرياضة البدنية وفى تحصيل الدروس . فإذا كانت نظريتنا صحيحة وجب أن تترتب عليها هذه النتائج ، وهذا ما سنشاهده فى المرحلة القادمة .

٥ — تطبيق الفرض .

إذا وجدنا التجربة تؤيد الفرض ، قبلناه ، وإذا وجدنا الوقائع تخالفه رفضناه . وهنا نبحث فنجد أن التدخين ممنوع بين أوساط الرياضيين ، لأنه اتضح بالاختبار أنه يضعف القوة البدنية ، كذلك نجد أن المدخنين من الطلبة أضعف فى مستواهم العلمى من غيرهم . ثم يحدثنا العلم عن أضراره . حينئذ يقبل صاحب هذا الفرض ما وصل إليه عقله ، ويعتقد صحته .

فعملية التفكير الكاملة هى حل المشاكل وذلك عن طريق الاستقراء والقياس .

الفصل الخامس عشر

الشخصية (١)

يطلق لفظ الشخصية عادة على معنيين مختلفين ، ولذلك يحسن بنا أولا أن نحدد المعنى الذى نريده . فمن جهة ، الشخصية هى مجموع الصفات التى تميز المرء عن غيره ، الصفات الجسمية والعقلية والخلقية . فقد تُسأل عن شخص تعرفه ، وتريد أن تصفه بحيث يكوّن السامع عنه فكرة تطابقه ، فتقول إنه طويل نحيل أبيض البشرة مرسل الشعر أسوده حليق الشارب متوسط السن باسم الثغر بشوش الوجه ، ذكى الفؤاد حاضر البديهة سريع الخاطر نافذ البصر ، أمين صادق شريف عادل عابد طاهر القلب متفائل ، يحب الاجتماع ويكره العزلة ، كريم يصل الأرحام ويعطف على المسكين ؛ هذه الصورة التى تكونها عن الشخص عند سماعك هذه الصفات المختلفة ، تقرب شخصيته إلى ذهنك ، وهذا هو ما نقصده من المعنى الأول ، ولذلك كان لكل فرد شخصية .

ومن جهة أخرى ، تطلق الشخصية على البروز والامتياز ، ولذلك يقصر هذا المعنى على أولئك الذين يبزون غيرهم ، ويمتازون عنهم ، فيقال إنهم من ذوى الشخصيات لتفوقهم فى العلم أو السياسة أو الرياضة البدنية أو أى ناحية اجتماعية . بينما العامة والدهماء ، الذين يخضعون لسلطان أصحاب الأعمال ، وينفذون ما يملى عليهم ، فلا شخصية لهم . ولكننا لن نتعرض فى بحثنا إلى الكلام على هذا

---

(١) La personnalité.

المعنى المحدود ، بل سنطلق البحث على الشخصية بمعناها الشامل العام الذى ذكرناه أولا . لأن وصف الشخصية بالقوة والضعف ، بالخير والشر ، فهو وصف يرجع إلى علم الأخلاق لا إلى علم النفس .

مظاهر الشخصية :

إذا حاولنا أن نصف الشخصية كما تبدو لنا من صاحبها ، فلا يخرج هـذا الوصف عما نسميه بالخلق [1] . والخلق هو مجموع الصفات والسلوك الذى ينزل من الإنسان منزلة الطبع ، بمعنى أن أداء الأعمال يكون بصورة واحدة لا تتغير ، فى الفكر والوجدان والعمل . ولذلك يستطيع الإنسان أن يحكم على تصرفات الناس وذلك لثبات خلقهم ، فإذا عرفت أن فلاناً بخيل ، كثير الشح ، فإنك تستطيع أن تتنبأ أنه لا يكرم ضيفاً ، ولا يحسن إلى فقير ، ولا يبـذل من ماله للجمعيات الخيرية ، ولا يبر نفسه .

وقد حاول العلماء من قديم أن ينظموا الخلق فى أصناف ، والتصنيف يقتضى كشف نوع من المميزات الأساسية التى ترتكز عليها الأنواع المختلفة المتباينة . وأشهر هـذه التصانيف هو تقسيمها بحسب الأمزجة ، وهى المزاج الدموى ، والصفراوى ، والسوداوى ، والبلغمى . فصاحب المزاج الدموى يكون قوى الجسم سليم البنية ، أبيض البشرة ومشرباً بحمرة ، سريع التأثر ، كثير التقلب ، سريع الانفعال ، قوى الخاطر . وصاحب المزاج الصفراوى يكون شاحب اللون ، ذا شعر أسود ، يميل إلى السمرة ، نشيطاً ، مثابراً ، عنيداً ثابت المبدأ . وصاحب المزاج السوداوى يكون ضئيل الجسم ، ضعيفاً ، كثير التخيل والتفكير ، لا يثق كثيراً

---

(١) الخلق بضمتين هو ما يعبر عنه باللغة الأجنبية le caractère .

بالناس ، ويتعرض سريعاً للأمراض . وصاحب المزاج البلغمي يكون شاحب اللون ، كثير الخمول ، بطيء الحركة ، مشتت الذهن ، سريع النسيان ، قليل الاعتماد على النفس . وقد أضيف حديثاً إلى هذه الأمزجة الأربعة المعروفة من قديم ، مزاج خامس هو المزاج العصبي ، وصاحبه يكون نحيلا كثير الضحك ، سريع التقلب والتغير ، عرضة للاضطرابات العصبية . وينشأ المزاج الدموى من زيادة الدم ، والصفراوى من زيادة إفراز الكبد للصفراء ، والسوداوى من زيادة إفراز الطحال ، والبلغمى من زيادة إفراز البلغم الناشيء من أحد الأخلاط الأربعة التي تكون الطبيعة الإنسانية ، وهى البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة ، والعصبي من توتر الأعصاب وهياجها ، أو زيادة السائل العصبي .

وتقسيم الناس طبقاً لأمزجتهم على هذا النحو، لا يستند إلى أساس علمى ، ولا نستطيع أن نأخذ به .

مكونات الشخصية :

ننتقل الآن إلى تفسير مظاهر الشخصية التى ذكرناها . فما هى العوامل التى تتدخل فى تكوين شخصية كل منا ؟ ترجع هذه العوامل إلى أسباب فطرية ، وأخرى مكتسبة . فالفطرية هى الاستعدادات الموروثة التى تحدد طبيعة كل شخص كالطول والقصر والقوة البدنية ، وحيوية الجسم ، والميل إلى بعض الصفات العقلية والخلقية ، كالاستعداد للتفكير الرياضى ، أو الميل إلى فن من الفنون كالموسيقى ، أو الاستعداد للانغماس فى الرذائل كشرب الخمر أو ارتكاب الجرائم(١) . والعوامل المكتسبة ترجع إلى البيئة التى تنشأ فيها ، والتعليم ، والتجارب الشخصية ،

---

(١) راجع الفصل الرابع .

وسلطان الفرد على نفسه . ولا نستطيع أن نحدد بالضبط أثر كل من هذه العوامل ، ونسبتها بعضها إلى بعض فى تكوين الشخصية . فأثر البيئة لا يظهر إلا على أساس من الاستعدادات الموروثة ، والميول الفطرية لا تظهر إلا تحت تأثير البيئة ؛ ولتشعب هذه العوامل وكثرتها ودقتها ، كان من الصعب البحث الدقيق فى أصول الشخصية .

والبيئة التى نقصدها هى المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان ، ومنه يستمد حاجاته ، فهو فى حاجة إلى تناول الطعام ، وإلى المسكن والملبس ، وإلى الزواج والتناسل ، وإلى الظهور والرياسة ، وإلى إشباع رغبة نفسه فى الكشف والإطلاع ، وإلى تجنب الأخطار ومغالبة الصعاب ، وكل ذلك لحفظ الحياة . وليس طلب هذه الأشياء ميسوراً ، بل دونها كفاح شديد ، وصراع عنيف بين الناس على الأرزاق والأقوات وأسباب المعيشة . وكثيراً ما يخيب سعى الشخص ، ويحرم من تحقيق رغباته الكثيرة . فيكره الناس ويبتعد عنهم ليعيش بينه وبين نفسه فى عزلة ، ولكن حب الاجتماع طبيعة متأصلة فى النفس ، فلا يلبث أن يعود إلى المجتمع ، وحينئذ يضطر إلى التوفيق بين رغبات نفسه ومطالب المجتمع ، ويختلف كل شخص عن الآخر فى نوع هذا التوفيق . ومن هـذه الصلة بين الفرد فى محاولته أن يلائم بين نفسه والمجتمع ، يخرج الإنسان مطبوعاً بطابع خاص هو ما نعبر عنه بالشخصية . فالشخصية هى نتيجة الاستعدادات الفطرية التى يرثها صاحبها ، بعد أن تتشكل فى البيئة التى يعيش فيها .

ولطبيعة الجسم أثر فى تكوين الشخصية ، ذلك أن قوام الإنسان وشكله يؤثران فى صلته بالناس ، وفى صلة الناس به ، فالطول يكسب صاحبه هيبة وسلطاناً طبيعيين على الناس ، فتشبع حاجته إلى الظهور والرياسة ، وترتاح نفسه إلى ذلك ، فيصبح بشوشا سمحاً رحب الصدر ؛ بينما القصير يضطر إلى الإنقياد لغيره ، ويحاول

أن ينفذ أغراضه بطرق معوجة ، فينشأ ماكراً مخادعاً . وللقوة البدنية وصحة الجسم ، وفيض الحيوية والنشاط ، والنظرات السديدة القوية ، أثر فى تكوين الشخصية القوية .

وقد ثبت علمياً أن للغدد الصماء أثراً فى تكوين الشخصية ، فإذا زاد إفراز « الإدرينالين » ، أصبح الشخص سريع التهيج والانفعال ، بينما نشاط الغدة الدرقية يؤدى إلى القوة والشجاعة والاحتمال والنشاط .

والذكاء أو بلادة الذهن يحددان كثيراً من الشخصية ، فالأبله لا يستطيع أن يقدر الظروف حق قدرها ، ويتصرف تصرفاً سيئاً مع الذين يحتك بهم ، فيغضب الناس ويثير سخطهم عليه واحتقارهم له . بينما الذكى يتفوق على أقرانه ، ولذلك يلبس رداء السيطرة .

وأول أثر يطبع شخصية المرء هو أثر البيت . فمعاملة الأبوين للطفل بالإرهاب والعقاب والضرب ، أو بالسياسة واللين والرفق ، وصلة الطفل بإخوته الأكبر أو الأصغر منه سناً ، وصلته بالخدم ، كل ذلك يؤدى إلى تكييف شخصيته بطابع شديد يصحبه حتى الكبر . فالطفل الذى يخوّف ويضرب يصبح جباناً لئيما ماكراً نزاعاً إلى الشر والانتقام ، بينما الطفل الذى يعامل بالرفق يصبح لطيفاً حسن المعاملة باراً شفيقاً .

فإذا دخل الطفل إلى المدرسة ، فإنه يبدأ عهداً جديداً ، ويدخل إلى عالم يختلف عن عالم البيت ، من حيث صلته بأقرانه فى الفصل وفى الفناء ، ومن حيث صلته بالمدرسين وناظر المدرسة ، وهو فى كل ذلك يلاقى كثيراً من المشاكل ، إذ تجنح نفسه بطبيعتها إلى التفوق والظهور ، ولكنه يجد أنداداً أكثر ذكاء وأرجح تفكيراً وأقوى جسداً ، فيتغلبون عليه ، ويجد طلاباً أقل منه نشاطاً

وأضعف علماً ، فيخضعون له ، وبين هـذه التيارات المختلفة التى تتقاذفه تتشكل شخصيته بصورة جديدة .

فإذا نزل الطالب إلى ميدان الحياة ، وبدأ يعقد أواصر الألفة مع الأصدقاء ، ويتصل بالناس فى كسب المعاش ، ويبحث عن زوجة تكون شريكته فى الحياة ، كل هذه الأحداث التى تضاف إلى العوامل السابقة تعمل على تكوين شخصيته ووضعها فى قالب جديد .

وحدة الشخصية :

هذه العوامل المختلفة التى تشترك فى تكوين الشخصية لا يضاف بعضها إلى بعض متجاورة بحيث يؤثر كل عامل منها على حدة ، وإنما تشيع جميعاً وتصبح موحدة ، أو كلاً لايتجزأ ، فتخرج منه شخصية المرء ، ولذلك كان ما يعمله أحدنا اليوم هو هو ما يعمله فى الغد . بل هذه الوحدة هى التى تسمح لنا أن نتعرف على الناس ، ولولاها ، لكان الشخص اليوم غيره غداً ، أو هو الآن غيره بعد لحظة . ولا تحتاج هذه الوحدة إلى تفسير ، لأن الطبيعة الإنسانية تقتضيها ، وقد سبق لنا فى الكلام على المظاهر المختلفة من النفس ، أن أى عمل يؤديه الإنسان ، وأن أى نوع من السلوك يفعله ، إنما يصدر عن الجوانب النفسية المختلفة التى حللنا إليها الظاهرة النفسية ، وهى الإدراك أو المعرفة والوجدان والنزوع ، فالإرادة تقوم على التفكير وعلى الميول المختلفة التى توجه صاحبها .

وهذه الوحدة تشيع كذلك مع الزمان ، بحيث تكون شخصية المرء هى هى بعد عدة سنوات ، وتسمى هـذه الوحدة الزمانية باللغة الأجنبية L'identité personnelle . وإذا كان حقاً أن ظروف البيئة تعدل من الشخصية ، فإنها

لا تغيرها تماماً ، ولذلك كان الخلق ثابتاً فى المرء إلى حد كبير. وهذا الثبات يرجع فى الحقيقـة إلى عدة عوامل ، أساسها الذاكرة والعادة ، اللتان تربطان اللحظات المختلفة من حياة الإنسان بعضها ببعض ، وتخرج لنا هذه الوحدة المنسقة . فالعادة تجعل الإنسان يردد الأعمال كالآلة ، وتطبع جهازه العصبى بطابع عميق لا يمحى ، وهذا هو السر فى أن الإنسان لا يستطيع أن يغـير خطه فى الـكتابة ، وإذا شاء أن يتعمد التزوير ، فإن الصفات الأساسية لخطه تظل ثابتة ، ولذلك يتيسر للخبراء فى الخطوط أن يتبينوا الخط المزور من الصحيح . وشخصية المجرم من الثبات بحيث لا يستطيع أن يغير سلوكه حتى لو شاء ذلك ، فالسارق الذى تعود السطو على المحلات التجارية وفتح الخزائن الحديدية ، يمتاز بهذا النوع ، ولا يستطيع أن يتركه إلى غيره من أنواع السرقات .

ومع ذلك فالشخصية تتغير مع السن ، وهناك لحظات فى حيـاة الإنسان تسوق له رداء جديداً من الشخصية ، وهـذه اللحظات هى التى تكوّن الأدوار الأساسية فى حياته . فدور المراهقة يفصل بين الطفولة والشباب ، وليس الـكهل فى خلقه كما كان فى أيام الشباب أو الطفولة ، ولا يجب أن نفهم من ذلك أن الشباب يختلف كل الخـلاف عن الطفولة ، بل هو امتداد لها ، كذلك لا ينشأ التغيير فجأة ، وإنما يتدرج تدرجاً غير محسوس . وهناك أشخاص يسهل تأثرهم بالبيئة المحيطة بهم ، حتى تطغى على ميولهم الفطرية ، وبذلك تتغير شخصياتهم أكثر من الفريق الأول .

ثم إن كل إنسان يتخذ — إلى حد ما — عـدة شخصيات تبعاً للظروف المختلفة التى تحيطه . فهو فى المنزل مع أسرته ، غيره مع الناس الذين يحتـك بهم

فى محل عمله ، غيره مع أصدقائه الذين يتسامر معهم ، إذ يتكلف الجد فى مكان العمل ، ويتبسط ويتفكه مع أصدقائه .

ولا تُرى هذه الوحدة من الخارج فقط ، بل إن الشخص نفسه يميزها ، فهو يعرف نفسه ، أو يميز نفسه بقوله « أنا »(١) وحين يكون الإنسان شاعراً بنفسه ، فإنه يميز شخصيته ، فيحدث نفســه قائلا إنى ذاهب إلى فرح ، إنى أفكر فى المستقبل ... ألخ ، فهو يحيل هذه الأفعال المختلفة إلى ذاته ، فهناك فاعل ، وفعل يصدر عن هذا الفاعل هو « أنا » وكأن الإنسان يشعر بنفسه منفصلا عن شخصيته ويتضح هذا الفارق حين يفعل الإنسان أمراً لا يرتاح إليه ، فيؤنب نفسه ويراجع عمله ، وهذه هى النفس الأخلاقية . وهناك نفس اجتماعية ، هى التى يتعامل بها صاحبها مع أفراد المجتمع ، وهناك نفس جسمية يشعر بها حين يعامل جسمه من مأكل ومشرب وصحة ومرض .

انحلال الشخصية :

الإصل أن تكون الشخصية موحدة ثابتــة لا يتغير صاحبها حين يسلك فى الظروف المختلفة من الحياة ، ولـكن قد تنحل الشخصية ، وتتعـدد ، وتذهب وحدتها المميزة لها ، فيصبح الإنسان ذا شخصيتين مختلفتين كل الخلاف ، ويعد هذا مرضاً من أمراض الشخصية ، إذ ينسى فى حالة كل ما يعرفه عن شخصيته فى حالة أخرى ، وقد ينسى اسمه وأسرته وأصدقاءه وعمله ، ويتخذ اسماً جديداً ، وأصدقاء مختلفين ، وعملا يغاير عمله الأول ، ثم يعود بعد فترة طويلة أو قصيرة إلى شخصيته الأولى ، دون أن يذكر شيئاً عن شخصيته الثانية . ويبدو لنا كأن

---

(١) Le moi.

هناك نفسين تحلان فى جسد واحد على التتابع . والشخصية الثانوية لا تختفى أصلا ثم تعود بل تنحدر إلى اللاشعور وتظل كامنة هناك ، حتى تجد الفرصة الملائمة للظهور . وقد استطاع بعض العلماء بواسطة التنويم المغناطيسى أن ينقلوا المريض من إحدى الشخصيتين إلى الأخرى ، وفى هذا دليل على وجود الشخصية الأخرى فى اللاشعور .

وقصة الدكتور « جيكل » ومستر « هايد » توضح لنا الرجل ذا الشخصيتين وفى كثير من القصص نجد مثل ذلك .

ولا بد من سبب يحل الشخصية على هذا النحو ، وهناك أسباب كثيرة ، منها الانغماس الشديد فى شرب الخمر ، إذ يتصرف شاربها تصرفاً شاذاً ، حتى إذا صحا وذهب عنه تأثير الخمر عاد إلى حالة الجد الأولى . ولا تنحل شخصية السكير إلا حين يتأثر جهازه العصبى ويصبح غير قادر على احتمال هذا التخدير .

كذلك للانفعالات الشديدة ، والصدمات النفسية ، أثر فى انقسام الشخصية إذ تكوّن الصدمة حولها عقدة نفسية تكمن فى اللاشعور ، وقد يحين الظرف المناسب لظهورها إلى مستوى الشعور فتصبغ شخصية المرء بصبغة جديدة ، لا تزول إلا حين تتراجع العقدة ثانية إلى اللاشعور . وتجد هذا واضحاً عند المرضى بالهستريا .

المراجع

١ — في اللغة الفرنسية :

1 — Nouveau Traité de Psychologie, Dumas, 5 volumes parus, Alcan.

2 — Traité de Psychologie, Dumas, 2 volumes, Alcan.

3 — Psychologie, Guillaume, Alcan.

4 — Manuel de Philosophie, Psychologie, Cuvillier, Colin.

5 — Leçons de Philosophie, Psychologie, Rey.

6 — Cours de Philosophie, Psychologie, Roustan.

7 — Cours de Philosophie, Thomas.

8 — Psychologie expérimentale, Piéron, Colin.

9 — Traité de Psychologie, Dwelchauvers, Payot.

10 — La Formation des Habitudes, Guillaume, Flammarion.

11 — La Psychologie de la Forme, Guillaume, Flammarion.

12 — A. B. C. de Psychologie, Cuvillier, Delagrave.

٢ — في اللغة الإنجليزية :

1 — Psychology, A study of Mental Life, Woodworth.

2 — Manual of Psychology, Stout,

3 — Psychology, M[c] Dougall.

4 — Social Psychology, M[c] Dougall.

5 — Mental Life, Edgell.

6 — The Mind and its Application, Betts.

7 — Talks on Psychology. William James.

8 — Psychology and Morals, Hadfield.

٣ — في اللغة العربية :

١ — أصول علم النفس — جزءان — أمين مرسى قنديل

٢ — في علم النفس

١ — الجزء الأول — مظهر سعيد — عطية الابراشى — حامد عبد القادر

٢ — الجزء الثانى والثالث — عطية الأبراشى — حامد عبد القادر

٣ — بسائط علم النفس — أحمد عطية الله

٤ — علم النفس النظرى والتعليمى — مظهر سعيد

قاموس المصطلحات الهامة
وما يرادفها باللغة الفرنسية والانجليزية

(ا)

آلى	Automatic	Automatique
آلية	Automatism	Automatisme
اتصال مباشر [فى منهج علم النفس]	Intuition	Intuition
أبله	Idiot	Idiot
إثبات	Affirmation	Affirmation
أثر [فى الاحساس]	Excitation	Excitation
اجتماع [غريزة]	Gregarious instinct	L'instinct grégaire
اجتماعى	Social	Social
احترام [فى العاطفة]	Respect	Respect
أحداث نفسية	Psychological phenomena	Phénomènes psychologiques
احساس	Sensation	Sensation
الإحساس بالحرارة	Heat sensation	Sensation thermique
الاحساس العضلى	Muscle sensation	Sensation musculaire
اختبار	Test	Test
اختبار شخصى [فى منهج علم النفس]	Personal enquiry	Enquête personnelle
اختراع [= إبداع]	Creation = Invention	Création = Invention
إدراك حسى	Perception	Perception
إدراك كلى	Conception	Conception
إرادة	Will	Volonté
إرادى	Voluntary	Volontaire
ارتياح	Satisfaction	Satisfaction
استجابة	Response	éponse
استدلال	Reasoning	Raisonnement
استدلال قياسى	Deduction	Déduction

Rappel = Evocation	Recall	استرجاع [في الذاكرة]
Curiosité	Curiosity	استطلاع [غريزة]
Disposition innée	Innate disposition	استعداد فطرى
Induction	Induction	استقراء
Geste	Gesture	إشارة
Croyance	Belief	اعتقاد
Sublimation	Sublimation	إعلاء [في الغرائز]
Familiarité	Familiarity	ألفة
Douleur	Pain	ألم
Inspiration	Inspiration	إلهام
Fibres nerveuses	Nerve fibres	ألياف عصبية
musculaire	Muscle fibres	ألياف عضلية
Maladies mentales	Mental diseases	أمراض نفسية
Le moi	The ego	الأنا
Egoïsme	Egoism	الأنانية
Attention	Attention	انتباه
Transfert des sentiments	Transfer of sentiments	انتقال العواطف
Désagrégation de la personnalité	Disintegration of personality	انحلال الشخصية
Tissus Musculaires	Muscle tissues	أنسجة عضلية
Emotion	Emotion	انفعال
Dépression	Depression	انقباض
Soumission	Submission	انقياد
Suggestion	Suggestion	إيحاء
Auto-suggestion	Auto-suggestion	إيحاء ذاتى
Contra-suggestion	Contra-suggestion	إيحاء عكسى

(ب)

Motif	Motive	باعث
Primitif	Primitive	بدائى
L'homme primitif	Primitive man	الإنسان البدائى
Vision	Vision	بصر
Visuel	Visual	بصرى
Milieu	Environment	بيئة

(ت)

Synthèse	Synthesis	تأليف [= تركيب]
Introspection	Introspection	تأمل باطنى [فى منهج علم النفس]
Justification	Justification, rationalisation	تبرير [= تسويغ]
Contiguïté	Contiguity	تجاور [= تلازم]
Localisation	Localisation	تحديد [فى الذاكرة]
Expérience	Experience	تجربة
Expérience passée	Past experience	تجربة سابقة
Expérimentation	Experiment	تجربة علمية
Expérimental	Experimental	تجريبى
Abstraction	Abstraction	تجريد
Partition	Partition	تجزىء
Analyse	Analysis	تحليل
Psychanalyse	Psychoanalysis	تحليل نفسانى
Imagination	Imagination	تخيل
Association des idées	Association of ideas	تداعى المعانى [= ترابط]
Exercice = Dressage	Training	تدريب
Hésitation	Hesitation	تردد [فى الإرادة]
Récitation	Recitation	تسميع [فى الذاكرة]
Ressemblance	Similarity	تشابه
Solution	Solving	تصرف [= حل]
Décision	Decision	تصميم [فى الإرادة]
Contraste	Contrast	تضاد
Evolution	Evolution	تطور
Sympathie	Sympathy	تعاطف [= المشاركة الوجدانية]
Fatigue	Fatigue	تعب
Fatigue Mentale	Mental fatigue	تعب عقلى
Reconnaissance	Recognition	تعرف [فى الذاكرة]
Causation	Causation	تعليل
Acquisition	Learning	تعلم
Généralisation	Generalisation	تعميم
Explication	Explanation	تفسير

Pensée	Thinking	تفكير
Pensée vagabonde	Uncontrolled thinking	تفكير تقيل
— disciplinée	Disciplined thinking	« منظم
Dégoût	Disgust	تقزز
Traditions	Traditions	تقاليد
Imitation	Imitation	تقليد [= محاكاة]
Répétition	Repetition	تكرار
Formation	Formation	تكوين
Circonvolutions	Convolutions	تلافيف
Tatônnement	Trial and error	تلمس
Raisonnement par analogie	Analogy	تمثيل [في المنطق]
Vérification	Verification	تمحيص
Exécution	Execution	تنفيذ [في الارادة]
Hypnotisme	Hypnotism	تنوم مغناطيسى
L'influx nerveux	Nervous current	تيار عصبي

(ج)

Loi de l'acquisition récente	Recency	الجدة [قانون تداعى المعانى]
Système parasympathique	Parasympathetic system	الجهاز البار اسمبثاوى
— sympathique	Sympathetic system	الجهاز السمبثاوى
Système nerveux	Nervous system	الجهاز العصبي
Systéme nerveux périphérique	peripheral nervous system	الجهاز العصبي الطرفي
Somnambulisme	Somnambulism	الجولان النومى

(ح)

Besoin	Need	حاجة
Sens	Sense	حاسة
Sens d'orientation	Orientation sensation	حاسة الاتجاه
Sensation cénesthéaique	Organic sensation	حاسة باطنة

— kinesthésique	Kinesthesic sensation	حاسة التوازن
Etat psychologique	Psychological state	حالة نفسية
Amour	Love	حب
Moëlle épinière	Spinal cord	الحبل الشوكى
Moyen terme	Middle term	حد أوسط [في المنطق]
Mouvement	Movement	حركة
Moteur, motrice	Motor	حركى
Liberté	Liberty	حرية
Tristesse	Sorrow	حزن
Acquisition	Learning	الحفظ [في الذاكرة]
Jugement	Judgment	حكم
Rêve	Dream	حلم
Rêveries	Day-dreamings	أحلام اليقظة
La vie mentale, ou intelectu	Mental life	الحياة العقلية
La vie active	Conative life	الحياة النزوعية
La vie affective	Affective life	الحياة الوجدانية

(خ)

Expérience	Experience	خبرة
Illusion	Illusion	خداع الحواس
Caractère	Character	خلق
Cellule nerveuse	nerve cell	الخلية العصبية
La peur	Fear	الخوف

(د)

Mobile	Mobile	دافع
Etonnement	Astonishment	دهشة

(ذ)

Mémoire	Memory	ذاكرة
Mémoire motrice	Motor memory	ذاكرة حركية
Intelligence	Intelligence	ذكاء
Goût	Taste	ذوق

	(ر)	
Réaction	Reaction	رد [رد فعل]
Succion	Sucking	رضاعة [غريزة]
Terreur	Terror	رعب
Désir	Desire	رغبة
Symbole	Symbol	رمز
	(ز)	
Dendrites	Dendrites	زوائد شجيرية
Axon	Axon	زائدة محورية
	(س)	
La conduite	Behaviour	السلوك
Behaviorisme	Behaviourism	— مذهب السلوك
Behavioristes	Behaviourists	— السلوكيون
La conduite innée	Innate behaviour	السلوك الفطرى
La conduite acquise	Acquired behaviour	السلوك المكتسب
Supériorité	Superiority,Self-assertion	السيطرة [غريزة]
	(ش)	
Subjectif	Subjective	شخصى
La personnalité	Personality	الشخصية
La conscience	Consciousness	الشعور
Doute	Doubt	شك
L'odorat	Smelling	الشم [حاسة]
Passion	Passion	شهوة
Intérêt	Interest	شوق
Fréquence	Frequency	الشيوع [فى تداعى المعانى]
	(ص)	
Emotion-choc	Shock	صدمة نفسية
Qualité, Attribut	Quality, Attribute	صفة
Image	Image	صورة

— Visuelle	Visual image	— بصرية
— Motrice	Motor —	— حركية
— auditive	Auditive —	— سمعية
— olfactive	Olfactory —	— شمية
— tactile	Tactile —	— لمسية
Image Composite	Composite image	صورة مركبة
	(ض)	
Le rire	Laughter	الضحك
	(ط)	
Méthode	Method	طريقة [منهج]
	(ظ)	
Phénomènes psychologiques	Psychological phenomena	ظواهر نفسية
	(ع)	
Habitude	Habit	عادة
Sentiment	Sentiment	عاطفة
Décision	Decision	العزم [فى الارادة]
Complexe psychologique	Psychological complex	عقدة نفسية
Raison	Mind	عقل
Rapport	Relation	علاقة [صلة]
Science	Science	علم
Biologie	Biology	علم الحياة
Psychologie	Psychology	علم النفس
	(غ)	
But	Purpose	غاية [غرض]
Instinct	Instinct	غريزة
La Couleur	Anger	الغضب [انفعال]

	(ف)	
La joie	Joy	فرح
Hypothèse	Hypothesis	فرض [الفرض العلمى]
Supposition	Supposition	فرض [افتراض]
Nature	Nature	فطرة
Inné	Innate	فطرى [= موهوب]
L'acte réflexe	Reflex action	الفعل المنعكس
Réflexe conditionné	Conditioned reflex	الفعل المنعكس الشرطى [المعدل]
Idée fixe	Fixed idea	فكرة ثابتة
	(ق)	
Loi	Law	قانون
— naturelle	Natural law	— طبيعى
Arc réflexe	Reflex arc	القوس المنعكس
Syllogisme	Syllogism	قياس [فى المنطق]
	(ك)	
Refoulement	Repression	الكبت
La Haine	Hatred	الكراهية
Combat	Pugnacity	الكفاح أو المقاتلة [غريزة]
Quantité	Quantity	الكم
Qualité	Quality	الكيف
	(ل)	
Le plaisir	Pleasure	اللذة
Le jeu	Play	اللعب
Le langage	Language	اللغة
Le toucher	Touch	اللمس [حاسة]
	(م)	
Extension	Denotation, Extension	ما صدق [فى المنطق]

Métaphysique	Metaphysics	ما وراء الطبيعة
Le courant de la conscience	Stream of consciousness	مجرى الشعور
Cerveau	Brain	المخ
Cervelle	Cerebellum	المخيخ
Percept	Percept	مدرك حسى
Temps de réaction	Reaction time	مدة رد الفعل
Tempérament	Temperament	مزاج
Flegmatique	Phlegmatic	— بلغمى
Sanguin	Sanguine	— دموى
Mélancolique	Melancholic	— سوداوى
Colérique	Choleric	— صفراوى
Chronographe	Chronograph	مسجل الزمن
Responsabilité	Responsibility	مسئولية
Problème	Problem	مشكلة
Connaissance	Cognition	معرفة
Idée	Idea	معنى
Concept	Concept	المعنى الكلى
Compréhension	Comprehension	مفهوم [فى المنطق]
Observation	Observation	ملاحظة [= مشاهدة]
— extérieure	External Observation	— ظاهرة
Stimulus	Stimulus	منبه
Logique	Logic	منطق
Comparaison	Comparison	موازنة
Excitant	Stimulus	مؤثر
Objet	Object	موضوع
Objectif	Objective	موضوعى
Innée	Inherited	موروث
Situation	Situation	موقف

(ن)

La moëlle épinière	Spinal cord	النخاع الشوكى
Action	Conation	نزوع
Caprice	Caprice	نزوة

L'Oubli	Forgetting	النسيان
Souffle	Breath	نَفَس
Ame	Soul	نفس
Psychologique	Psychological	نفسانى
Psychologie des animaux	Animal Psychology	نفسية الحيوان
Psychologie des enfants	Child —	نفسية الأطفال
Répulsion	Repulsion	النفور
Négation	Negation	نفى
Critique	Criticism	النقد
	(هـ)	
Subconscience	Subconsciousness	هامش الشعور
La Fuite	Flight	هرب [غريزة]
Hallucination	Hallucination	هلوسة
	(و)	
Affection	Feeling, affection	الوجدان
Unité	Unity	وحدة
Identité personnelle	Integrated personality	وحدة الشخصية
Hérédité	Heredity	وراثة
Moyen	Means	وسيلة
Synapse	Synapse	الوصلة [فى الجهاز العصبى]
Positif	Positive	وضعى
Conservation	Retention	الوعى
	(لا)	
L'inconscience	Unconsciousness	اللاشعور

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة